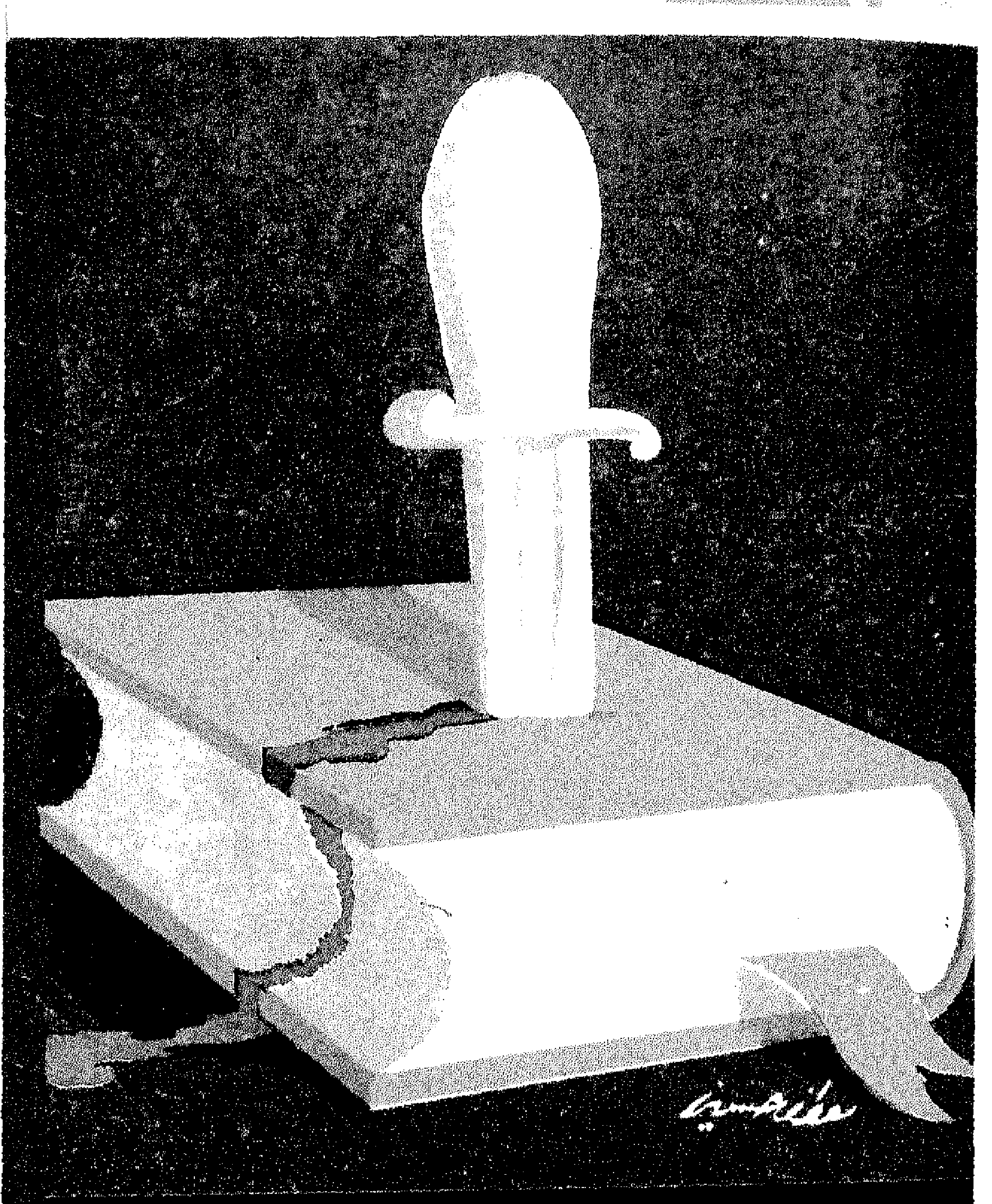
محمود عوض

اقرأ

أفكار ضد الرصاص





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا





اقرأ ٣٥٨ - أكتوبر ١٩٧٢

الناشر: دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة . ج.م.ع

محمود عوض

أفكار ضد الرصاص

اقرأ ٣٥٨

دار المعارف بمصر

« حيث العقل لا يخاف ، والرأس مرفوع عال

وحيث المعرفة حرة

وحيث العالم لم يمزق التعصب جدرانه

وحيث تخرج الكلمات من أعماق الحقيقة

وحيث الكفاح المستمر يمد ذراعيه نحو الكمال

وحيث لا يفقد جدول العقل مجراه فى صحراء التقاليد الميتة

وحيث يقود العقل نحو ساحات أفسح من الفكر والعمل

تحت سماء الحرية تلك .. يا إلهى .. أيقظ وطنى ».

طاغور

مقدمة

فى الصفحات التالية سوف تجد أربع جرائم قتل !

إنه قتل مع سبق الإصرار والترصد . قتل مع التعمد . قتل مع التنفيذ . إنه ليس تفكيراً فى قتل، ليس شروعاً ، ليس محاولة . إنه . . قتل ! ومع ذلك . . فإن الجانى يخرج بعد كل جريمة بغير عقاب!

إن القتيل معروف . . وأداة القتل مضبوطة . . وسبب القتل واضح . والشهود موجودون . . والقاتل معترف . ومع ذلك — فإن جريمة القتل يتم تسجيلها فى النهاية ضد : مجهول .

إن القتيل ليس شخصاً عاديًّا . والقاتل ليس شخصاً واحداً . .

القتيل هو « كتاب » . مجرد كتاب . مجرد حبر وورق . . وعليهما رأى . . لكن — إذا كان القتيل هو « مجرد » كتاب ، فإن القاتل لم يكن « مجرد » شخص .

إن القاتل فى كل مرة كان مجموعة أشخاص . أحياناً أغلبية . إن السكين ربما تحمله فى النهاية أكثر من يد واحدة (السلطان ؟ الملك ؟ رئيس الوزراء ؟ الحكومة ؟) ، ولكنهم فى النهاية سلطة واحدة . لها تفكير السلطة ، وأسلحة السلطة ، وجبروت السلطة .

إن هدف الجريمة فى كل مرة هو هدف عاجل : إعدام كتاب . مصادرة رأى — لكن بعد هذا — هناك هدف آجل : إعدام الحرية .

فأى محكمة حينما تقرر إعدام مجرم — قتل مجرم — فإنها لا تقصد بذلك تصحيح الجريمة التى ارتكبها . وإنما تقصد — بالدرجة الأولى — أن تحذر الآخرين من سلوك طريقه .

وحينما قررت السلطة فى المجتمع المصرى «إعدام» الكتب الأربعة التى سنتناولها حالا ، فإنها تعرف بالضبط أسباب هذا الإعدام .

إن كلا من قاسم أمين ، والكواكبي ، وعلى عبد الرازق ، وطه حسين . . قد أصدر كتاباً يدافع فيه عن الحرية .

كانت جريمة قاسم أمين هي أنه طلب الحرية للمرأة . . في مواجهة الرجل . .

وجريمة الكواكبي هي أنه طلب الحرية للشعب . . في مواجهة السلطان . .

وجريمة على عبد الرازق هي أنه طلب الحرية للدين . . في مواجهة الملك . .

وجريمة طه حسين هي أنه طلب الحرية للأدب . . في مواجهة السياسة . .

إن جوهر القضية هو نفسه في كل مرة . ومعنى العقوبة هو نفسه في كل حالة . لقد تم التشهير بقاسم أمين ، وقتل الكواكبي ، وعزل على عبد الرازق ، وفصل طه حسين . . كإجراء نهائي . وقبل ذلك ، أعلن المجتمع حكمه على الأربعة : أنهم خونة . . زنادقة . . ملحدون . . فاجرون.

ولم يكن كل هذا مفاجئاً . .

فالسلطة في المجتمع العربي كانت لها دائماً مقاييسها الخاصة التي تخفيها دائماً وتعلنها أحياناً .

إنها تعتبر : أن الخوف صبر . . والجمود عقل . . والتطور جنون . . والتجديد إلحاد . . والحرية كفر . . والتفكير جريمة . الضعف نعمة . . والجبن قيمة . . والشجاعة رذيلة . . والصمت حكمة . . والجهل فضيلة . . والتمرد زندقة . . والاختلاف خيانة . الظلام نور . . والظلم عدل . . والطغيان قوة . . والإرهاب قانون . . والحاكم إله . . والمرأة حيوان . . والشعب عبيد . والتاريخ أسطورة . . والماضي مقدس . . والحاضر مقبول . . والمستقبل ملعون .

هذه ليست لوغاريتمات . هذه مجرد عينة مماستجده فى هذا الكتاب مجرد نموذج من المقاييس التى حوكم على أساسها الرجال الأربعة .

إنها أيضاً ليست مفاجأة . فكل من الأربعة كان يعلم مقدماً بما ينتظره ، ومع ذلك قرر اختيار طريقه . فكلما اضطر واحد منهم إلى الاختيار اختار الحرية قبل الضغط . . اختار الاختلاف قبل الموافقة . . اختار المفكر فوق السياسى . . اختار الإنسان الواحد فوق القطيع الضخم . لهذا كله دفعوا ثمناً غالياً وتعرضوا لعقاب صارم . ومع توقع النتيجة وانتظار العقوبة ، فإن أحداً من الأربعة لم يتردد لحظة واحدة قبل أن يخرج كتابه . لقد قال رأيه وبدأ يحارب من أجله . إنهم يحاربون من أجل إعلان رأيهم . ليس من أجل وظيفة . ليس من أجل مركز . ليس من أجل سلطة . بل من أجل فكرة . مبدأ . رأى .

وفى كل مرة كانت المعركة تدور بين طرفين غير متكافئين من البداية : رأس ضد الحائط . . قلم ضد السيف . . شيخ ضد الكعبة . . وطه حسين ضد مصر .

وكان الصراع يجرى بين رأى ورأى . حجة وحجة . ومع ذلك لم تكن هناك مجادلة . لم تكن هناك مناقشة . كانت هناك فقط . . ملاكمة . والأسوأ من هذا أنها ملاكمة تحت الحزام . إن السلطة تصدر حكمها على المؤلف فى كل مرة بأنه كفر بالله ، ثم تستصدر من الله تأكيداً بالحكم . . حتى لا يقدم المؤلف استئنافاً إلى السماء !

وفى كل مرة كان كل كتاب يثير ردود أفعال كثيرة بين المثقفين فى المجتمع المصرى . ولكن السلطة هى التى كانت تحتفظ لنفسها بحق الحسم فى النهاية . وحينما تحسم السلطة فإنها لا تفكر ، لا تقدر ، إنها تذبح . . تستأصل . . تقتل . وللأسف . . كانت السلطة تجد دائماً مثقفين آخرين يمهدون الطريق أمامها . مثقفين تجدهم فى كل مجتمع مستعدين للتصفيق للسلطة . طالما أن رأساً آخر هو الذى تحت السيف !

وفى كل مرة أيضاً كان كل كتاب يثير الشكوك فى صحة واحدة من العلاقات الرئيسية داخل المجتمع : علاقة الرجل بالمرأة ... علاقة السلطان بمواطنيه . . أو علاقة السياسة بالدين والأدب .

وبالنسبة لكل واحدة من هذه العلاقات كان المجتمع يحتفظ لنفسه بمجموعة من المفاهيم الثابتة المستمرة التى أصبحت خبزاً يومياً يأكله الناس . مفاهيم خاطئة . . لا يهم . مريضة . . لا يهم . إن المهم فقط هو أنها موجودة وأن على كل فرد فى المجتمع أن يقبلها على ما هى عليه . وعلى كل كاتب أن يصفق لها . . أو يغلق فمه .

وبالطبع من الممكن دائماً أن تصفق للخطأ . . وتستمر فى الكتابة ، أو تعرف الخطأ . . لكن تستمر فى التصفيق له . هذا ما اختارته الأغلبية فى تلك الأيام التى صدرت فيها تلك الكتب الأربعة .

ولكن كلاً من طه حسين وعلى عبد الرازق والكواكبى وقاسم أمين اختار طريقاً آخر : طريق العذاب . لقد عرفوا أن مكانهم ليس مع القطيع ، ولكن مع الحقيقة . . مع المستقبل .

وفى اختيارهم هذا فإنهم دفعوا الثمن الذى كان لابد أن يدفعوه نيابة عن غيرهم . فى كل جيل من المثقفين تستطيع أن تجد دائماً عدداً قليلا من الذين يقبلون التضحية بكل شىء — الأسرة ، والثروة ، والمركز ، والأصدقاء ، والوظيفة — لكى يجيبوا عن السؤال المفزع : كيف يجب علينا أن نعيش . . ونفكر ؟ السؤال صعب . . والإجابة هامة . . والثمن فادح .

إن حياتهم تصبح جحيماً . . والصداقة معهم تصبح تهمة . . والاستماع إليهم يصبح جريمة . . ولكن ضميرهم يستريح . إن الضمير يستريح . . لأنهم قالوا ما يؤمنون بأنه حق ، ولأنهم رفضوا الانضمام إلى القطيع ... فالأسماك الميتة فقط هى التى تسبح مع التيار .

ولأنهم لم يكونوا أسماكاً ميتة .. لم يكونوا عقولا ميتة .. فإنهم قالوا

للناس رأيهم بصراحة .

وكان أول ثمن دفعوه لهذه الصراحة هو أن المجتمع وضعهم فى قائمته السوداء . نعم . لسنوات طويلة ظل طه حسين وعلى عبد الرازق والكواكبي وقاسم أمين .. رجالا فى القائمة السوداء. إن العقوبة هنا شخصية، ولكن الهدف الأكثر أهمية هو تحذير غيرهم من سلوك الطريق نفسه .

لهذا تساوى مركزهم فترة طويلة مع مركز المجرمين . أسوأ من المجرمين . لهذا قام المجتمع سريعاً بقتل كتبهم . بقتل آرائهم .

ولماذا لاتسمى العنكبوت عنكبوتاً ؟

القضية هى حرية الرأى . .

إن جرائم القتل الأربعة ليست هى الجرائم الوحيدة التى ارتكبتها السلطة ضد حرية الرأى . إنها فقط حالات «التلبس» . الحالات التى وقف فيها الجانى « متلبساً » أمام التاريخ . . وأمام المستقبل .

وهى جرائم ساهمت فيها أطراف كثيرة . ولكن السياسة كانت هناك دائماً وراء كل جريمة . هذا طبيعى . لأن السياسة فى مجتمعاتنا كانت دائماً مع الأمر الواقع ، وضد التغيير . إن التغيير يقع ، والمستقبل يصل ، ولكن المستقبل يفاجئنا فى كل مرة حيث لم نتصوره ، أو نستعد له . ولأن السياسة كانت ترفع حرية الرأى كمجرد شعار . منذ ألف سنة وهى شعار . ولأن السياسة كانت تجد فى حرية الرأى خطراً مباشراً عليها ، وترفاً لا تريده بالنسبة لمواطنيها .

وعندما كانت السياسة فى مجتمعنا تقتل حرية الرأى – منذ ألف سنة وهى تقتل حرية الرأى – فإنها كانت فى الواقع تقتل أشياء كثيرة فى مجتمعنا . إنها تقتل العلم والأدب والتفكير والكرامة والعدل . تقتل المستقبل . إنها تزرع الطاعة بدلا من النقد ، النفاق بدلا من الصدق ، الخوف بدلا من الشجاعة .

وفى النهاية كان المجتمع كله هو الذى يدفع الثمن . إن العلم غير

موجود . . لأنك لا تستطيع أن تبنى مجتمعاً علمياً من العبيد . والأدب غير موجود . . لأن الأدب الجيد لا يكتبه أدباء خائفون . والثقافة لا تنتشر . . لأن النفاق يحقق لك ما تحققه الثقافة . . وأكثر .

ثم إن السياسة نفسها كانت تقع فى تناقض آخر بعد ذلك . إنها تريد من المواطن أن يكون جباناً فى مواجهة ماضيه . . شجاعاً فى مواجهة مستقبله . جباناً فى مواجهة حاكمه . . وشجاعاً فى مواجهة عدوه . هذا مستحيل . لأن الجبن والشجاعة لا ينقسمان إلى أجزاء . إن الجبن يتحقق بإعدام الحرية . والشجاعة تتحقق بانتشار الحرية . هذا هو التناقض. لأن الحرية هي فى النهاية شجاعة عقلية. وحينما تموت شجاعة المواطن فى بيته . . فإنها لن تولد فيه فجأة خارج بيته .إن الإنسان لا يستطيع أن يصبح شجاعاً فجأة بمجرد شعار، بمجرد خطبة.. مثلما لا يستطيع الإنسان أن يصبح موسيقاراً فجأة بمجرد سماعه قطعة من الموسيقى.

إنى أستطيع أن أعطيك قلبى . . سوف أصبح عاشقاً .
أعطيك طعامى . . سوف أصبح جائعاً .
أعطيك ثروتى . . سوف أصبح فقيراً .
أعطيك عمرى . . سوف أصبح ذكرى .

ولكننى – أبداً أبداً – لا أستطيع أن أعطيك حريتى . إن حريتى هى دمائى ، هى عقلى ، هى تفكيرى ، هى خبز حياتى . إنى لو أعطيتك إياها . . فإننى أصبح قطيعاً . حيواناً . كمية مهملة . شيئاً بلا قيمة . شيئاً له ماض . ولكن ليس أمامه مستقبل . إن حريتى هى رأيى ، هى شجاعتى ، هى نبض الحياة فى شرايينى .

دعنا إذن نناقش القضايا الأربعة – الجرائم الأربعة – التالية باعتبارها نموذجاً فى الشجاعة العقلية . نموذجاً من الصراع بين الخوف والشجاعة . بين الماضى والمستقبل . بين السلطة وحرية الرأى .

أما الباقى . . فهو تاريخ .

محمود عوض

قاسم أمين



١

رأس ضد الحائط !

« حيث إن أفراد عائلتنا المخصوصة قد وهبوا حسب الإيجاب ٤٢٥٧٢٩ فدانـاً من الأراضى ، والمقدار المعلوم بأملاك كماهو مبين بالكشف ، وإنه فى هذه الحالة طبعاً سيحصل عسراً فى المعيشــة . . فلأجل موارد معيشتهم قد تخصص لهم مبلغ ٢٦٠ ألف جنيه من مبلغ ٣٦٠ ألف جنيه المخصص لمقام خديويتنا بحسب المخصص لاسم كل منهم » .

هذه ديباجة الأمر الذى أصدره الخديو إسماعيل — والى مصر — سنة ١٨٧٨ . أمر يفرض على الحكومة المصرية أن تدفع للخديو وأسرته ٣٦٠ ألف جنيه كمرتب سنوى حتى لا . . « يحصل عسر فى المعيشة » لأفراد الأسرة . وهذا المبلغ تدفعه الحكومة المصرية برغم أن كل ميزانيتها ستة ملايين جنيه ، أى أنه بعملية حسابية بسيطة ، يعادل ٧٢ مليون جنيه تدفعها الحكومة المصرية الآن !

وفى الشهر التالى مباشرة — نوفمبر سنة ١٨٧٨ — أصدر الخديو أمراً عالياً آخر يحدد طريقة توزيع الـ ٣٦٠ ألف جنيه على أسرته ، فى قائمة تضمنت على رأسها كل من :

١٠٠ ألف جنيه — الحضرة الفخيمة الخديوية .

أربعة وخمسون ألف جنيه — والدة الجناب العالى الخديوى .

عشرون ألف جنيه — برنجى هانم
عشرون ألف جنيه — إيكنجى هانم
عشرون ألف جنيه — أوتشنجى هانم
خمسون ألف جنيه — دورتنجى هانم .

إن الهوانم المشار إليهن بـ « برنجى هانم . . إيكنجى هانم . . إلخ » هن زوجات الخديو الأربع . وقد ذكرن بالترتيب التركى ، أى الهانم الأولى والهانم الثانية . . إلخ .

أربع هوانم تركيات تدفع لهن الحكومة المصرية من ميزانيتها مائة وعشرة آلاف جنيه ، فى حين أن الحكومة — نفس الحكومة — تدفع فى نفس السنة .. عشرة جنيهات شهريا لجمال الدين الأفغانى . وحتى هذه الجنيهات العشرة لم يتقرر صرفها إلا بعد أن توسط « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتلرى رياض باشا » — رئيس الوزراء . . لدى الخديو . بعد هذه الوساطة فقط وافق الخديو على صرف الجنيهات العشرة مرتباً شهرياً لجمال الدين الأفغانى ، أكبر مفكر فى مصر فى وقتها . وحتى بعد سنوات أخرى من هذه الوساطة لم يزد المرتب الذى دفعته الحكومة المصرية للشيخ محمد عبده مقابل عمله فى جريدة الوقائع المصرية على خمسة عشر جنيهاً، وسعد زغلول ثمانية جنيهات . إنهم لا يستحقون أكثر من ذلك . هذا هو رأى حكومة مصر .

ولم يكن خديو مصر يدفع هذه المرتبات إيماناً بالفكر والمفكرين بل لأنه يريد أن يستكمل لنفسه مظاهر الحاكم العصرى . بل إنه عندما يحاول تطوير الجريدة المصرية الناطقة باسم الحكومة يصدر أمراً خديوياً عالياً يأمر فيه لمحررى الجريدة « .. بالبن والفحم لزوم القهوة والماء العذب لزوم المشروب» . ماذا يبقى لهم بعد ذلك ؟ لا شىء سوى تدبيج المقالات فى مدح فخامته !

هذا هو مفهوم العصرية عند الخديو إسماعيل . إنه يبنى داراً للأوبرا

على الطراز الأوربى ، يبنى قصراً بالجزيرة على مثال قصر الحمراء فى الأندلس ، ثم يبنى قصراً فى الجزيرة ، وقصراً فى القبة ، وقصراً فى الإسماعيلية ، يشترى قصراً فى باريس ، ينفق مليوناً و ٤٠٠ ألف جنيه فى حفل واحد لافتتاح قناة السويس .

هذه هى العصرية : مظهر براق يختفى تحته شعب يعانى الجهل ، والفقر والمرض . إن الخديو لا يهتم بالواقع . إنه يهتم فقط بالشكل الخارجى ، بالمظهر ، بالديكور . لهذا لم يكن هناك مفر من أن تصل ديون مصر فى آخر حكمه إلى ٩٥ مليون جنيه . ديون تبعها الإفلاس والتدخل الأجنبى ثم الاحتلال الأجنبى .

و . . هذا هو الجو الذى نشأ فيه وتربى طفل صغير اسمه قاسم محمد أمين .

إن قاسم أمين ولد فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ لأم مصرية وأب من أصل تركى . وعندما تقدم لنيل إجازة الحقوق سنة ١٨٨١ كان أول الناجحين فى الليسانس . لم يكن عمره قد تجاوز الثامنة عشرة بعد . ولكنها سن لا تكفى للانتباه إلى الأحداث الخطيرة التى يمر بها بلده — مصر : خديو آخر يحكم — هو الخديو توفيق — تدخل أجنبى فى الاقتصاد المصرى . ثورة وطنية بقيادة عرابى تصاب بالإخفاق . احتلال إنجليزى يستعمر مصر منذ سنة ١٨٨٢ . شعور عام بالنكسة يستمر سنوات . صعاليك أجانب يأتون إلى مصر فيصبحون أثرياء فى غمضة عين ، لا لشىء إلا أنهم صعاليك . . ولأنهم أجانب . خديو آخر يعتلى كرسى الحكم : الخديو عباس حلمى الثانى .

فى عهد عباس باعت مصر ١١ باخرة تملكها إلى شركة إنجليزية بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه ، مع أن إنجلترا كانت قد باعت ثلاثة من هذه البواخر إلى مصر بـ ٢٠٠ ألف جنيه !

هذه هى أيضاً السنة التى حاول فيها اللورد كرومر أن يبيع سكك

حديد الحكومة المصرية فى السودان إلى شركة إنجليزية . إنها سنة ١٨٨٨ .

سنة يسميها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى سنة التصفية . تصفية ممتلكات الحكومة المصرية .

ولكنها كانت أيضاً السنة التى بدأ قاسم أمين يستعد فيها لأكبر معركة فكرية خاضها فى حياته . معركة انطلقت شرارتها بسبب كتاب له أخرجه إلى النور فى السنة التالية ١٨٨٩ . كتاب عنوانه « تحرير المرأة » . كتاب « . . كان ظهوره حادثاً ، بل حادثاً خطيراً » على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل بعد ذلك بسنوات .

إن قاسم أمين ، فيما بين حصوله على إجازة الحقوق سنة ١٨٨١ ، وبين إخراجه كتابه سنة ١٨٨٩ ، كان قد مر بأحداث هادئة . . على عكس الأحداث الضخمة التى عاشتها مصر .

فى خلال تلك السنوات تعرف قاسم أمين بجمال الدين الأفغانى فى « باريس» ومحمد عبده وسعد زغلول . . وكان قد سافر إلى فرنسا فى بعثة دراسية . عاد من هناك ليعمل فى سلك القضاء وعمره ٢٢ سنة . انتقل إلى نيابة بنى سويف ثم طنطا . وفى النهاية عين مع سعد زغلول بقرار واحد قاضيين بمحكمة الاستئناف . . إلى أن أصبح كل منهما مستشاراً فى سنة ١٨٩٤ ، حينئذ قرر قاسم أمين أن يتزوج ، وسرعان ما أصبح رب أسرة .

هذه هى حياة قاسم أمين عندما نتأملها فى تلك الفترة . حياة هادئة ، عادية ، سالمة .

وخلال تلك السنوات كانت أحوال المجتمع المصرى قد بدأت تجذب اهتمامه شيئاً فشيئاً . لقد أمضى سنوات طويلة يتأمل طريقة حياة هذا المجتمع وأسلوب تفكيره بالنسبة لمجال رئيسى هو علاقة الرجل والمرأة .

كيف كان المجتمع يرى تلك العلاقة فى تلك السنوات ؟

نعود إلى التاريخ . .

إن المجتمع المصرى يضع الرجل والمرأة على أبعد مسافة ممكنة بعضهما من بعض . . فالرجل يجب أن تكون له لحية طويلة أو — على الأقل — شارب ضخم ، حتى تكون رجولته ظاهرة من بعيد . من مسافة !

أما المرأة فيجب أن تبدو كخيمة تمشى على قدمين . خيمة لا يبدو منها سوى ثقبين ضيقين يسمحان لعينيها بالرؤية .

إن كلاً من الرجل والمرأة يجب أن يتميز عن الآخر فى سلوكه .

فالرجل قوى . . عدوانى . . جهورى الصوت .

والمرأة ضعيفة . . خجلة . . خافتة الصوت . . تلتزم دائماً موقف الدفاع . . المرأة لا تتكلم ، بل تستمع . لا تناقش ، بل تطيع . لا تتحرك . بل تنتظر .

إنها تنتظر فى البيت حتى يصل إليها العريس . إن العريس دائماً هو ابن الحلال المنتظر . ويجب أن يصل ابن الحلال هذا قبل أن يصل سن الفتاة إلى الثانية عشرة . إن الرجل يستطيع أن يتزوج فى أى وقت ، أى سن . أما المرأة فلابد أن تتزوج فى سن الثانية عشرة . تصرف ضد ما تريده الطبيعة نفسها .. ولكن هذا ما يريده المجتمع . إن المجتمع صارم فى هذه النقطة . إنه يعطى الفتاة مهلة للزواج حتى تصبح فى سن السادسة عشرة . بالكثير السابعة عشرة . أما إذا لم تتزوج قبل هذه السن ، فالويل لها . ابتداء من السابعة عشرة سوف ينظر المجتمع إلى الفتاة غير المتزوجة على أنها « عانس » . سوف تنظر إليها أخواتها الصغريات على أنها حاجز . سوف تنظر لها زميلاتها على أنها نحس .

لهذا السبب فإن أى فتاة تبدأ — منذ سن الثانية عشرة — « تنتظر » .

فابتداء من هذه السن — وأحياناً ابتداء من سن العاشرة — تسحب الأسرة فتاتها إلى داخل المنزل . من الآن يجب أن تبقى الفتاة داخل الجدران ، يجب أن ترتدى الحجاب والحبرة ، تتوقف

عن اللعب والمرح والخروج إلى الشارع .. من الآن عليها أن تتقوقع على نفسها . إذا نظرت إلى الشارع فمن خلال ثقوب « المشربية » . إذا جلست ففى ركن الحريم . إذا تعلمت فعن طريق « المعلمة » التى تعلمها بعض مبادئ تفصيل الملابس .

من الآن على الفتاة أن تترقب .. تفكر .. تتأمل ، تحلم ، تنتظر . خبر زواجها . إنها لا تنتظر زوجاً محدداً . . فهذا من اختصاص والدها . لا تنتظر يوماً محدداً . فهذا من اختصاص والد العريس المنتظر . إن عليها فقط أن تنتظر . . تنتظر شخصاً ما . . فى ليلة ما . . تزف إليه .

بل إن الرجل نفسه عليه أن ينتظر قراراً غيابياً آخر يتخذه والده بشأن اختيار شريكة حياته . إن المجتمع يرى أن الزواج هو عملية تدخل فى اختصاص أى انسان إلا الزوج والزوجة ! أحياناً يتم الاتفاق على الزواج بين والدى العريس والعروس وهما ما يزالان أطفالا فى الخامسة أو السادسة . . أحياناً أخرى يتم هذا الاتفاق قبل الزواج الفعلى بشهر ، أو حتى بأسبوع . . وفى جميع الأحوال فإن العروسين يواجهان بعضهما بعضاً لأول مرة ليلة الزفاف .. بدون أن تكون لدى أحدهما أقل فكرة عن الآخر .

إن العروس — قبل أن يتم الزفاف فعلا بخمس دقائق فقط — لا تكون لديها أدنى فكرة : هل زوجها هذا شاب ، عجوز ، أخنف ، أهتم ، أعرج ، قصير ، طويل ؟!

والعريس لا تكون لديه أقل فكرة عما إذا كانت شريكة حياته هذه صحيحة . . مريضة ، حدباء الظهر ، مقوسة الساقين ، سمراء ، بيضاء ، رفيعة ، سمينة !

هل تريد مثلا واقعياً ؟ خذ هذه القصة التى يرويها أحمد شفيق باشا عن نفسه فى الجزء الأول من مذكراته .

يقول أحمد شفيق : « فى نوفمبر سنة ١٨٩١ ، عندما كنت راجعاً فى أحد الأيام من السراى إلى المنزل قابلنى عبده بك البابلى رئيس الجواهرجية وفاجأنى بتهنئة لم أعرف لها مناسبة .. فسألته الإفصاح عن سبب ذلك ، فأجابنى بأنه كلف بإعداد بعض الجوهرات والفضية لجهاز إحدى كريمات العائلات الشريفة اسماً وأصلا والتى ستزف إلى . فدهشت وأخبرت والدتى بذلك ورغبت فى رؤية خطيبتى قبل الزواج ، فقالت : إن ذلك لا يتأتى مع عائلة شريفة كهاته ، ولا سيا أن ذلك لم يكن مألوفاً . فرجوتها أن أرى على الأقل صورتها . وبعد يومين من ذلك حضرت إحدى السيدات منتدبة من قبل هاته العائلة لإبلاغ والدتى قرارها باختيارى زوجاً لإحدى كريماتها . فطلبت منها والدتى أن تقدم لوالدة العروس الشكر ، وأن تعلمها بأنها ستزورها لترى خطيبتى . وعقب ذلك رجعت هاته السيدة ثانية وأبلغت والدتى استياء العائلة من طلبها . وكان هذا سبباً فى عدم إتمام الزواج » .

هكذا كان المجتمع يعيش ويفكر . . إن كل فتاة عليها أن تنتظر قرار زواجها . . كقرار . . قرار لا يقبل مناقشة . . قرار يبلغه والدها إليها عن طريق والدتها . وإلى أن تبلغها والدتها هذا القرار عليها أن تنتظر . وفى خلال مدة انتظارها هذه عليها أن نتعلم كل المهارات التى تجعلها فى المستقبل زوجة ناجحة . عليها أن تتعلم من أمها كيف تغسل ، تطبخ ، تكنس ، تنظف ، تفصل ، تعجن ، تخبز ، تلد ، تطيع ، تستمع . . والأهم من هذا كله أن تحتفظ بزوجها المنتظر .

إنها تعلم من أمها أن هناك وصفة سحرية للزوج : أن تنجب له طفلا من السنة الأولى . طفل — لا طفلة ؛ فالرجل يحب الأولاد ، لا البنات . . وعليها أن تنجب الطفل الثانى ، الثالث . . الرابع ، الخامس ، الثامن بأقصى سرعة . من الأفضل أن تلد مرة كل سنة . . لأن هذا يجعل زوجها مشدوداً إليها من البداية بقيد متين .

ومن اللحظة التي تتزوج فيها الفتاة يبدأ الحائط بينها وبين المجتمع يزداد ارتفاعاً .. وسمكاً . من الآن سوف يصبح المنزل — أكثر من أى وقت مضى — هو كل دنياها . إن أى شيء يحدث خارجه هو شيء تافه أو شيء لم يحدث مطلقاً . أن يكون اليوم هو السبت أو الأربعاء . . مسألة لا تهم كثيراً ، فكل الأيام تتشابه . من الآن سوف يناديها المجتمع بلقب « السيدة المصونة والجوهرة المكنونة حرم فلان » . إن قيمتها إذن هى أنها مصونة .. مكنونة . تعبير مهذب بديل عن « مدفونة » . مدفونة خلف حائط . . داخل منزل . ومن الآن سوف يصبح المجتمع كله الفرصة . ومهمة المجتمع أن يسحب منها هذه الفرصة حتى لا تفسد المرأة بتصرفاتها أخلاق المجتمع كله . وهذه الفرصة موجودة فى كل مرة تخرج المرأة فيها من منزلها . . إذن . . يجب ألا يسمح لها بالخروج . ولماذا تخرج ؟ أليس السقاء يقوم بإحضار المياه العذبة إلى البيت كل يوم ؟ ألا تقوم « الدلالة » بإحضار أنواع الأقمشة والخضراوات كل صباح ؟ إذن . . يكفى أن تخرج المرأة كل أسبوعين ، أو كل أسبوع ، إن المجتمع لا يستطيع أن تكون مسرفاً مع المرأة أكثر من ذلك .

وإذا خرجت المرأة فبصحبة رجل . . ولكى تزور والدتها أو سيدة أخرى متزوجة ، أو قريبة لها .

وقبل أن تخرج المرأة فإنها تقضى ساعات طويلة تستعد لهذا الخروج . إنها تمشط شعرها — مع ملاحظة أن الموضة هى أن تطيل المرأة شعرها حتى خصرها . شعر معقوص . . ممشط ، مفتول فى ضفائر . شعر يتماسك بفضل كومة من الدبابيس والمشابك .

وبعد أن تتزين المرأة تلبس — فراجية — على جسمها و— عزيزية — على رأسها و— يشمك — على وجهها به ثقبان تطل منهما عيناها . إنها ترتدى— شنتيان — و — سلطة — و— سبلة —

ومصطلحات أخرى كثيرة . وفوق هذا كله ترتدى — حبرة — تغطى بها جسمها من كعب قدمها حتى قمة رأسها . . على رأسها منديل كغطاء تحت الحبرة ، ثم برقع يغطى الوجه . وفى قدميها تضع المرأة حذاء أو خفاً أصفر من قطعتين : قطعة تغطى القدم والأخرى تلبس داخل الأولى وتغطى الساق . . أحياناً تضع فى قدمها خلخالا .

وفى النهاية تخرج المرأة بهذه الكومة من الملابس — هذه التحصينات الدفاعية — لكى تركب حماراً . يسير أمامها خادم يقودها إلى مكان زيارتها .

وبالطبع يستطيع الفقر أن يعفى المرأة من بعض هذه الملابس ، ولكن فى النهاية تظل هذه هى الصورة الكاملة التى يريدها المجتمع من ملابس المرأة .

إن المرأة تضع فوق جسمها كل هذه الملابس — طبقة فوق طبقة — تماماً كطبقات جلد البصل . . حتى يختفى الأثر الأخير لأنوثتها . بل إن العناصر الطبيعية الأساسية — الشمس والضوء والهواء مثلا — ليس مسموحاً لها أن تنفذ إلى جسم المرأة بأى حال من الأحوال . وعلى المرأة أن ترتدى كل هذه الملابس مهما كان الجو . . حاراً أو بارداً . مهما كان الوقت صباحاً أو مساء . . إن المجتمع يريد فى النهاية أن تختفى كل الملامح المميزة لجسم المرأة . ومن لحظة زواجها حتى موتها . . فلن يرى إنسان واحد أى جزء من جسمها غير زوجها . لن يرى أحد فى الشارع وجهها . . ومهمة الحجاب هى منع مثل هذه الفضيحة . سوف يظل الحجاب حاجزاً على وجه المرأة طوال حياتها إلى أن تموت . وحتى عندما تموت ، فربما تصعد روحها إلى السماء وهى أيضاً من خلف حجاب ! هذه هى الوسيلة الوحيدة أمام المجتمع لكى يضمن انتشار الفضيلة واختفاء الرذيلة .

ومع ذلك . .

هل انتشرت الفضيلة واختفت الرذيلة حقاً ؟

هل كانت مدينة القاهرة مثلا — فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، أكثر فضيلة وأقل رذيلة من القاهرة الآن ، بعد عشرات السنوات من التطور ؟

إن الإجابة هى كلمة واحدة : لا . أبداً . مطلقاً ! !

لقد أقام المجتمع حائطاً عالياً بين الرجل والمرأة ، لقد غطى جسم المرأة بعباءة واسعة لاينفذ منها الضوء ولا الشمس ولا الهواء ، عباءة أخلاقية كان من المتوقع أن تختفى تحتها كل الرذائل . . وتبرز خارجها كل الفضائل .

ومع ذلك كله . . كانت هذه العباءة الأخلاقية مهلهلة . . ملأى بالثقوب .

وفى هذه النقطة نعود إلى مذكرات أحمد شفيق باشا — أول من أعطى صورة شاملة لتلك الأيام ، نعود إلى الجزء الأول من المذكرات ، وهو يؤرخ أحوال مصر حتى سنة ١٨٩٢ .

إن أحمد شفيق يسجل فى سطر واحد مستوى الأخلاق العامة للمجتمع المصرى فى القاهرة ، طبيعى أنه يرفع من قيمة الجيل الذى ينتمى إليه ، ولكنه بعد سطر واحد سوف يبدأ يستدرك بحيث تنسف سطوره التالية السطر الأول من أساسه .

يقول أحمد شفيق : « . . لم يكن التهتك معروفاً فى الملبس أو الخروج أو السير أو غيرها ، إلا بين العاهرات فى الأحياء الخاصة بهن . وكان الحجاب من لوازم المرأة ، فلم يكن يتاح لها الخروج إلا فى وقار وحشمة ومع هذا . . » .

ومع هذا . . ماذا ؟

هنا يبدأ أحمد شفيق يتراجع خطوة خطوة ! . .

« . . ومع هذا فقد كان هناك نوع ظريف من المغازلات الخاصة ، ذلك أن بعض الفتيان كانوا يتعرفون ببعض الأسر ، فيقضون ليالى فى

بيوتها ، كلها أنس وسمر وطرب ، وقد يشركون معهم بعض زملائهم متفكهين فيقودونهم فى العربات إلى هذه المنازل معصوبى الأعين ، فلا ترفع العصابات عن أعينهم إلا فى داخل المنزل ، وبعد قضاء السهرة يخرجون كما دخلوا معصوبى الأعين ، حتى لا يعرفوا فى أى مكان كانوا ، ولا فى أى منزل أتيحت لهم تلك السهرات ، وكان أخى محمود أفندى وهى شاباً وسيماً مولعاً بالطرب جميل الصوت ، وكثيراً ما كانت وسامته وجمال صوته يتيحان له فرصاً كهذه لا يدرى أين ولا كيف سنحت ، حتى يكون فيها وحتى يستمرئ لذاتها ، وقد كانت تذاع يومئذ روايات غريبة ، منها اقتناص أفراد من رجال الجيش الأشداء بجهة العباسية ليلا ، ووضعهم فى عربات مقفلة ، والسير بهم إلى دار سيدة عظيمة الشأن يتوصل إلى مقرها بواسطة سرداب تحت الأرض ، ثم لا يعرف لهم من بعد ذلك مقر » .

عزيزى القارئ — انتهت كلمات صاحب المذكرات ، هل فهمت منها ما فهمته أنا ؟ أشكرك .

خذ أيضاً مثلا آخر — من نفس المذكرات . يقول أحمد شفيق :

« كان يوجد فى القاهرة بيوت خاصة ببيع الرقيق تعرض بواسطة يسرجيات أو يسرجيين ، وكان يرتاد هذه البيوت من يريد اقتناء الجوارى أو المماليك أو العبيد ، وكان المعتاد أن يكشف على الجنسين وهم عرايا . . وكان مالكو الرقيق يستمتعون بالإناث — الجوارى — وخصوصاً البيض منهن . وكن يملأن بيوت الكبراء . . وبذا اختلط الدم المصرى بدم الجراكسة فى بعض الأسر »[١٠].

ولكن شراء الرقيق أمر لا يستطيعه غير الأغنياء — الكبراء بلغة العصر — فضلا عن أنه كان قد منع رسمياً منذ أيام الخديو إسماعيل ، إذن . . نبحث عن وسائل أخرى لقياس الحجم الحقيقى للرذيلة فى القاهرة خلال تلك الفترة . .

إن القاهرة — فى بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر — هى مدينة يقيم فيها ٣٧٥ ألفاً من السكان . هؤلاء كل سكانها ، بما فيهم ٣٢ ألفاً من الأجانب ، خواجات من كل صنف وكل لون .

إن الملميات الخمسة تستطيع أن توفر لك إفطاراً جيداً . رغيف بمليم ، فول وزيت بمليمين ، طبق سلطة بمليم ، برتقالة بمليم ، الغذاء أو العشاء — المكون من الخضراوات المطبوخة والأرز ولحم البقر أو الضأن — يكلفك عشرين مليماً .

كل شيء رخيص فى القاهرة إذن . . بما فى ذلك الأخلاق نفسها !

خذ مثلا ما كتبته صحيفة الإخلاص بالقاهرة فى ١٧ يوليو سنة ١٨٩٧ : « إن الرقص المصرى مبتذل ومنظره شنيع لا يستحسنه إلا من ضرب الجهل أطنابه على قمة رأسه ، سيما وإن الراقصات المصريات هن من المومسات اللواتى لم يتخذن هذا الفن إلا قضاء لشهواتهن وإيقاع الشبان الجهلاء فى شباكهن ليسلبن مالهم » . .

خذ هذه الكلمات أيضا من صحيفة المقطم . نشرتها فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ فى مجال حديثها عن أخلاق الأدباء وعن « . . ارتيادهم الطرقات والمنتديات ، وهم كلما رأوا سيدة عارضوها فى طريقها وأسمعوها من أقوالهم ما يحمر له الوجه ، وأنكى من ذلك وأشد وقاحة شراؤهم الصور القبيحة وإبرازها أمام كل مخدرة يلتقون بها . . فتأخذ تلك المسكينة الرعدة من هذه السفالة . . ولا يزالون فى أثرها حتى تلج حانوتاً أو تركب مركبة تخلصها من شرهم » .

مرة أخرى تنشر (المقطم) إعلاناً فى ٨ ديسمبر من نفس السنة تقول فيه : « أعلن صاحب حمام شنيد الشهير فى بناء حليم باشا بالأزبكية أنه فتح أبوابه من أول ديسمبر الجارى لطالبى الاستحمام فيه نساء ورجالا ، وفى جميع ساعات النهار » .

بعدها تقول صحيفة المؤيد : « . . وبلغ الفساد مبلغاً لم يشاهد فى البلاد الأجنبية ، فقد عثروا فى يوم واحد على ثلاثة عشر لقيطاً فى جوانب القاهرة » . .

والصحف كلها تنشر إعلانات عن طبعات جديدة من كتاب يشرح وسائل (رجوع الشيخ إلى صباه) ، وعن الأدوية التى (. . تشفى من ارتخاء الأعضاء التناسلية ، ثمن الزجاجة ١٤ قرشاً) ، وتنشر إعلانات عن أدوية أخرى (. . مضمونة فى شفاء أمراض السيلان والزهرى) . .

ماذا جرى ؟ . .

أليس هذا هو نفس المجتمع الذى اتخذ من قبل أقصى احتياطاته لنشر الفضيلة والقضاء على الرذيلة ؟ نفس المجتمع الذى أراد أن يحمى المرأة من الرجل . . والرجل من المرأة ؟ نفس المجتمع الذى ارتدى من قبل عباءة أخلاقية محكمة تحصنه ضد الرذيلة ؟

نعم . . هو نفس المجتمع . . هى نفس المدينة . .

ولكن . . فى مجتمع كهذا ، ومدينة كهذه . . فإن تفكيراً كهذا بدأ القضية من مقدمات خاطئة . . فانتهى إلى نتائج خاطئة .

لقد رأينا من قبل كيف أن الخديو إسماعيل انطلق يبنى القصور ، يقيم الحفلات ، يؤسس داراً للأوبرا . . متصوراً أنه — بهذه الواجهة البراقة — قد بنى دولة عصرية ، إن كل ما أثار اهتمامه هو الشكل الخارجى المظهر ، الديكور . . وكانت النتيجة فاحشة الأضرار عليه وعلى مصر كلها .

والمجتمع كله فعل نفس الشىء بالنسبة لقضية المرأة ، لقد وضع أكواماً من الملابس على جسم المرأة وضع حجاباً على وجهها . . ورقيباً فى ذيلها . . وحائطاً أمامها . . متصوراً أنه بذلك قد نشر الفضيلة وقضى على الرذيلة .

ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً . .

إن كل ما حدث هو أن الرذيلة انتقلت لتعمل تحت الأرض . . بعيداً عن الضوء ، فعلى السطح يحتفظ المجتمع بستار كاذب ، وتحت السطح تنتشر بؤرة فساد أخلاقية تتسع وتتسع ، لا لشيء إلا لأنها بعيدة عن الضوء . كان المجتمع ينظر إلى مياه النيل فيتصور أنها هى هى لم تتغير . . ولكنه لم يكن يعلم أن هذه المياه تتغير كل دقيقة ، كل ثانية . كان يتصور أنه – بمنطق الإكراه – سيرغم المرأة على الفضيلة ، ولكنه لم يكن يعلم أنه لا يوجد إنسان فاضل أو غير فاضل قبل أن يملك حق الاختيار ، قبل أن يكون حرًّا .

كانت وسائل المجتمع فى نشر الفضيلة غير طبيعية ، فقاومتها الرذيلة بوسائل غير طبيعية أيضاً ، انتشر البغاء ، انتشرت الكتب الصفراء ، انتشرت الأمراض التناسلية ، إن عدد الشبان المصابين بالأمراض التناسلية وقتها كان مائة ضعف العدد المصاب بها الآن مع فارق جوهرى . . هو أن الأمراض وقتها كانت أكثر خطورة لأن الأدوية كانت أقل نجاحاً . بل إن الصحف تسجل أن مقاهي القاهرة فى تلك الفترة كانت مقرًّا دائماً للباعة المتجولين الذين يبيعون الرسوم العارية والكتب الجنسية للشبان .

ومع ذلك . . يقال إن المجتمع كان يقصد بهذه الإجراءات الاستثنائية أن يحمى خليته الرئيسية أولا . يحمى الأسرة . وطالما أن هذه الأمراض الاجتماعية تنتشر بعيداً عن الأسرة فلا خطر ولا ضرر طالما الأسرة – كخلية للمجتمع – تعيش هادئة مستقرة . . فإن الأمر يستحق كل هذه الإجراءات غير الطبيعية .

هذه هى الحجة الأخيرة التى يلقيها أنصار تلك التقاليد والحواجز التى أقامها المجتمع . حجة مفحمة . حجة يتوقع أصحابها أن تنتهى عندها كل مناقشة .

يا ريت ! . .

يا ليت الأمر كان كذلك . .

لم يكن كذلك . .

إن الإحصائيات الرسمية للزواج والطلاق عن تلك الفترة تقدم الرد . هذا هو : إنه فى مدينة القاهرة وحدها . . نجد أن من بين كل أربع زوجات يتم طلاق ثلاثة منهن . . وتبقى واحدة فقط ! . .

هنا بالضبط تنهار جميع الحجج التى ارتفعت بسببها الحوائط وأقيمت الحواجز . هنا بالضبط سقطت جميع الخطوط الدفاعية التى أقامها المجتمع . سقطت فى نفس النقطة التى كان من المفروض أن تدافع عنها .

لقد ركز المجتمع وسائل دفاعه كلها على المرأة . . لقد منعها من الاختلاط ، من التعليم ، من المشاركة حتى فى اختيار زوجها ، لقد غطى جسمها بحبرة ووجهها بحجاب ، لقد فصلها عن الحياة بحائط سميك مرتفع خوفاً من نزواتها . إلى هذه الدرجة كانت الأخلاق العامة تخاف — ترتعد — من الرذيلة . إنها — بخوفها هذا — سهلت مهمة هزيمتها بيديها !

ولم تكن الأخلاق العامة هى وحدها التى يحكمها الخوف . .

كان كل شىء فى مصر يحكمه الخوف . الخديو يخاف من الاحتلال : عقوبته العزل من السلطة . الحكومة تخاف من كرومر : عقوبتها الطرد من كرسى الحكم . الموظف يخاف من رئيسه : عقوبته الفصل من الخدمة . التلميذ يخاف من أستاذه : عقوبته الحبس فى الزنزانة . الزوجة تخاف من زوجها : عقوبتها النفى من المجتمع . إن عليها أن ترضى دائماً بنوع المعاملة التى قررها لها المجتمع مقدماً . . عليها أن ترضى أن تكون مواطناً من الدرجة الثالثة . الرجل مواطن من الدرجة الثانية . لا توجد درجة أولى . إنها محجوزة لأى أجنبى يعيش فى مصر . . إنجليزى أو غير إنجليزى !

هذا هو المجتمع المصرى فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. هذه هي حواجزه : حاجز كبير بين الحاكم والمحكوم ، حاجز آخر بين الفقير والغنى . حاجز ثالث بين الأب وابنه . حاجز رابع بين المرأة وزوجها .

والآن . .

سوف يقف شخص واحد وسط هذا المجتمع ، هذه المدينة ، هذه التقاليد . ليحاول نزع واحد من هذه الحواجز : حاجز المرأة عن المجتمع .

شخص واحد هو قاسم أمين – تتذكره ؟ – سوف يحاول أن يعترض على هذا الحاجز المرتفع ، هذا الحائط السميك . . الذى يفصل المرأة عن مجتمعها . .

لقد أعد قاسم أمين كتاباً عنوانه « تحرير المرأة » . إنه سوف يبدأ بنشره خلال الأشهر الأولى من تلك السنة – سنة ١٨٨٩ .

إن قاسم أمين تردد كثيراً قبل أن يضع كتابه هذا . تردد لأن الحائط أمامه سميك جدًّا ، قوى جدًّا ، مرتفع جدًّا . إنه لا يخفى عنا تردده ، بل خوفه .

فمن الصفحة الأولى فى الكتاب – بل حتى من السطر الأول – يكتب قاسم أمين : « . . سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة » .

أخطأ قاسم أمين . .

فبعد صدور الكتاب لم يقل أحد إنه أتى ببدعة ، ولكنهم قالوا فقط – فقط – إن هذا الرجل يجب قتله ! مسكين . . قاسم أمين !

لقد حاول أن يستخدم رأسه لإزالة الحائط الكبير بين المرأة والمجتمع . ولكن رأسه سوف يتهشم أكثر من مرة . . قبل أن ينجح ، حتى فى فتح ثقب واحد فى هذا الحائط ! .

٢

الحائط
أو: هذه جدتى

أى امرأة تلك التى عاشت فى مصر ، فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ؟ أى امرأة كانت جدتى ؟ أى عقول ؟ . . أى تفكير ؟ . . أى ظروف ؟ . . أى بيئة ؟ . . أى مجتمع ؟ أى عادات أحاطت بجدتى ؟

سؤال ضرورى لكى نفهم قاسم أمين .

إنها — جدتى — امرأة يمكن أن تكون فى سن العشرين ، أو الثلاثين ، أو الأربعين . . ولكنها مع ذلك كانت فى حالة طفولة دائمة . إن الطفولة ليست عمراً تحدده شهادة الميلاد . إنها حالة عقلية . الطفولة معناها أن شخصاً آخر يحمل عنك الهموم ويسحب منك المسئولية ويفرض عليك الوصاية . إن أفعالك لا تصبح صحيحة قبل أن يوافق هو . . وهى ليست خاطئة إلا إذا اعترض هو . بهذا القياس فإن المرأة هى طفل مستمر . طفل تحت الوصاية . إن الوصاية مفروضة عليها من الناس والمجتمع والأسرة والأقارب والجيران . . قبل أن يفرضها عليها زوجها . وعندما تتزوج فإن الزوج يقوم بالمهمة نيابة عن الجميع .

إن المجتمع زرع فيها مبكراً أهم صفات الطفولة الدائمة . زرع فيها من البداية القدرة على الطاعة وعدم القدرة على التفكير لحسابها . إن قدرها وحظها هو الطاعة العمياء ، إنها ليست زوجة مخلصة قبل أن تكون مطيعة . . وعمياء . إنها لن تكون طيبة قبل أن تستسلم للدنيا المحيطة بها . إن تلك الدنيا التى تعيش فيها ليست حلاً وسطاً بين

أحلامها وواقعها ، بين إرادتها وظروفها . . ولكنها دنيا غامضة ، مبهمة ، مظلمة . دنيا تخضع لأهواء القدر . . والقسمة والنصيب . إنها شيء فى علم الغيب . شيء لا بد للمرأة أن تخضع له فى سلبية وصبر وصمت .

إن دنياها تعطيها كل يوم درساً جديداً يؤكد ضرورة السلبية . إنها كامرأة عليها أن تطبخ . إن الطبخ يعلمها كل يوم أن تصبر وتطيع وتستسلم . إن عليها أن تطيع النار . . تطيع الماء . . تنتظر السكر حتى يذوب ، والعجين حتى يختمر . . والغسيل حتى يجف . . والزوج حتى يأكل . إنها تنتظر العريس حتى يصل . . تنتظر الأب حتى يختار . . تنتظر الأسرة حتى تقرر . إنها تنتظر زوجها حتى يأتى من العمل . . تنتظر الدورة كل شهر . . تنتظر الطفل كل سنة . إن حياتها كلها انتظار طويل لا ينتهى . إنها فى انتظار عودة زوجها من العمل . . لكى تعمل . فى انتظار ابتسامته . . لكى تهدأ . فى انتظار ضحكته . . لكى تستريح . فى انتظار نقوده كل شهر . . لكى تأكل . حتى فى الفراش تظل فى انتظار رغبته . . لكى تبدأ رغبتها .

إنها تشعر بأنها لا حول لها ولا قوة أمام الأشياء والناس والمجتمع . أمام الظروف والتقاليد والزوج . إن السلبية فيها تتحالف مع الطاعة ، لكى تجعلها فى النهاية مخلوقاً صبوراً مستكيناً ، صابراً أمام الكوارث والمصائب . إن هذا يقتل فيها أيضاً القدرة على تقويم الأشياء . القدرة على الرفض ، على الموازنة ، على النقد ، على فرز الطيب من الخبيث . . والجيد من الردىء . إن الجيد جيد لأن زوجها يراه كذلك ، والردىء ردىء لأنه يقول كذلك . إن كلمة « لماذا » مشطوبة دائماً من لغتها وحديثها . إذا قال زوجها شيئاً فليس من حقها أن تقول لماذا . لا من حقها ولا من سلطتها ولا فى قدرتها . إن سلطة زوجها أمامها نهائية وحاسمة وقاطعة وفاصلة . إن الإله الذى يخاف منه الرجل موجود هناك بعيداً فى السماء .

ولكن الإله الذى تخشاه جدتى كان موجوداً على بعد خطوتين منها : زوجها . إنه إله يعيش معها داخل المنزل، ويقتسم معها السرير . إن سلطة زوجها واضحة أمامها فى داخل البيت . لهذا فإنها – حتى وهى تتعامل مع أولادها – تطلب منهم ، تعاقبهم ، تكافئهم . . باسم الرجل ومن خلال سلطته . إن سلطة الرجل أمامها ليست محل مناقشة ، وشخصيته ليست محل جدل . إن الساعات التى يقضيها زوجها فى المنزل ، الحجرة التى يجلس فيها ، المائدة التى يأكل عليها ، الأشياء التى تحيط به .. لها صفات مقدسة. بل إنه – فى كثير من الأسر أيام جدتى – كانت الزوجة لا تجرؤ على أن تأكل مع زوجها على مائدة واحدة !

إن هذا ليس شعوراً طبيعياً بين زوج وزوجته . ولكن الزوج بالنسبة لجدتى لم يكن مجرد زوج . كان رمزاً . كان سلطة . كان رمزاً للسلطة . إنه يعمل ويخرج ويتصرف ويفكر بالنيابة عن نفسه وعنها . إنها تتعامل مع الدنيا كلها من خلاله . إنه حلقة الاتصال الوحيدة بينها داخل البيت وبين الدنيا خارج البيت . إن رؤية الدنيا . . رؤية الأشياء بوضوح . . ليست من عملها . إن الاختلاط بالناس والدنيا ليس من اختصاصها . إن البحث والتفكير ليس فى قدرتها . لهذا فإن جدتى لم تكن تعرف كيف تنتقد ، كيف تتحرى الحقيقة ، كيف تقوّم الأشياء . الطفل لا يقوّم شيئاً . الطفل ينتظر أبوه لكى يختار له . المرأة تنتظر زوجها لكى يختار لها . إنها تترك له كل شىء ، ليس لأنها تريد فقط ، ولكن لأنه – فعلا – يفهم الدنيا أحسن منها . إن أفكارها عن الدنيا والناس تدخل عقلها عن طريقه وبوساطته . إنها فى الواقع لم تكن أفكاراً. إنها اتجاهات وميول وعواطف. إذا كانت جدتى ترى أن الحكومة فى مصر طيبة ، فلأنها تسمع أن جارها – جندى البوليس – يصلى كل فرض فى موعده . إن المقاييس عندها بسيطة ، وهى تلتقطها من أقرب شىء تراه بحواسها . . وليس بعقلها . إن المجتمع جعل

مستقبلها مسدوداً وسماءها منخفضة ودنياها مغلقة وحياتها ملأى بالتكرار والروتين . إن الزمن لا يأتى لها بعنصر جديد ، وهى بدورها لا تتحكم فيه ولا تشعر بأن لإرادتها أدنى تأثير عليه . إنها ترى المستقبل كمجرد تكرار للماضى . ترى أن حياتها تسير كالقطار ، فوق قضيبين موضوعين مقدماً ، ونحو هدف محقق سلفاً . هدف لم تختره ولا تعرفه .

أقول إن المجتمع حكم على جدتى – وهى هنا رمز لجيلها كله – بأن تعيش حياتها داخل دنيا مغلقة . دنيا محدودة ، بسقف فوق عقلها وأربعة حوائط حول أفكارها . لهذا فإن من الطبيعى أن تلجأ جدتى إلى تكبير تلك الدنيا فى الخيال كتعويض عن حجمها وصغرها فى الواقع . إنها بالأوهام التى ستنمو فى رأسها . . سوف تحس بأن حجم دنياها قد تضاعف ، وحدودها قد اتسعت .

إنها – جدتى – تعبر فى ذلك عن النموذج التقليدى للمرأة فى مجتمع زراعى مغلق . امرأة تؤمن بالسحر ، بالأحلام ، بتفسير الأحلام ، بالحظ ، بالنصيب ، بالقدر ، بالمصادفة ، بالشعوذة ، بالدجل ، بالأساطير ، بالشياطين ، بالتنجيم ، بالفلك وضرب الرمل وقراءة الكف والأشباح والعفاريت .

إنها إذا أرادت الحمل فعليها أن تزور أحد الأضرحة . هذا الضريح لشفاء العاقر ، هذا الضريح لكسب الزوج ، هذا لمنع الحسد ، هذا لجلب الحظ ، هذا لإبعاد النحس .

إنها تفعل هذا كله تعبيراً عن قلقها . إن قلقها هو تعبير عن عدم ثقتها فيما يمكن أن يأتى به إليها المستقبل . عن عدم ثقتها فى الدنيا التى تعيش فيها . إنها دنيا ملأى بالتهديد ، جاهزة للانهيار ، وهى تعيش فيها خائفة من كلمة غضب يصيح بها زوجها ، خائفة من يمين طلاق يقذف به فى وجهها ، خائفة من المعاملة التى يمكن أن تتلقاها من المجتمع لو أعادها زوجها إلى بيت أسرتها . إن الأمثال الشعبية تقول لها :

« اللى تخرج من دارها . . يتقل مقدارها » ، وتقول لها : « نار جوزى ولا جنة أبويا » . إن الدائرة حولها مغلقة . لهذا فإن عليها أن تستسلم لقدرها ونصيبها وجهلها وضيق دنياها . تستسلم بذعر وخوف وانتظار للمجهول . انتظار بخوف واستسلام بذعر . لهذا فإن جدتى – مع جيلها كله – كانت دائماً تحس بعداء للمستقبل . إن كل شيء مجهول ، أو غامض ، أو لم يحدث بعد .. لا ضرورة للتفكير فيه . إن أى شيء جديد عليها – ولم تره من قبل – هو شيء لابد من تأجيله دائماً . إن المرأة كانت دائماً محافظة سياسيًّا ورجعية فكريًّا .. ولكن جدتى كانت أكثر التصاقاً بالواقع الذى تعرفه وخوفاً من المستقبل الذى تجهله .

إن النسبة الكبرى من تصرفاتها – جدتى – يمكن تفسيرها على ضوء هذا الخوف . إن لديها دائماً الإحساس بأن القدر هو شيء لا يمكن تفاديه ولا صده ولا مواجهته . الإحساس بأن كل شيء يمكن أن ينهار فى لحظة ، وكل شيء يمكن أن يحدث بعد لحظة . إنها – مع جيلها كله – لا تستطيع أن تفرق بوضوح بين الممكن والمستحيل . إنها مستعدة لتصديق أى شيء ، مهما كان تناقضه مع العقل . إن دنياها ملآنة بالحقائق القليلة المطلقة . . وكل شيء بعد ذلك هو شائعات . إنها تستمع أولا إلى الشائعات ، ثم تنشرها سريعاً ، وعندما تسمعها من جديد فإنها تبدأ تفزع . تفزع من لا شيء . من إشاعة . . من وهم . . من خيال . . من شبح .

إن خوفها يقود إلى الشك فى كل شيء . . فى الناس والأشياء والمستقبل . إنه خوف يقودها أيضاً إلى الاستسلام . استسلام يقودها بدوره إلى شعور بالعجز . شعور يترجم نفسه فى نوع من اللوم المستمر . لوم على الظروف وعلى الحياة وعلى نفسها . إن لهجتها مملوءة دائماً بالمرارة والشكوى . إنها تشكو من همومها ومتاعبها وظلم القدر ومرارة الدنيا وقسوة الرجال . إنها تشكو لزوجها من أطفالها . وتشكو لأطفالها من أبيهم .

إنها تشكو من كل شيء حتى من حالة الجو. إن شكواها ملأى دائماً بالتفاصيل . إنها كذلك لأن حياتها نفسها هي مجموعة تفاصيل . إن عقلها تم تدريبه من البداية على أن ينحصر تجوله داخل مساحة محدودة ، لهذا فإنها الآن – بعد أن أصبحت ست بيت – وربة أسرة – أصبحت أكثر اهتماماً بالتفاصيل .

إن أقل شيء يشد انتباه الرجل للحظة واحدة كفيل بأن يشد انتباه المرأة يوماً كاملا . « الفاضي يعمل قاضي » . إنها – للحقيقة – دائماً مشغولة ، ولكنها لاتعمل شيئاً . . لا تخلق شيئاً . إنها تعمل وتكرر ما تعمله ، ثم تبدأ من جديد . إن اهتمامها ووقتها موجه دائماً نحو أشياء لا تمثل أهدافاً فى حد ذاتها . إنها مشغولة كل يوم بنفس الأشياء . مشغولة بأن تطبخ ، تغسل ، تكنس ، تنظف ، تطبخ من جديد ، ثم . . بين وقت وآخر . . تلعن حظها وظروفها .

إن الإنسان الحر ، المسئول ، الناضج ، يلوم نفسه فقط على أفعاله وظروفه . إنه مسئول عن أفعاله . مسئول عن مقاومة ظروفه . ولكن بالنسبة للمرأة فإن كل شيء يحدث لها يتم من خلال الآخرين . لهذا فإن « الآخرين » هم دائماً مسئولون عن كروبها ، ويلامون على أزماتها . إنها تعتبر أن الدنيا كلها مسئولة لأنها صنعت – وتسير فعلا – بدونها وضدها . إنها تحتج ضد حالتها منذ الطفولة . لقد وعدها المجتمع بتعويضات كثيرة مقابل استسلامها . لقد أكد لها المجتمع أنها لو وضعت مستقبلها – مصيرها – فى يد الرجل فإن ما وضعته سوف يعود إليها مائة ضعف . إنها الآن – لو تنبهت لحظة واحدة – تشعر أنها تعرضت للغش . لهذا فإن الشعور التالى عندها هو دائماً الاستياء . إن الاستياء هو نقيض التبعية . حينما يعطى الإنسان كل شيء فإنه لايحصل أبداً على ما فيه الكفاية . إن حالتها دائماً هى حالة المهزوم ، ولا أمل لديه – حتى يوماً ما – فى تغيير هذه الهزيمة .

إن العادات والتقاليد علمت الرجل مبكراً التجلد أمام المتاعب ، ولكنها علمت المرأة : الدموع . إن الرجل يريد غالباً أن يواجه المتاعب التي تثيرها الحياة أمامه . إنه لن يستسلم لها ، لن يخضع ، لن يرفع الراية البيضاء عند أول هزيمة . ولكن مع المرأة — مع جدتي وزميلاتها حتى اليوم — تأخذ الأمور اتجاهاً آخر . مع المرأة فإن أقل متاعب تذكرها على الفور بعجزها المطلق في دنياها والظلم في حظها . إن الحل الذي يبدو أمامها متاحاً في هذه الحالة سهل وبسيط : إنها تلجأ إلى أقرب شخص إليها . تلجأ إلى نفسها . إن تلك الآثار التي نراها على خديها ، وهاتين العينين الحمراوين . . . ما هي إلا الجزء الظاهر من روحها . إن دموعها تتساقط من عينيها . . ساخنة على خديها . . مالحة في لسانها . دموع تلاطف وجهها مع أنها تملؤه مرارة . إن وجهها يصبح — مع الزمن — مدرباً على عدم الاحتراق من هذا الفيضان السريع من الدموع . دموع هي في وقت واحد رثاء وعزاء وتهدئة . دموع تنطلق دائماً في عاصفة مفاجئة ، وفيضان متدفق لتصبح في النهاية إثباتاً غيابياً لبراءتها واستشهادها . إنها — بحكم العادة — تستخدم الدموع دائماً في « الفارغة والمليانة » . إنها لم تعد تعرف كيف تميز بين دمعة ودمعة . كلها . . دموع . كلها . . إجابات ، حتى لو لم تكن هناك أسئلة تستدعي كل هذا الفيضان من الإجابة . إن عينيها تصبحان عمياوين . . مليئتين بالضباب السائل ، ذائبتين في المطر . إن المجتمع يريدها مهزومة — نعم — ولكنها تغرق في هزيمتها . تغرق كحجر لا اختيار أمامه : إنها تغرق ، وفي أثناء غرقها تتملص من الرجل الذي يتأملها . إن الرجل بالنسبة لها هو شلال . . وهي عديمة القوة أمام الشلالات . عديمة القوة ولكن غزيرة الدموع . إن المجتمع يعتبر أن لجوء المرأة إلى دموعها هو استخدام غير عادل لعينيها ، ولكنها هي بـ هي — ترى أن الصراع لم يكن عادلا من البداية . لم يكن عادلا ولانظيفاً لأن المجتمع لم يضع في

يديها أى سلاح آخر فعال تواجه به ظروفها المحكوم عليها بها بغير استشارتها . إن سلبيتها وخضوعها واستسلامها ، إن طاعتها وانقيادها ، إن صبرها وصمتها ودموعها ، إن شعورها بالانقياد ، إن حياتها فى دنيا يتحكم فيها القدر تحكماً عابثاً لاشفقة فيه ولا رحمة ، إن الرعب الذى ينتظرها كبديل لانهيار بيتها ، إن إحساسها بأن الباب مغلق عليها والنوافذ مقفلة فى وجهها ، والحوائط مرتفعة فى طريقها ، إن شعورها بأنها تعيش فى دنيا من الرجال الذين صنعوا الأخلاق والقيم والمثل والتقاليد وقاموا بحراستها . . دنيا تحترمها وتخشاها . . دنيا تحترمها بغير أن تجرؤ على أن تتقدم إليها ، إن إحساسها بأن الرجل بالنسبة لها هو المصدر الوحيد – والسبب الوحيد أيضاً – لحياتها ، إن رؤيتها الرجل وهو يعيش حياتها هى بالنيابة عنها ... كل هذا يسحب منها فى النهاية أى شعور ذاتى بالعزة والكرامة . إن العبد لا يمكن أن يعثر فى داخله على عزة أو كرامة ، يكفيه أن يخرج من المسألة كلها بلقمة عيش يأكلها .

إنها تخرج من عمرها كله بحياة لم تخطط لها ، بأفكار لم تفكر فيها ، بقيود لم تخترها . إن الأيام – أيام عمرها – تنزلق من بين يديها يوماً بعد يوم . . شهراً بعد شهر . . سنة بعد سنة . . فى تكرار ورتابة وملل وقيود وسلاسل .

ولكن السلاسل – للحقيقة – تتساقط من حول أقدامها . . سلسلة بعد سلسلة . . كلما تقدم بها العمر سنة بعد سنة . إن المجتمع لايبدأ يتسامح قليلا مع المرأة إلا إذا تقدمت بها السن . إنها تعيش حياتها ، سنة بعد سنة . . إنها تنجب الأطفال ، طفلا بعد طفل . . لهذا فإن القيود تبدأ تتساقط من حولها قيداً بعد قيد . . إلى أن تصل إلى الحد الأدنى حينما تتقدم المرأة نحو سن الخمسين .

إنها – جدتى وزميلاتها – بوصولها إلى سن الخمسين قد أصبحت موضوعاً لا يستحق الحراسة من المجتمع . لقد تساقطت ملامح

أنوثتها على الطريق . أنوثة كانت هى السبب الأساسى للأسوار التى رفعها المجتمع حول المرأة من البداية . إن تقدّم السن بها يصبح بالتالى مسوّغاً لتخفيف القيود عنها مرة بعد مرة . إنها الآن فى خريف حياتها .. والخريف بطبيعته ليس مغرياً لأحد . فى الخريف تتساقط الأوراق ، تذبل الأشياء ، وتموت القدرات . إنها قبل أن تصل إلى سن الخريف ، كانت قد اعتادت كل ما أرادها المجتمع أن تعتاده . إنها أيضاً عرفت زوجها وأدت واجباتها و ولدت المطاوب منها . الآن أصبح البيت مستقرًّا ، والزوج مألوفاً ، والأولاد كباراً . الآن إذن تستطيع هى أن تكون حرة .

ياللحسرة !

إنها — جدتى — تكتشف أن هذه الحرية قد وصلت متأخرة فى عمرها . متأخرة جدًّا . لقد أصبحت تملك أقصى حرية عندما وصلت طاقتها إلى أقل كفاية . إن عقلها أصيب بالصدأ ، ورأسها دبّ فيه الشيب ، وظهرها تقوس ، وأسنانها تساقطت ، وقدرتها على التجربة تلاشت ، واعتيادها الواقع تجمد . إن المجتمع كان فى شبابها يخشاها .. فأقام الأسوار حولها ، والآن أصبح المجتمع — فى شيخوختها — مطمئنًّا إليها .. اطمئناناً يصل بعد أن أحالها الزمن — وأحالها الواقع — إلى التقاعد .

إنها تقاوم وتقاوم كأى شخص اقترب يوم إحالته إلى المعاش .. إنها تستدير حولها لكى تخلق لنفسها دوراً جديداً تستخدم فيه صوتها الذى ارتفع وحريتها التى تحققت . دوراً لايتحمل كل وقتها الذى أصبح فارغاً . وطاقتها التى ولدت حالا . إنها تستدير حولها ، تستدير إلى ابنها مثلا . إذا وصل ابنها إلى سن الزواج فإنها تحاول أن تفرض عليه بدورها شريكة حياته . إذا تزوج ابنها فإنها تحاول أن تفرض الوصاية على زوجته . إنها الآن « حماة » فى أسوأ صورة يمكن أن تكون عليها الحماة . إنها تعتبر أن ابنها مدين لها هى بحياته . ولكنه ليس مديناً بشىء لتلك الزوجة التى رآها أمس فقط بعد عقد القران . لقد عاشت هى عمرها كله

تحت الوصاية، وليس أقل من أن يتحمل ابنها الآن جزءاً من الوصاية. إنها تراقب وجهه لكى تتلمس فيه أقل بادرة على الاستياء من زوجته. إذا لم يبتسم هو اليوم فلأن زوجته لم تكن مطيعة له أمس. خناقة. إذا ابتسم كثيراً فلأن زوجته بدأت تسحب عقله بعيداً عن أهله بواسطة السحر. خناقة. إذا بدا عليه التعب لحظة واحدة فلأن زوجته لم تجعله ينام كثيراً أمس. خناقة. إذا اصفر لونه درجة واحدة فلأن زوجته لم تطبخ جيداً فى الليلة السابقة. خناقة!

إنها الآن – جدتى وزميلاتها – تبدأ تشفق على ابنها وتتجسس على زوجته. التجسس عليها، وانتقادها، واصطياد الأخطاء فى تصرفاتها.

وفى مقابل ذلك فإنها تقوم بالدور العكسى فى حياة ابنتها. إنها تتحالف معها، تقدم لها النصائح، تحكى لها التجارب، لكى تطبق هى الأخرى حياتها الجديدة. إن زوج ابنتها – على العكس من زوجة ابنها – يصبح صديقاً لها، وهى بدورها تحاول أن تكسب ثقته لكى يكون أكثر لطفاً مع ابنتها.

إنها – جدتى – لن تقتنع أبداً بأن على هؤلاء الجدد – أبنائها وبناتها – أن يعيشوا حياتهم مستقلين عنها، بإرادتهم وباختيارهم. إنها لن تقتنع لأن أحداً لم يهتم من قبل بإرادتها هى وباختيارها هى. إنها – حينما تستعرض الآن حياتها هى فى شريط سينمائى لن تخرج منها بغير المرارة والتعاسة أو – بالكثير – الرضاء الخالى من أى حماس.

إنها تتذكر الآن – فى سن الفراغ والتقاعد والحسرة والندم – أن الزوج كان فى حياتها إلهاً فى جسم إنسان. لقد كانت له سلطات الإله، وإرادة الإله، وأوامر الإله، .. بدون أن يكون هو نفسه إلهاً. إنها – حينما تزوجت، لم تختر زوجها، لم توافق عليه، لم تعجب به .. ومع ذلك توقع منها المجتمع أن تحب زوجها، بمثل ما توقع منها أن تطبخ له الطعام وتلد له الأطفال. إن زوجها لم يكن بالنسبة لها مجرد

زوج . أو شريك حياة ، ولكنه كان مرشداً ومقرراً وآمراً وناهياً وفى النهاية .. سيداً . إن كل مصادر الاستياء التى تراكمت عليه خلال طفولته ، ومؤخراً فى حياته . . كل المشاكل التى تراكمت عليه يومياً من الظروف ومن الرجال الآخرين . . كانت تذهب معه إلى المنزل لكى يتم تطهيرها فيه أولا بأول . إن أقل إخفاق يواجهه خارج المنزل لابد أن يتحول إلى أكبر انتصار داخل المنزل كبديل وتعويض . إنه كان معها دائماً فى داخل المنزل عنيفاً وقوياً وآمراً وقاسياً كرد فعل لكل نقطة ضعف أصابته فى مقابلة خارج المنزل . إنه يصيح ويدق المائدة ولا يبتسم . . . لأن زوجته قد تفسر ابتسامته كمظهر ضعف . إنها الآن — جدتى — تتذكر أن تلك المسرحية كانت حقيقة يومية بالنسبة لها . إنها تتذكر أن أقل علامة أظهرتها فى حياتها على الاستقلال — حتى بغير وعى — كانت تبدو بالنسبة له تمرداً خطيراً يجب أن يسحقه فوراً .

ولكن . . هل كانت جدتى — فعلا وحقاً — عاجزة عن التمرد ؟ هل كانت تربية المجتمع لها من البداية على الطاعة والاستسلام والجهل والخوف . . . تسحب منها كل طاقتها على التمرد ؟

أبداً . غير صحيح بالمرة !

إن ما حدث — فى تلك الأيام التى عاشتها المرأة المصرية — هو أن راية التمرد لم تكن ترتفع مطلقاً فى الهواء الطلق ، ولكن التمرد كان موجوداً — وينجح كثيراً فى الأعماق . إن البخار الذى يظل محبوساً مكبوتاً فترة طويلة يندفع بعنف من أضعف نقطة فى السطح .

إن المرأة — أيام جدتى — كانت تبدأ حياتها الزوجية بدنيا جديدة تنتقل إليها . إنها فى البداية كانت تنبهر ببيتها الذى انتقلت إليه ، تنبهر برجلها ، تنبهر بدنياها الجديدة التى انتقلت إليها . ولكن — مع الوقت والقيود والقسوة والأسوار — فإن الانبهار كان يفسح مكانه لشعور جديد : الاستياء . التمرد . الثورة . إنها ثورة مكتومة ، ولكنها ما تزال ثورة . إن المرأة

كانت تكتشف سريعاً أن زوجها هو إنسان عادى ، وليس ما يسوغ أبداً أن تعيش تحت أقدامه . بجانبه — نعم — ولكن ليس تحت أقدامه . إن استياءها من سيطرته عليها يتحول فى البداية إلى لوم طويل صامت لظروفها . لوم سرعان ما يبحث عن مجال يتنفس فيه. إن صوتها الذى ظل هامساً طوال وجوده فى المنزل سوف يرتفع فجأة بمجرد خروجه . إنها تصبح سعيدة كل صباح بمجرد أن يغلق الباب خلفه ذاهباً إلى عمله . تتنفس الصعداء . إنها حرة . حرة الصوت والحركة ، ولو لمدة زمنية محدودة .. وداخل مساحة منزلية ضيقة . إنها تنصرف إلى ألف مهمة صغيرة . . بيدين مشغولتين وعقل فارغ .

ولكن العقل الذى يبدأ فارغاً . . لايظل إلى النهاية فارغاً . إنها الآن ستشغل عقلها فى أفكار على مستوى قدراته : كيف تطيع الزوج علناً . . وتتمرد ضده سراً ؟ كيف تحقق له كل المظاهر التى يريدها . . وفى الوقت نفسه تحقق لنفسها كل المضمون الذى تريده ؟

إن الإجابة فى عقلها قد تكون هى اللجوء إلى السحر ، أو المبالغة فى الأنوثة ، أو استخدام هذه الأنوثة نفسها . إن زوجها ظل يسعى دائماً — بمجتمع كامل يسانده — لكى يشكل شخصيتها حسب هواها ، ولكنها هى الآن — فالدور أصبح عليها — التى ستشكله حسب هواه . إن المجال الوحيد المفتوح أمامها ليس الثورة المكشوفة ، ولاالتمرد الواضح ، فالمجتمع كله سيقف ضدها . إنها لاتملك سوى هذا السلاح السرى داخل ثوبها — أنوثتها — إن الأنوثة كانت من البداية نقطة ضعفها ، وسبب الوصاية عليها ، ولكنها الآن ستستخدمها لمصلحتها . . ولحساب الانتقام منه هو — زوجها . إن إثارة الغيرة فيه هى إذلال له . إن التظاهر بالبرود أمامه هو إهانة صامتة لرجولته . إن هذا الزوج — هذا الرجل — الذى ظل طوال النهار مخلوقاً غامضاً ، وسراً مغلقاً ، سوف يفقد غموضه فجأة فى السرير . إنه إذا كان يجعلها ضحية نهاراً ، فإنها سوف تجعله ضحية ليلا . إنها لاتستطيع

أن تعلنه بتمردها . . ولكن طلباتها التى تأجل تنفيذها طوال اليوم . . سوف تتحقق واحداً واحداً فى هذه المنطقة البعيدة عن عيون الناس ورقابة المجتمع ، هذه المنطقة المحايدة : السرير !

ربما لهذا السبب كانت تنمو فى المجتمع مجموعة كاملة من الأسرار التى تتناقلها المرأة جيلا بعد جيل . أسرار الأنوثة والإغراء والدلال والصد خلف قناع ، والبرود تحت حجاب . أسرار كانت المرأة تستخدمها كوسيلة أخيرة للدفاع عن النفس والحصول على تنازلات من الباب الخلفى ، وتحقيق انتقام لايتيحه ضوء النهار . إن انتقامها يسير على خطين متوازيين كالصراط المستقيم . انتقام يروح بين الرغبة فى الاحتفاظ بالزوج . . وفى الوقت نفسه مقاومة سيطرته عليها . إنها سوف تكره وتخاف . . وتحب . . معاً . إنها سوف تلعب على غروره وضعفه فى وقت واحد . ربما من أجل هذا أيضاً كان الجنس يشغل جزءاً كبيراً من تفكير الرجل فى تلك الأيام. إن الجنس موجود دائماً ، فى أفكارنا وتصرفاتنا . ولكن الجنس عندما يصبح هماً ثقيلا، وكابوساً مزعجاً . . . فإنه يصبح مرضاً بدل أن يكون صحة . إن الرجل كان يأخذ أقل تشكيك فى رجولته ككارثة . . أكثر من كارثة . إن حرصه على الإنجاب المستمر ، حرصه على الزواج المتكرر لوأمكن ، حرصه على تبادل الأسرار مع أصدقائه . . . هو تعبير مستمر عن أنه ما زال مسيطراً ، ما زال سيداً ، ما زال رجلا . إن الأمثال الشعبية تقول له : « جوز الاتنين عريس كل ليلة »، وتقول له : « الراجل ابن الراجل اللى عمره ما يشاور مراته »، وتقول له أيضاً إن معظم القيم الرئيسية فى الحياة هى قيم بمقدار بعدها أو قربها من الجنس . فى الواقع أن القاموس الأخلاقى فى المجتمع كله يشهد بأهمية نظرة المجتمع إلى الجنس، خلال تلك السنوات . إن كلمات مثل الفضيلة ، الأدب ، قلة الأدب ، العفة ، حسن الأخلاق ، عدم الأخلاق كانت فى جوهرها تتضمن معانى جنسية . إننا لو اخترنا كلمة واحدة منها — العفة . . مثلا —

فسوف نكتشف ما هو المضمون الحقيقى الذى كان المجتمع يعنيه منها .

إن العفة كانت تعنى بالدرجة الأولى أن تكون الفتاة عذراء يوم الزواج . إن عذريتها مقدسة بالنسبة للزوج وأهله ، وهى شىء عادى بالنسبة للعروس وأهلها . ولكنها خسارة خطيرة لو ضاعت . خسارة تصل فى خطورتها إلى درجة تسيل فيها الدماء ، ويسقط معها القتلى .

إن عذرية الفتاة هى رمز لرغبة الرجل فى أن يسجل ملكيته المطلقة لعروسه منذ نقطة البداية . ملكية تطلبها الأخلاق ويحرسها الدين ويحافظ عليها المجتمع . إن الأهمية المطلقة لعذرية الفتاة كانت تصل إلى قمتها ليلة الزفاف . فى ليلة الزفاف يدخل العروسان ، مع أقرب مساعدين لهما ، فى حين ينتظر أهلوهما فى جمع من المدعوين خارج باب حجرة النوم . إنهم ينتظرون ضاحكين مغنين مهللين ، فى انتظار خروج الزوج منتصراً لكى يريهم منديل الدم الذى ما زال ساخناً فى يده . منديل البراءة . براءة الفتاة وعذريتها وطهارتها . بهذا المنديل ، بهذا الدليل الشكلى الذى يقطع الشهود بصحته ، فإن أهل العروس قد يطوفون به فى الصباح التالى على منازل الجيران . رحلة ضرورية لكى لا تخرج الأقاويل وتنتشر الشائعات ويبدأ الثأر .

هكذا عاشت جدتى ! هكذا عاشت زميلاتها . هكذا عاش مجتمعها . مجتمع تعيش فيه المرأة من الباب إلى الباب : من رحم أمها إلى باب قبرها . حياة تقضيها فى جهل ، تعيشها فى خوف ، تمر بها فى ذعر ، تعبرها فى ظلام ، وتسير فيها من خلف حجاب .

إن صوتاً واحداً سوف يرتفع ضد شىء واحد من هذا كله . ضد الحجاب . صوت واحد سوف نسمعه محتجاً فى هدوء ومقنعاً بمنطق .

إن هذا يعيدنا إلى الكتاب الذى أصدره قاسم أمين .

٣

المسنبوز

عندما عاد قاسم أمين إلى منزله فى ذلك المساء أدرك بعد خمس دقائق أنه ارتكب غلطة فظيعة . لقد توقع قاسم أمين أشياء كثيرة .. ولكنه لم يتوقع هذا المنظر الذى يراه أمامه داخل منزله فى شارع الهرم بالقاهرة ...

رجل غريب .. يقول لقاسم أمين ببساطة شديدة :

ـ أنا عاوز الست بتاعتك !

ـ نعم ؟!

ـ إيه ! . . أنا عاوز الست بتاعتك . .

وبهدوء شديد سأل قاسم أمين : عاوزها فى إيه ؟

ـ عاوز اجتمع بيها .. عاوز أختلط معاها . . عاوزها تخرج معايا ..

ومرت لحظات صمت ووقاحة قبل أن يستأنف الرجل الغريب حديثه مستفزًّا قاسم أمين : ألست تدعو إلى سفور المرأة ؟ إلى اختلاطها بالرجال ومساواتها بهم ؟ ألست تنادى فى كتابك بأن تنزع المرأة الحجاب وتكسب حريتها كاملة ؟ أليس هذا كتابك « تحرير المرأة » ؟ !

ورد قاسم أمين ببساطة : نعم هذا كتابى . ولكنك أسأت فهم أفكارى فى هذا الكتاب .

. . وفعلا !

لقد أساء الرجل فهم كتاب قاسم أمين الذى أصدره فى تلك السنة بالقاهرة : سنة ١٨٩٨

إن قاسم لم يناد فى الكتاب بتحرير المرأة ! أكثر من هذا ـ لم يناد قاسم أمين بنزع حجاب المرأة ! إن قاسم أمين فى الواقع دافع عن

الحجاب ، ففى كتاب « تحرير المرأة » يقول قاسم أمين : إننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بها. غير أنى أطلب أن يكون منطبقاً على ما جاء فى الشريعة الإسلامية .

هذا كل ما قال قاسم أمين. إنه لم يهاجم الحجاب ، بل دافع عنه . لم يطلب نزعه ، بل طلب استمراره. لم يناد بإلغائه ، بل بمجرد التخفيف منه .

ولكن هذا لم يمنع الجمهور من اعتباره « إباحياً فاسقاً فاجراً » . لم يمنع الصحف من إطلاق صفات كثيرة عليه أخفها أنه . . « زنديق كافر ، متساهل فى عرضه وشرفه » . بل إن أحمد لطفى السيد عندما كتب عن قاسم أمين بعد ذلك بسنوات مشيراً إلى كتاب تحرير المرأة قال : « ما علمت امرأ يخاطر بنفسه ، ويقف حياته لإحياء أمته بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم » .

يخاطر بنفسه ؟ الشجاعة الفائقة ؟

ما هذا ؟ هل احتاج الأمر من قاسم أمين إلى كل هذه الشجاعة ، وهذه المخاطرة ؟

يبدو ذلك . لا . . بل حدث ذلك .

إن قاسم أمين نفسه كان يشعر بشىء من هذا كله قبل أن يصدر كتابه « تحرير المرأة » فى سنة ١٨٩٨ . لقد كتب فى مقدمة الكتاب قائلا : هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها . .

بل إن قاسم خشى أن يتحمل وحده مسئولية إصدار هذا الكتاب ، فعرض على أحد أصدقائه أن يشترك معه فى تأليفه . . إن هذا الصديق هو أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى الذى تخرج فى مدرسة العلوم السياسية وكلية الحقوق بباريس . ولكن الخوف تغلب على أحمد شفيق فاعتذر بأن . . « الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة » !

وكان قاسم أمين هو الآخر يعلم أن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول الدعوة

إلى تحرير المرأة . ولكنه كان يؤمن أيضاً بشيء آخر . لقد سأل نفسه : من الذى يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر : أهو الذى يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هى ؟ أم الذى يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ . . . لا شك أن الأول هو الصديق المكروه والثانى هو العدو المحبوب . . »

ليكن . .

ليكن هذا هو المكان الذى يختاره قاسم أمين لنفسه مقدماً : الصديق المكروه . ليكن مكروهاً – أو حتى منبوذاً – طالما يريد أن يكشف أوطنه عن عيوبه كما هى . هذه هى الوسيلة الوحيدة أمامه لكى ينبه وطنه إلى ضرورة التخلص من هذه العيوب .

عندما استقر قاسم أمين على هذا الرأى أمسك بقلمه وبدأ يكتب الصفحات الأولى من كتابه « تحرير المرأة ».

كتب قاسم أمين :

« هل صنعنا شيئاً لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف عقلها ؟ أيجوز أن نترك نساءنا فى حالة لاتمتاز عن حالة الأنعام ؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لايعرفن فيها شيئاً مما يمرحولهن ، كما فى الكتاب صم بكم عمى فهم لايعقلون ؟ »

هكذا يتساءل قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » . إنه يسجل الفجوة الضخمة بين الرجل والمرأة . فالرجل « له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شيء فى الوجود .. وهى بعض الكل الذى استولى عليه » .

لماذا هذه الفجوة فى حين أن المرأة . . « إنسان مثل الرجل ،

لا تختلف عنه فى الأعضاء ووظائفها ، ولا فى الإحساس.ولا فى الفكر ، ولا فى كل ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان اللهم بقدر مايستدعيه اختلافهما فى الصنف » .

لماذا إذن لاتتعلم المرأة كالرجل ؟ إن « . . تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل ، بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . . إن من يعتمد على جهل امرأته ، مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما أن يترديا معاً فى أول حفرة تصادفهما فى الطريق » .

ثم ينتقل قاسم أمين إلى الموضوع الثانى : الحجاب . إنه يناقش أصله وتاريخه . إنه « لايجد نصًّا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة » . كل المسألة أنه عادة « . . تمكنت فى الناس باسم الدين ، والدين منها براء » .

إنه يقدم الدليل بعد الدليل على تحرير نظرة الدين إلى المرأة .. وبعد أن يجرد الحجاب من هذه الحماية الوهمية .. يرد قاسم أمين على نظرة المجتمع إلى الحجاب . إن المجتمع يرى أن الحجاب مانع للفتنة . هنا يتساءل قاسم أمين : أحذف الفتنة إذن هذا الحجاب ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال ؟ . . إن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضاء المرأة وما خفى ، بل . . « فيما يصدر عنها من أفاعيل فى أثناء سيرها. والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك . إذ هو يخفى شخصيتها . ولو كان وجهها مكشوفاً فإن كرامتها ونسبتها إلى عائلتها يشعرانها بالحياء والخجل فى كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات الأنظار » .

إن قاسم أمين يرى أن الحجاب رمز لانعزال المرأة عن المجتمع ، إنه مانع عظيم يمنعها من الارتقاء . إنه سجن إجبارى تقضى المرأة حياتها

داخله باسم العفة . و . . « لا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس وارتفاع الجدران . أيقبل من سجين دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى السجن ؟ »

هكذا يناقش قاسم أمين قضية الحجاب ، ومن قبلها قضية تعلم المرأة . هذا هو الجزء المتحرر فى عقل قاسم أمين . ولكنه بعد دقائق يضع التحفظات واحداً بعد الآخر حتى لا يساء فهمه . هذا هو الجزء المحافظ فى عقل قاسم أمين . إنه يقول :

« لست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى . وإنما أطلب الآن ولا أتردد فى الطلب أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثلما يعتنى بتعليم البنين » .

تحفظ آخر : « إنى لا أقصد رفع الحجاب دفعة واحدة ، والنساء على ماهن عليه اليوم . فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب ، كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى . وإنما الذى أميل إليه هو إعداد نفوس البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير » .

إن قاسم أمين إذن متواضع فى طلباته . إنه لا يدعو إلى السفور ولكنه يدعو إلى الحجاب الشرعى . إنه لا يهاجم الحجاب وربما يعتبره أصلا من أصول الأدب . إنه لا يطالب بنزعه ، وإنما يريد التمسك به . إنه يرى تحصين المرأة بالتربية السليمة ، ولكنه يطالب بتعليمها حتى الابتدائى . إنه يرى إعطاء المرأة فرصة للعمل كالرجل ، ولكنه يشترط أن يكون ذلك فى حالات الضرورة القصوى كفقرها أو وفاة زوجها أو عدم زواجها .

هذا ما قاله قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة »

قاله بكل حسن نية ، بكل التمنيات الطيبة للمرأة وللمجتمع .

ولكن النتيجة لم تكن طيبة مطلقاً بالنسبة لقاسم أمين .

إن قاسم أمين عندما أصدر كتابه « تحرير المرأة » كان عمره خمسة وثلاثين سنة . خمسة وثلاثين سنة قضاها فرداً فى هذا المجتمع ، عضواً فيه مختلطاً به مدافعاً عنه . ولكنه الآن – بعد هذا الكتاب وهذه الآراء سوف يكتشف مجتمعاً آخر ووجهاً آخر .

إن قاسم أمين يريد للمرأة تخفيف الحجاب . يريد لها التعليم والحرية

ما شاء الله !

إذن فليتحمل النتيجة . لقد نبه المجتمع إلى أحد عيوبه بصراحة . إذن فليستمع إلى رأى المجتمع فيه بصراحة . هذا هو : رجل فاسق . . فاجر . . زنديق . . كافر . . إباحى مع كل النوايا السيئة فى العالم !

إن قاسم أمين طابور خامس يريد تجريد هذا المجتمع من فضائله . يريد أن ينشر الفساد والفجور وقلة الحياء . إنه متآمر على أخلاق هذا المجتمع وآدابه . متآمر مع الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية . لا . . . بل متآمر مع اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر .

هكذا بدأت الاتهامات تتردد على قاسم أمين فى صفحات الصحف وأحاديث الناس . ولم يكن هذا كافياً . إن قاسم قال كلمته فى كتاب واحد ولكن المجتمع سوف يقول كلمة فى أربعين كتاباً . أربعون كتاباً صدرت للرد على قاسم أمين واتهامه . كتاب منها عنوانه « الجليس الأنيس فى التحذير عما فى تحرير المرأة من التلبيس » . كتاب آخر : « السنة والكتاب فى حكم التربية والحجاب » كتاب ثالث « الدفع المتين فى الرد على قاسم بك أمين » . كتاب رابع « السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين » . كتاب خامس ، وسادس وعاشر . إنها جميعاً ترد عليه ، تتهمه ، تعاقبه ، تنكل به .

ماذا جرى ؟

لقد ألقى قاسم أمين بحجر فى المياه الساكنة . لقد هز المجتمع النائم بعنف. لقد أعطاه مرآة يرى فيها واحداً من عيوبه بلا رتوش. هذا ما جرى. وحتى لايتكرر ما جرى . . . حتى لاينبهنا شخص ثان إلى عيوبنا. حتى لايوقظنا شخص ثالث من نومنا العميق . . لابد أن يلقى قاسم أمين جزاءه . لابد أن يجرى اتهامه وتتم إدانته علناً . من الآن سينظر إليه المجتمع باعتباره « مارقاً . . فاجراً . محرضاً النساء على الفساد» !

هكذا ببساطة شديدة تحول القاضى إلى متهم. تحول من محام خارج القفص إلى مذنب داخل القفص . إن قاسم أمين احتاج إلى ١٨ سنة ليكون متعلماً ، احتاج إلى ٢٢سنة ليكون موظفاً ، و ٣١ سنة ليكون مستشاراً . ولكنه لكى يكون متهماً لايحتاج لأكثر من كتاب واحد يؤلفه ، لرأى واحد ينادى به ، لعادة واحدة يهاجمها .

من هذه الدقيقة سوف يصبح مركز قاسم أمين كمركز أى صاحب ثورة فى التاريخ . إن التاريخ يعامل الثوار بطريقة مختلفة . إن صاحب الثورة إذا نجح فهو بطل . إذا فشل فهو مجرم . والمجتمع لن يسمح لأفكار قاسم أمين بأن تنتشر . لن يسمح لكتابه بأن ينجح . إذن لم يبق أمامه سوى أن يرضى بمعاملته كمارق ، كمجرم ، كمنبوذ . من الآن سوف تؤلف كتب ضده . سوف تنشر المقالات معرضة به . سوف يذهب إلى منزله ليجد شخصاً غريباً يطلب منه الاجتماع بزوجته !

ولم يكن جوهر المشكلة بين قاسم أمين ومعارضيه هو حجاب المرأة مع أنها تبدو كذلك على السطح . إن المشكلة هى فى أسلوب كامل تعامل به المرأة . إن المجتمع يريد من المرأة أن تقدم لزوجها المتعة بغير متعة . تعطيه الحرية بغير حرية . تمنحه السعادة بغير سعادة . إن المجتمع إذا تساقطت من فمه كلمة المرأة فإن كلمات أخرى كثيرة تتساقط أوتوماتيكياً. كلمات مثل : الشهوة ، السرير ، الغريزة ، الضعف ، النزوة ، الخيانة . إن المجتمع لا يستطيع أن يتذكر المرأة بغير أن يتذكر هذه الكلمات .

فكلمة المرأة تقرن دائماً بفضيحة أو خيانة . إن المشكلة هى أن كل رجل فى هذا المجتمع لم يكن يستطيع أن يكون حرًّا فى وطنه ، فى حكومته ، فى عقله . والبديل لذلك أن يكون حرًّا فى امرأته . إن المندوب السامى البريطانى يخبر الحكومة بما تفعله أو لا تفعله . والحكومة تحدّد للمواطن مايجب أن يفكر فيه وما لايجب . والمواطن فى النهاية يريد أن تكون له نفس السلطة على امرأته . يريدها أن تفكر ، تشعر ، تريد ، تعيش . . كما يريد هو أن تعيش. إن عليها أن تخرج من هذه الدنيا كما دخلتها : عارية كما ولدتها أمها . جاهلة كما علمها أبوها . مطيعة كما أرادها زوجها . إذا أخبرها زوجها أن الأسود أبيض فهو أبيض . إن هذا الزوج لم يتعود أن يناقش أباه ولا رئيسه ، ولا حاكمه . فلماذا يسمح لامرأته بأن تناقشه؟ وهذا المجتمع لايريد أن يفكر أو يناقش أو يتمرد . إنه يريد أن يعيش مستريح البال . إن شيئاً فى العالم لا يستطيع أن يسلبه راحة البال هذه. لاكارثة ولاهزيمة ولا — حتى — احتلال أجنبى يستطيع أن يوقظه من نومه . إنه مجتمع يريد إن يصدق أنه مجتمع الفضيلة مثلما يصدق أن مصر أم الدنيا . ومع أنه مجتمع يعيش منذ سنوات فى هزيمة مستمرة أمام حضارة أجنبية ، فإنه لايريد أن يتفوق على هذه الهزيمة. إن أى هزيمة إما أن تصيب الإنسان بالشلل أو تدفعه إلى الحركة . الهزيمة تدفع فيك اليأس أو تثير فيك التحدى . هذا يتوقف على الشخص نفسه . على المجتمع نفسه . ولكن المجتمع المصرى فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر كان يقنع نفسه بأباطيل كثيرة : إذا كان الآخرون متفوقين ماديًا فهو متفوق روحيًا ، إذا كان الآخرون يملكون العلم فهو يملك الأدب. إذا اشتكوا من الرذيلة فهو يمتاز بالحشمة .

ومثلما نلاحظ فى الحياة العادية أن الكاذب يظل يكذب ويكذب حتى يصدق نفسه ، فقد ظل المجتمع يتوهم ويتوهم حتى صدق أوهامه . صدق أنه متفوق أمام حضارة منحلة أخلاقيًا . صدق أن الرذيلة تعيش

تحت غطاء محكم ، تحت حجاب واضح وظاهر للجميع .

هنا تتركز أهمية أفكار قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » إن قاسم أمين فى هذا الكتاب ليس ثائراً ليس متمرداً . ليس بعد . ليس فى هذا الكتاب. إنه الآن مجرد مصلح. مجرد إنسان مثقف يرى عيباً وينبه إليه . يرى مرضاً ويصف له دواء متواضعاً . . إنه يتكلم باعتدال ، يناقش بمنطق ، يكتب باتزان . لأن القلم فى يده هو سكين يمزق بها الستائر التى يغطى بها المجتمع عيوبه . سكين غير حاد – نعم ، غير قطاع – صحيح ، ولكنه سكين على أى حال ، وحينما فاحت الرائحة الكريهة من تحت الغطاء ادعى المجتمع أنه فوجئ بها . إن المجتمع يعلم أن حجاب المرأة لم يمنع الرذيلة من الانتشار . يعلم أنه فى إحاطته الرذيلة بجو الكتمان والسرية جعلها تبدو أكثر إغراء مما هى عليه . . والفضيلة أكثر خوفاً مما يجب أن تكون عليه .

ولقد رأينا من قبل أن الخوف كان يسيطر على كل العلاقات داخل المجتمع . لهذا فمن الطبيعى أن يرتعد المجتمع كله من أى فكرة جديدة ، أى عادة حديثة . إن المجتمع كان ينظر إلى كل شىء جديد بعين الشك والريبة . من هنا كان المجتمع عنيفاً فى مواجهته لقاسم أمين .

وكان المجتمع يريد أن يصدق أن الصدام بينه وبين قاسم أمين هو صدام بين الفضيلة والرذيلة . فضيلة يتمسك بها المجتمع ، ورذيلة يدعو إليها قاسم أمين . أليس هؤلاء هم طرفى المعركة ؟ يجوز . لهذا فإن علينا الآن أن نحكم بهدوء وحياد وأعصاب هادئة بين الطرفين .

إن قمة القطيعة الاجتماعية التى مارسها المجتمع ضد قاسم أمين هى قرار الخديو عباس بمنعه من دخول قصر عابدين . قرار أصدره الخديو كعقاب لقاسم أمين على أفكاره الفاجرة فى كتاب (تحرير المرأة) . موقف مجيد من الخديو دفاعاً عن الفضيلة . عاش الخديو !

ومع ذلك.. فلندرس بحياد تام نوع الفضيلة التى يمثلها الخديو . . .

فى هذه النقطة نعود إلى مذكرات أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى الذى كان أول المتحمسين له . يقول أحمد شفيق فى مذكراته : « فى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ذاع بين رجال المعية نبأ يختص بظهور أعراض الحمل على فتاة من ربيبات الخديو هى إقبال هانم أفندى ، وكانت إحدى جاريات ثلاث خصصتهن الوالدة لخدمة الخديو أثناء إقامته بقصر القبة . . وكانت تمتاز برائع جمالها وساحر قوامها . فشغف بها الخديو وتوثقت بينهما العلاقات . . . وكانت إقبال هانم تطمح إلى الزواج من الخديو وترقب فرصتها . فلما فشل مشروع زواج سموه من إحدى الأميرات السلطانية فرحت فرحاً شديداً ، ولما عاد عباس إلى مصر كان رأيه قد استقر على الزواج بها ، خصوصاً بعد ظهور حملها . ولم يلبث أن نفذ عزمه بعقد هذا الزواج » . و . . . أكثر من هذا !

يسجل أحمد شفيق من جديد : « فى ١٢ فبراير سنة ١٨٩٥ أعلنت بشرى أول مولودة للخديو . وفى يوم ١٩ منه عقد سموه قرانه على أم وليدته إقبال هانم أفندى . وأجرى صيغة العقد قاضى مصر »

و . . . أعطى عقلك . .

خديو مصر لا يخشى على الفضيلة من ممارسة علاقة غير شرعية مع إحدى جارياته . لا يخشى على الفضيلة من أن يعلن رسمياً خبر أول مولودة له قبل أن يعقد الزواج فعلا بأسبوع . . ومع ذلك فالخديو يخشى على الفضيلة من كتاب يصدره قاسم أمين بعد ٣ سنوات بتعليم المرأة وتخليصها من الحجاب . إن خشيته تصل إلى حد منع قاسم من دخول قصر عابدين وقد نتصور الآن — ولو من باب السخرية — أن قصر عابدين هذا هو قصر العفة والأخلاق والفضيلة . . بحيث لو دخله قاسم أمين فإنه سيكون خطراً داهماً على كل هذه العفة . يجوز ! والدليل على ذلك ما كانت تكتبه الصحف وصفاً للحفلة السنوية الراقصة التى كان الخديو عباس —

— نفس الخديو عباس — يقيمها فى قصر عابدين .

نفس الحفل تصفه مجلة (العجائب) بقولها : أتدرى أيها المصرى ، ويا أيها المسلم ماذا يجرى فى هذه الليلة ؟ يجرى فيها ما يحمر منه وجه الإسلام خجلا ، ويصفر من منظره وجه الدين وجلا . يجرى فيها ما نلوم عليه الشبان ونشكو منه فى كل زمان ومكان . يجرى الرقص على أنواعه والخمر على أشكاله .

هذا هو الخديو عباس — نفس الخديو عباس — الذى أصدر قراراً بمنع دخول قاسم أمين قصر عابدين عقاباً على آرائه (الفاجرة) فى كتاب « تحرير المرأة ».

ولم يكن الخديو عباس هو الوحيد الذى أراد معاقبة قاسم أمين على آرائه . . . فى الواقع أن الخديو كان يمثل قوى أساسية فى المجتمع ، يحكمها نفس الموقف نحو أى فكرة جديدة أو عادة جديدة . لهذا السبب ، أحسّ قاسم أمين — قبل أن تمضى سنة واحدة على صدور كتاب (تحرير المرأة) — أنه يعيش كالمنبوذ . إن له أصدقاء — نعم — على رأسهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد . إن الثلاثة كانوا يوافقونه على كل ما يكتبه . . . بل قرءوا الكتاب قبل نشره . ولكنهم جميعاً التزموا الصمت . إن واحداً منهم لم يجرؤ على تأييد الكتاب علناً . . إن أحمد لطفى السيد لم يفعل ذلك إلا بعد أن مات قاسم أمين ، وسعد زغلول لم يفعل إلا بعد أن أصبح زعيماً قومياً لمصر سنة ١٩١٩ .

أقول إن واحداً من أصدقاء قاسم أمين لم يجرؤ على تأييده علناً . فما بالك بالمعارضين له فى الرأى ؟ لقد قلت من قبل إن قاسم أمين أصبح يعيش كالمنبوذ . . لا . . بل أصبح منبوذاً فعلا . إن محمد طلعت حرب (مؤسس بنك مصر فيما بعد) سجل هذه الصورة عندما حلل آراء الناس حول كتاب قاسم أمين . يقول طلعت حرب إن الناس « . . انقسموا إلى حزبين : حزب يرى رأى المؤلف وهم قلائل يعدون على الأصابع ،

والحزب الآخر . وهو الأعظم عدداً أجمع على استهجان ما ورد فى الكتاب ويقول إنه يدعو إلى بدعة فى الدين لا فى العوائد فقط » . . .

إن طلعت حرب سجل هذه الأسطر فى كتابه الذى أخرجه هو نفسه للرد على قاسم أمين . كتاب عنوانه (تربية المرأة والحجاب) كتاب يقول فيه طلعت حرب :

« . . أول شىء طرأ على ذهننا حين قرأنا الكتاب ورأينا . الناس أخذت تسلق حضرة المؤلف بألسنة حداد ويحملون عليه وعلى كتابه حملات لم نتعودها على مؤلف غيره من قبل ، إنه لابد فى الأمر شىء مهم حمل الناس على ذلك إذ لا يمكن أن يجتمع الناس على ضلالة . ولا يخفى أن ألسنة الخلق أقلام الحق »

ما هذا المنطق؟ هل يكفى إجماع الناس على شىء لاعتباره ضلالا؟ ربما !

المهم أن طلعت حرب يواصل الرد على قاسم أمين. وبعد مناقشته لآراء قاسم يقول طلعت حرب محدداً رأيه فى وظيفة المرأة : « ظهر من ذلك أن للمرأة أعمالا غير ما للرجل ليست بالأقل أهمية من أعماله ولا بالأدنى منها فائدة وهى تستغرق معظم زمن المرأة إن لم نقل كله . فالرجل يسعى ويشقى ويكد ويتعب ويشتغل ليحصل على رزقه ورزق عياله . . وامرأته ترتب له بيته وتنظف له فرشه وتجهز له أكله وتربى له الأولاد وتلاحظ له خدمه وتحفظ عينه عن المحارم» .

هذه وظيفة المرأة فى رأى طلعت حرب . وظيفة خادمة لا زوجة فحتى الأولاد يتكلم عنهم طلعت حرب باعتبارهم أولاد الرجل وحده ، لا أولادهما معاً .

صفحة وأخرى ثم يقول طلعت حرب . . . « أليس معنى ذلك أن الله خلق المرأة للرجل للملاذ الدنيوية ، وحمل الشئون المنزلية ؟ »

ومع ذلك ، كان طلعت حرب فى الواقع أكثر من ردوا على قاسم أمين اتزاناً وموضوعية . إنه — على الأقل — لم يتهمه بالخيانة أو الكفر أو

الفساد أو الزندقة كما فعل غيره .

والواقع أن الصحف — كل الصحف المصرية — أفردت صفحاتها للرد على قاسم أمين . . وكان التيار الغالب هو المعارض للكتاب . وحتى جريدة (المؤيد) التي كانت متحمسة للكتاب فى البداية اضطرت بعد قليل أن تخفف من تأييدها وأن تفسح صفحاتها للمعارضين أيضاً . وكان على رأس هؤلاء المعارضين محمد فريد وجدى الذى كتب يقول : « هل المرأة مساوية للرجل فى سائر الحيثيات ؟ فالجواب لا . وهل لدينا دليل حسي على هذا الجواب السلبي أصدق من وجود المرأة من ابتداء الخليقة للآن تحت سيطرة الرجل يوجهها كيف يشاء ويحكم عليها بما تقتضى أمياله ؟ إذا كانت المرأة مساوية للرجل من الجهة الجسمية والعقلية ، فلماذا خضعت كل هذه الألوف المؤلفة من الأعوام لسلطان الرجل وجبروته ؟)

بل إن الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل — أتتصور ؟— يقف ضد قاسم أمين . إننى لا أدرى السر فى أن معظم مؤرخى قاسم أمين تعمدوا إغفال هذه النقطة بالذات .

إن مصطفى كامل أفرد صفحات جريدة (اللواء) أشهراً طويلة للقيام بحملة قاسية على قاسم أمين . . . وأحياناً كانت (اللواء) تمتلئ بمقالات تشكك فى وطنية قاسم وتتهمه بأقصى درجات سوء النية .

ولم يقتصر الرد على قاسم أمين فى الصحف المصرية وحدها ، التى كانت منتشرة ومقروءة فى العالم العربى . . بل انتقلت المعركة إلى هناك أيضاً . ولم يختلف الصدى هناك عن الصدى هنا .

. فى العراق والشام انتشرت قصيدة للشاعر الشبيبي يقول فيها مؤيداً الحجاب :

صونى جمالك بالبراقع إنها ستر الحسان ومظهر الحسنات

شاعر آخر ، هو عبد الحسين الأزرى يقول :

نص الكتاب على الحجاب ولم يبح
للمسلمين تبرج العذراء
هل فى مجالسة الفتاة سوى الهوى
لو أصدقتك ضمائر الجلساء

شاعر ثالث – من مصر هذه المرة – هو أحمد محرم يقول متهماً قاسم أمين :

أقاسم لاتقذف بجيشك تبتغى بقومك والإسلام ما الله عالم

وشاعر رابع ، وخامس ، وعاشر . وللإنصاف ، فإن المعركة لم تخل من مؤيدين أيضاً لقاسم أمين . مؤيدين بالشعر كذلك ! إن من هؤلاء مثلا الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى الذى كتب قصيدة يقول فيها :

لم يقل بالحجاب فى شكله هذا نبى ولا ارتضاه حكيم
هو فى الشرع والطبيعة والأذوا ق والعقل والضمير ذميم

على أن المؤيدين – كما سجل طلعت حرب من قبل – كانوا أقلية تعد على الأصابع . وكان التيار الغالب هو تيار المعارضين . . بعنف . ولم تكن المعارضة فى حد ذاتها ظاهرة مرضية ، بل هى ظاهرة صحية فى جميع الأحوال . . ولكن أسلوب الاتهام فى المعارضة هو الذى كان ظاهرة مرضية ، فى الواقع أن المجتمع لم يكن يعرف وسيلة أخرى للتعامل مع النقد الذى يوجه إليه . لايعرف وسيلة غير الإسراع إلى التشكيك فى إخلاص الناقد ووطنيته ودينه . هو أسهل الأشياء ، وأكثر ألماً فى الوقت نفسه . إن إلقاء الغبار على ناقدك هى أسهل طريقة لإعفائك من الدخول فى مناقشة موضوعية لأفكاره . هذا هو الجزء المؤلم فى الموضوع كله .

لهذا لم يكن غريباً أن يسجل قاسم أمين فى مذكراته الخاصة هذه الواقعة .

« سئل ح . بك : ما رأيك فى كتاب – تحرير المرأة – ؟ فأجاب : ردىء !!

– هل قرأته ؟
– لا .
– أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته ؟
– ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف الدين . »

ولم يكن غريباً أيضاً أن يكتب قاسم أمين أنه في البلاد الحرة قد يكتب الإنسان ما شاء له » . . ولا يفكر أحد ولو كان من ألد خصومه في الرأى أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية » .

إن قاسم أمين لايوجه هذه التساؤلات إلى أحد . . إنه يوجهها إلى نفسه فقط . إن عنف وقسوة الهجوم الذى تحمله قاسم أمين بسبب كتابه ، ملأته بالمرارة . . . في الواقع أنه فقد إيمانه بالرأى العام وأصبح يؤمن بأنه « لو انتظر المصلحون دائماً إرضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء » .

. . ولم ينتظر قاسم أمين . فبرغم أنه لم ينجح في هدم الحائط بين المرأة والمجتمع ، ولا حتى في فتح ثقب واحد فيه . . إلا أنه سيستمر بالرغم من أن رأسه تهشم في مواجهته لهذا الحائط . . إنه سوف يصر على أن يقول كلمته . إن قاسم أمين كان مصلحاً في كتابه الأول (تحرير المرأة) . ولكنه سوف يكون متمرداً وثائراً في كتابه الثانى (المرأة الجديدة) . . إنه سوف ينزع كل التحفظات التى قيد بها آراءه السابقة . سوف يلغى كل الشروط التى وضعها من قبل على مفهومه للمرأة ، وهو حين يفعل ذلك لاينتظر مكافأة . إنه يرى « أن الوطنية الصحيحة لا تعلن عن نفسها » . إنه سوف يهدى كتابه الثانى إلى سعد زغلول . وحين يفعل ذلك فهو يخاطب سعداً بقوله : « فيك وجدت قلباً يحب وعقلا يفكر وإرادة تعمل » .

إنه سوف يستمر فى الكتابة . . سنة . . سنتين ، إلى أن يموت . وإلى أن يموت فإنه لن يكون مرحاً . لن يختلط بالناس ، لن يؤمن بالرأى العام . إنه سيوجه جهوده إلى ناحيته أخرى مكملة لناحية الأولى . سوف يدعو إلى إنشاء جامعة فى مصر . فربما . . أدى التعليم إلى ترويض القوى الكريهة فى هذا المجتمع التى وجهت سهامها إليه وهشمت رأسه .

وعندما مات قاسم أمين فى ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ مات فى الثالثة والأربعين. لقد مات قبل موعده . . مات بالسكتة القلبية ، ولعلها السكتة القلمية .

وبعد أن مات قاسم أمين بسنوات طويلة بدأ المجتمع يعيد النظر فيه. لقد تراجع المجتمع عن آرائه السابقة فى قاسم أمين . تراجع — هذا صحيح — ولكن ليس قبل أن يموت ، فبموته . . زال خطره . بموته سكت قلمه . لا بأس إذن من تسميته بـ « المصلح العظيم » و « المفكر الثائر » . . . إلى آخر هذه الكليشيهات . .

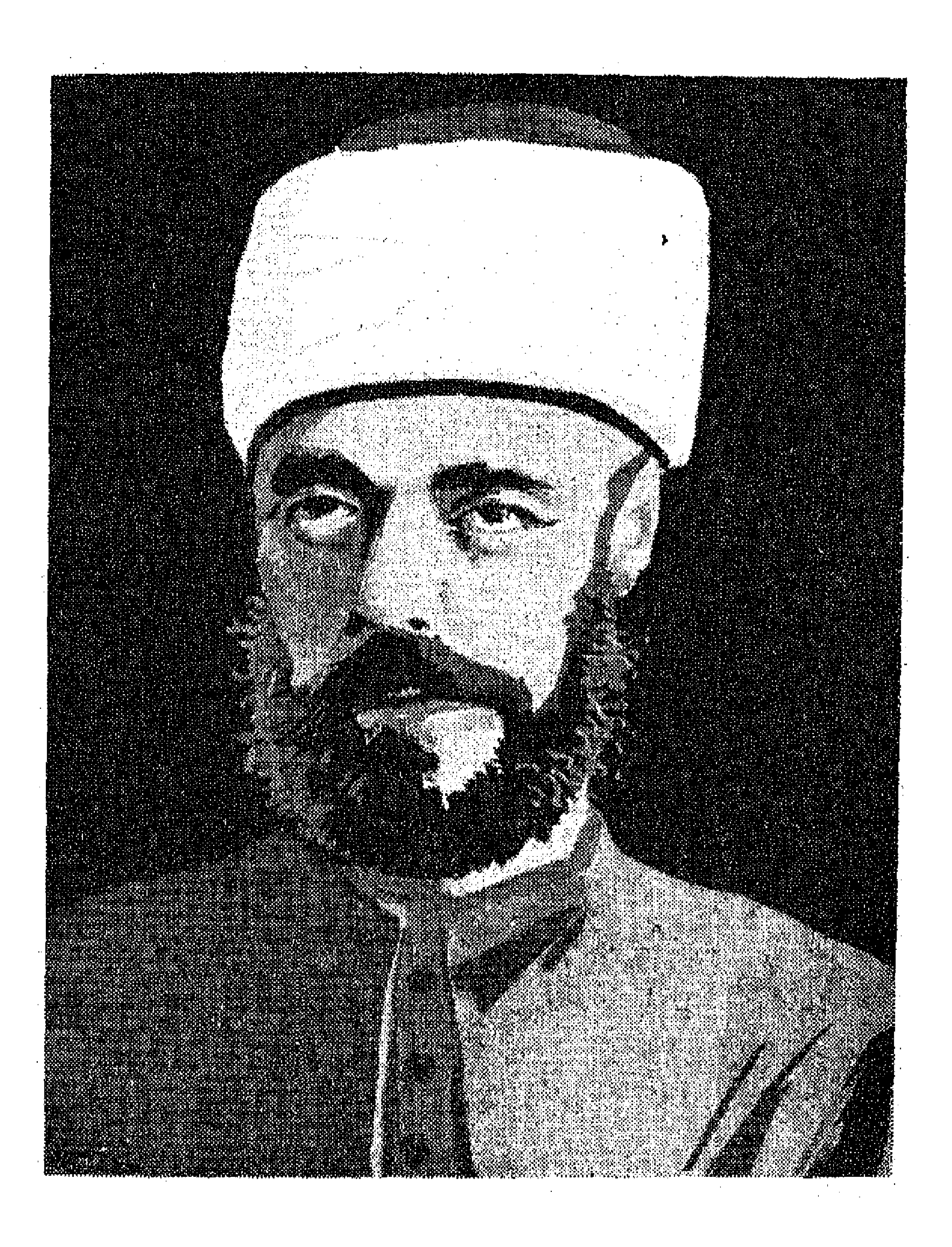
لا بأس من هذا كله . . بشرط أن يموت قاسم أمين أولا !

وحتى الآن — فإننا عندما نحتفل بقاسم أمين سنوياً ، نحتفل بذكرى وفاته . لا مولده : إننا نكرم فيه رحيله عنا . . لا قدومه إلينا .

و . . .

بعد أن مات قاسم تحول منزله إلى متحف ، أو مكتبة ، أو معرض . . لا أتذكر بالضبط . آه . . أنا آسف . لم يتحول منزله إلى متحف أو معرض أو مكتبة . تحول منزله إلى كباريه . كباريه اسمه . . اسمه . . الأريزونا !

عبد الرحمن الكواكبي



٤

قلم ضد السيف !

الآستانة .

تركيا .

القرن التاسع عشر

« . . سبحان الله » !

هكذا عبر جمال الدين الأفغانى عن دهشته من كلمات رئيس الديوان السلطانى داخل قصر السلطان بمدينة الآستانة ، عاصمة الإمبراطورية العثمانية . إن رئيس الديوان يلفت نظر جمال الدين إلى أنه كان يلعب بحبات مسبحته . . وهو فى حضور السلطان عبد الحميد ، وفى هذا عدم احترام كبير للسلطان .

ولكن الكلمات تندفع من فم جمال الدين الأفغانى وهو يرد : « . . سبحان الله ! إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة على هواه وليس من يعترض منهم : أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء » ؟!

ولكن السلطان عبد الحميد لا يقبل اعتراضاً من أحد . إنه « شاهنشاه ملك الملوك » . . إنه « السلطان الأعظم والذات المقدسة » إنه « خليفة المسلمين وسلطان البرين وخاقان البحرين » . ألقاب رسمية . إن عبد الحميد هو السلطان العثمانى فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . إنه يرأس إمبراطورية عثمانية يزيد سكانها على ٣٠٠ مليون ، وتقع أراضيها فى ثلاث قارات : أوربا وآسيا وأفريقيا . إمبراطورية يديرها السلطان من داخل قصره فى مدينة الآستانة بتركيا . قصر ترتفع أسواره إلى عشرين قدماً .

إن الآستانة – فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر – هى مدينة خانقة . لقد وصفها الشيخ محمد عبده بدقة عندما قال إنه لم ير بيئة فى العالم كالآستانة فى « . . سوء تأثيرها فى العقل والفكر والقلب . . . ولهذا كان أحرار الترك معذورين فى شرودهم منها ، وتوطيد أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والمحن » .

والسلطان عبد الحميد نفسه – بتعبير جمال الدين الأفغانى – هو شخص « . . سيء الظن ، لا يأمن أحداً ، ويسيء الظن بكل أحد » .

والواقع أن السلطان عبد الحميد لم يكن يستطيع غير ذلك . إنه لا يستطيع أن يحكم الناس بالاختيار ، ولا بالثقة ، ولا بالحب ، ولا بالرضا . إذن فعليه أن يحكمهم بالسيف . إن السلطان مثله فى هذا مثل أى سياسى . فالسياسى إما أن يقنع الناس ، أو يضربهم بالرصاص . والسلطان العثمانى لم يكن يستطيع أن يقنع الناس بحكمه . إذن . . على السيف أن يقوم بهذه المهمة .

لهذا فمن الطبيعى أن تكون الآستانة مدينة خانقة فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . إذا اجتمع اثنان فخلفهما دائماً أذن تسمع وعين تراقب ، وسجن مفتوح وسيف مستعد . إن كل عميل للسلطان يتحسس سيفه فوراً إذا التقطت أذنه كلمة واحدة : الحرية . عند هذه الكلمة – هذه الكلمة بالذات – يفقد السلطان عقله ويفقد المتكلم رأسه. الحرية ؟ ! هذه الكلمة اخترعت لكى يستخدمها السلطان عبد الحميد فقط . إنه حر فى إيقاف العمل بالدستور الذى سبق أن أصدره هو نفسه . لا دستور . حر فى الحكم على أى شخص بأنه عدو أو صديق. لا وسط . حر فى نفي عدوه أو سجنه أو قتله . لا مراجعة .

إن دنياه مملوءة بالأشباح والعفاريت والخوف والإرهاب . دنيا السلطان بلا ظلال : فالناس إما صديق وإما عدو . وساعة السلطان بلا عقارب : فالوقت إما نهار وإما ليل . وسلطة السلطان بلا فرامل : فهى لا تريد

إلا النفاق أو الخوف . إن السلطة بالنسبة له هى فن إبقاء الناس على جهلهم . والحكم بالنسبة له هو فن إرغام الناس على إغلاق أفواههم . لهذا كان طبيعياً أن يصبح الجو كله معبأ بالظلم والاضطهاد والاستبداد ثم . . الرغبة فى كسر هذا الاستبداد . لقد فر عدد من أبناء البلاد المثقفين إلى مدن أوربا يكتبون فيها آراءهم بصراحة وحرية ضد السلطان ، ويطبعون فيها المنشورات التى تتسرب سراً إلى الآستانة. إن مدناً مثل جنيف أو باريس . . أصبحت ميداناً للعمل السرى ضد السلطان الحاكم بأمره .

وفى داخل البلاد انتشرت الجمعيات السرية التى تريد الإصلاح. ولكن بمرور الوقت لم يعد الإصلاح كافياً لتصحيح ما يرتكبه السلطان . ليس أقل من الثورة التى تهدم كل شىء فوق رأسه . إن السلطان يحكم الناس بالجواسيس . . بالقوة . . بالسيف . . ولن يمنع استبداده سوى السيف .

ولم يكن السلطان يستطيع أن يمسك بالسيف إلا ضد مواطنيه فقط . أما مع الأعداء الحقيقيين له ولمواطنيه . . فإنه لايستطيع أن يستخدم ضدهم سيفه . . ولا حتى صوته . إن فرنسا تحتل الجزائر — لايهم . تحتل تونس — لايهم . بريطانيا تحتل عدن — لايهم . تحتل مصر — لايهم . إذن . . ماذا يهم ؟ لاشىء . لاشىء سوى أن يظل السلطان فى كرسى الحكم ، حتى ولو كانت خزائنه مدينة بـ ١٠٦ ملايين جنيه استرلينى ، حتى ولو كانت إمبراطوريته هى « الرجل المريض » فى العالم . لايهم . السلطان يهمه فقط أن يظل فى القمة . . . حتى ولو كانت قمة جبل من الثلج الذى يذوب تحته دون أن يدرى . إن السلطان يهمه فقط أن يحكم بأى ثمن ، حتى ولو جعل داخل كل بيت ضحية . . حتى ولو جعل نصف رعاياه جواسيس على النصف الآخر . جواسيس بلغ عددهم أربعين ألفاً فى منطقة الشام وحدها .

الشام . . مدينة حلب

إن مدينة حلب هي — فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر — صورة مصغرة لما يحدث فى الإمبراطورية العثمانية كلها . فيها وال عثمانى صغير ممثل للسلطان العثمانى الكبير — الوالى عارف باشا . وفيها أيضاً صوت صغير يشكو من ظلم الوالى . صوت رجل عادى — عادى جداً — اسمه . عبد الرحمن الكواكبى .

إن الكواكبي يعيش فى مدينة حلب منذ ولد بها فى سنة ١٨٤٨ . لقد ماتت أمه وهو فى السادسة . ولكن أباه استطاع أن يعلمه كما يتعلم أى طفل فى تلك الأيام : اللغة والدين .

وعندما وصل عبد الرحمن الكواكبي إلى سن العشرين أصبح يتكلم الفارسية والتركية ، بالإضافة إلى العربية ، وبالإضافة إلى دراسة الكتب الدينية والتاريخية وقوانين الدولة العثمانية . بعدها عمل الكواكبي فى وظائف عديدة . عمل صحفياً وكاتباً ورئيساً للبلدية ثم محامياً وقاضياً للحاجات وتاجراً .

وفى كل وظيفة يعمل بها الكواكبي . كان يرى الاستبداد والطغيان حوله فى كل مكان . إن الولاة والحكام يستخفون بالشعب ويضربونه بالنعال . إن الشعب عندهم لا فائدة منه سوى دفع الضرائب . إنهم ينشرون فيه الرشوة والفساد . يحكمونه بالسيف والجواسيس . يستعبدون الناس ويخرقون القانون ويدوسون العدالة ويتجاهلون الحقوق ويستغلون الدين ويفسدون الأخلاق ويراقبون الصحف ويحجبون الحرية . إنهم يذلون الغنى ويستعبدون الفقير ويسجنون الأحرار ويعدمون المتمردين .

إن الكواكبي يصطدم بنتائج هذا كله فى كل تجارة يعمل بها أو وظيفة يشغلها . إنه دائماً يصطدم بالإدارة الفاسدة والموظف المرتشى والوالى المستبد والحاكم الظالم . إنه يصطدم . . ولكنه فى الوقت نفسه يفكر . إن الكواكبي لم يكن مجرد فرد يعمل ويعيش . . يعيش ويأكل . .

يأكل وينام . إنه يعمل . . ويعيش . . ويتأمل . إنه يتأمل حال هؤلاء الحكام الذين يراهم أمامه . . وهذا الشعب الذى خرج منه . إنه يتأمل حال المسلمين فى ماضيهم وحاضرهم . لماذا ضعفوا ؟ لماذا استكانوا ؟ لماذا تدهوروا ؟ لماذا هزموا ؟ لماذا هم راضون عن هزيمتهم ؟ لماذا يستسلمون لمن يستبد بهم ؟ لماذا ؟ .. لماذا ؟ . . لماذا ؟ أسئلة كثيرة شغلت بال الكواكبي فى تلك الأيام . كل سؤال يجر سؤالا آخر . كل مرض يكشف عن مرض آخر .

وشيئاً فشيئاً بدأ الكواكبي يضع يده على بعض الإجابات. هنا أشياء كثيرة يراها سبباً لتدهور حال المسلمين . أسباب دينية : أهمها الإيمان بالقضاء والقدر . أسباب خلقية : أهمها استيلاء اليأس على النفوس وإهمال طلب الحقوق العامة جبناً وخوفاً . أسباب سياسية : أهمها فقدان المسلمين الحرية بجميع أنواعها : حرية التعلم ، حرية الخطابة ، حرية البحث العلمى . . إلخ . إن المسلم تدهور حاله حينما أصبح مجرداً من حرية القول والعمل ومجرداً من الأمن والأمل . وحينما فقد المجتمع حريته فقد أمله وبطل عمله وماتت نفسه وفسد عقله واختل قانونه وسئم حياته .. فاستولى عليه الفتور واستسلم للاستبداد . الاستبداد ؟ !

هذه كلمة لاتمر بسهولة . من الذى يقصده الكواكبي بالاستبداد ؟ الوالى ؟ الصدر الأعظم ؟ السلطان ؟ إن أحداً منهم لن يتسامح إذا سمع من الكواكبي — أو غيره — هذه الكلمة . من هنا بالضبط سوف تبدأ مشاكل الكواكبي مع الولاة الذين يمثلون السلطان الأكبر . المستبد الأكبر . وآه إذا بدأت مشاكل أحد مع ممثلى السلطان ! إذا عرف ممثلو السلطان طريقهم إلى أحد . . فلن يستريح باله طوال حياته .

ولم يكن الكواكبي استثناء لهذه القاعدة . هذا هو جميل باشا والى حلب يتنبه إلى الكواكبي . لقد علم أن جميع ما تنشره صحف الآستانة

وبيروت ضده مستمد من قلم الكواكبي. والشكاوى التى يكتبها الناس استغاثة من ظلمه.. ساهم فى تحريرها الكواكبي. لهذا بدأ الوالى فى مراقبته، فى التضييق عليه. وأخيراً.. قام بإلقاء القبض عليه. التهمة: التآمر على الوالى. المتهمون: الكواكبي.. وآخرون. إن الوالى واثق من إدانتهم إلى درجة أنه سمح بمحاكمتهم سياسياً. براءة.

ولكن البراءة لم تكن نهاية كل شيء بالنسبة للكواكبي. إذا كانت مشاكله مع الوالى قد بدأت.. فإنها لن تنتهى. لقد منعه من السفر، وراقبه ووضع الجواسيس فى ذيله واغتصب مزرعته ونهب أمواله. ولكن هذا أيضاً لا يكفى فعندما جاء إلى حلب وال آخر — هو عارف باشا — وجد أن الكواكبي قد افتتح مكتباً للمحاماة خصصه للدفاع عن المظلومين ضد مظالم الوالى وكبار الأعيان. وحتى يستريح الوالى الجديد من إزعاج هذا الكواكبي — هذا المشاغب — اختار لإسكاته سلاحاً آخر. هذا هو: القبض عليه بتهمة أنه يعمل على تأليف جمعية لمناوأة الدولة. تهمة خطيرة. سلاح قاتل. ولكى تكون الإصابة مضمونة فإن الشرطة — عند تفتيش منزل الكواكبي — دست له فى الأوراق المصادرة صورة خطاب — مزور طبعاً — زعموا أن الكواكبي قد «.. بعث به إلى قناصل الدول الأجنبية يحرضهم فيه على مخاصمة الحكومة والعمل على تخليص البلاد من المظالم».

هذه إذن خيانة عظمى. هذه تهمة خطيرة يا كواكبي. تهمة تجرح حتى ولو لم تقتل. تهمة تصيب بأذى كبير حتى ولو خرج منها الكواكبي سليما. ولكنه لن يخرج سليماً — هكذا صمم الوالى وأعوانه.

عدلية حلب

فتحت الجلسة

«وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» — هكذا يقرأ الكواكبي

من مكانه داخل قفص الاتهام فى عدلية حلب ـ محكمة حلب . إن الكواكبي واثق من براءته . واثق تماماً .

ولكن قبل أن ينتهى اليوم كان الكواكبي قد تعلم أنه فى ظل الاستبداد لا يستطيع الإنسان أن يثق تماماً بأى شيء . حتى ببراءته . فبعد تلاوة تقرير الشرطة والأوراق المدسوسة جاء دور الشهود . هل كان هناك شهود؟ نعم . هناك دائماً شهود على كل شيء لم يحدث . شهود يشتريهم الوالى . إن أموال الوالى تستطيع أن تشترى أى شيء ـ بما فى ذلك الشهود . وما لا تشتريه الأموال . . يضمنه الإرهاب .

ولكى تكون إدانة الكواكبي مضمونة لم يكن يكفى شاهد واحد . لا يكفى عشرة . لا يكفى عشرون . لا بد من ثبوت التهمة هذه المرة . تهمة الخيانة العظمى . إذن . . ليس أقل من خمسين شاهداً حتى تكون الخيانة مؤكدة ، وحتى لا يجرؤ صوت واحد فيما بعد على الدفاع عن الكواكبي . خمسون شاهدا أحضرهم الوالى إلى عدلية حلب لكى يؤدوا هذه المهمة .

ولكن الكواكبي ما زال واثقاً من براءته . إن الوالى يستطيع أن يشترى الشهود . أن يرهبهم . ولكنه قطعاً . . قطعاً . . لن يستطيع شراء القضاء أو إرهابه . إن الاستبداد يستطيع أن يستخدم أسلحته خارج هذه المحكمة ، ولكنه فى داخلها ـ قطعاً قطعاً ـ سوف يلتزم حدوده . إن الفيصل فى النهاية هو أن ينتظر الكواكبي . ساعة أو ساعتين . . حتى يتبين بالضبط . . هل يمكن أن يخضع القضاء للاستبداد . . أو لا يخضع؟ يخضع . . أو لا يخضع ؟ يخضع . . أو لا . . يخضع .

نعم يخضع . فبعد سماع الشهود والأدلة والمرافعات ـ كما لو كانت المحاكمة عادلة حقاً ـ نطقت المحكمة بالحكم . إن الحكم هو . . هو . . هو . . الإعدام .

مرفأ بيروت ١٨٩٩
مكتب ناظر النفوس

عندما قام مدير جوازات بيروت — يسمونه ناظر النفوس — بمراجعة جوازات المسافرين على الباخرة من بيروت إلى الإسكندرية. لم ينتبه إلى أن من بينهم رجلاً فى السابعة والأربعين. رجلا مستدير الوجه، واسع الجبين، أزرق العينين، كثيف الحاجبين والشارب واللحية. رجلا شابت فيه أشياء كثيرة غير مجرد شعر رأسه. رجلا يكاد يكون طويل القامة — وإلى جانبه يسير ابنه الشاب — كاظم.

وبعد أن مر الجمع برجال الشحنة (الشرطة) .. صعدوا إلى الباخرة. ساعتها فقط التفت كاظم إلى أبيه وتنهد بعمق ثم قال : الحمد لله!

وتمتم الأب : نعم يا بنى. الحمد لله أننا نجونا أخيراً من هذه البلاد. هذه بلاد لا يعيش فيها حر، ولا ينجح نزيه، ولا يسلم مفكر ..

ولم يكن هذا الرجل سوى شيخ سورى اسمه عبد الرحمن بن أحمد بهائى بن محمد بن مسعود .. الكواكبى. نعم الكواكبى الذى صدر عليه حكم الإعدام من قبل فى مدينة حلب. لقد كان هذا الحكم صدمة عنيفة بالنسبة للكواكبى. صدمة كشفت له عن قرب أن الاستبداد يستطيع أن يشترى كل شيء. يستطيع أن يشترى الشرطة والشهود والقضاة والمصفقين. صدمة جعلته يتحرك بضراوة دفاعاً عن نفسه. لقد اعترض على حكم الإعدام، وأعلن عدم ثقته بحكومة حلب وواليها، وأصر على أن تحول محاكمته إلى محكمة أخرى. وبعد أخذ ورد مع نظارة العدل فى الآستانة ... قررت محكمة التمييز محاكمته أمام محكمة بيروت. وفى بيروت تبينت المحكمة أن التهمة ملفقة من أساسها، فحكمت ببراءة الكواكبى. وطلبت عزل الوالى.

وعندما أطلق سراح الكواكبى عين نائباً شرعياً فى قضاء راشيا بولاية

سوريا . ولكنه قبل أن يتسلم عمله الجديد بدأ يفكر .

لقد قضى عمره حتى الآن يصطدم بالاستبداد العثمانى ويصارعه . فى كل مرة اصطدم فيها بوال أو سلطان كان يكتشف أن المشكلة ليست مشكلة جميل باشا أو عارف باشا .. أو أى باشا. المشكلة هى أسلوب فى الحكم . فى الإدارة . فى السياسة . إنه . . الاستبداد . هذه هى المشكلة . إذن . . لماذا لا يتفرغ لدراسة الاستبداد كأسلوب فى الحكم ؟ . . ما هى أسبابه ؟ . . ما هى نتائجه ؟ . . ما أساليبه ؟

إن هذا أمر طيب حقاً. ضرورى حقاً . ضرورى أن يدرس الاستبداد . . أن يكتب عنه . . ولكن ، أين ينشر ما يكتبه ؟ هذه بلاد يختنق فيها كل صريح ، ويتهم كل نزيه ، ويعذب كل حر ، وتموت كل حقيقة . . فلماذا يبقى فيها ؟ لماذا لايهاجر ؟ نعم يهاجر . ولكن إلى أين ؟ إلى . . إلى . . إلى مصر .

إنها قطعاً بلاد أكثر أمناً . أكثر صبراً . أكثر احتمالا . و — الأهم من هذا كله — أن مصر تبعد عن السلطان العثمانى بألف كيلومتر .

مسافة طويلة بمقاييس تلك الأيام .

وفعلا. ها هو ذا الكواكبى يستقل الباخرة من بيروت إلى الإسكندرية مصطحباً معه ابنه كاظم . لقد تكتم الكواكبى كل شىء حتى عن أقرب أصدقائه . إنه لم يتكتم فقط قراره بالهجرة إلى مصر.. ولكنه تكتم أيضاً أوراقاً أكثر أهمية . أوراقاً تحمل عنواناً بسيطاً هو : « طبائع الاستبداد » . إنها عنوان الدراسة التى انتهى إليها الكواكبى أخيراً عن الاستبداد السياسى . إن الكواكبى سوف ينشر كتابه هذا فى مصر . بل إنه سوف يقضى بقية حياته فى مصر . الحياة فى مصر ! مصر ! مصر ! إن مجرد الاسم يؤدى إلى تدفق سلسلة كاملة من الأحلام فى خياله .

إن مصر تحمل معانى كثيرة بالنسبة للكواكبى . مصر تعنى الضخامة . الهواء النقى . الحرية . هكذا تبدو مصر من بعيد . فى مصر يستطيع

الكواكبي أن يتكلم بصراحة، يعيش فى أمن، يتنفس بحرية. هذا يكفيه. أقل من هذا يكفيه. إن الكواكبي يكفيه أن تحتمله مصر: إنه لا يطلب من أحد التصفيق لآرائه. إن مجرد احتماله — مجرد الصبر عليه — يكفى.

وإذا كان الأمر كذلك فسوف يجد الكواكبي فى مصر كثيرين على شاكلته. سوف يجد كثيرين من أحرار الشام الذين سبقوه إلى مصر. حاملين نفس التوقعات بين صدورهم.

هكذا بدأت الأحلام تتدفق فى خيال عبد الرحمن الكواكبي وهو على ظهر الباخرة المتجهة إلى الإسكندرية. لاشيء يراه الكواكبي فى جلسته غير السماء والبحر. لاشيء يسمعه سوى صوت أحلامه داخل رأسه. لاشيء — ولا حتى السؤال الذى يوجهه إليه الخادم الآن على ظهر الباخرة: يا شيخ؟ يا شيخ عبد الرحمن؟ قهوة سكر؟ سكر يا شيخ عبد الرحمن؟ آه.. من غير سكر؟ قهوة مرة؟ تحت أمرك!

ولكن الكواكبي يسأل الخادم: متى نصل بإذن الله إلى الإسكندرية؟

— غداً إن شاء الله.

ساعتها التفت الكواكبي إلى ابنه كاظم وهو يتمتم: أخيراً. أخيراً نستطيع أن نكون فى الإسكندرية غداً، ثم فى القاهرة بعد غد! الحمدلله!

القاهرة ١٩٠٠

شيء لا يصدقه عقل!

هذه فصول تنشرها جريدة «المؤيد» فى القاهرة. غريبة فى اللهجة والأسلوب والموضوع. إنها فصول.. مشبعة بالصراحة والجرأة. إنها مجهولة التوقيع.

— ترى، من الذى كتبها؟ هل يكون كاتبها هو الشيخ محمدعبده؟

— مستحيل . فصحيفة «المؤيد» هي لسان حال الخديو عباس الثاني ، الذي بدأ يختلف مع الشيخ الإمام . إن الشيخ على يوسف — صاحب المؤيد — علاقته بالشيخ محمد عبده سيئة .

هكذا بدأ الجمهور يتساءل عندما بدأ الكواكبي ينشر مقالات عن طبائع الاستبداد في صحيفة « المؤيد » بالقاهرة . فمنذ وصل الكواكبي إلى القاهرة سنة ١٨٩٩ توثقت علاقته بالشيخ على يوسف صاحب « المؤيد» بواسطة صديق مشترك هو رشيد رضا — مفكر سوري آخر هاجر إلى مصر . وبعد أيام قليلة من وصول الكواكبي إلى القاهرة بدأت مقالاته الغريبة تنشر في « المؤيد » . التوقيع : مجهول .

وفي هذه السنة — ١٩٠٠ — جمع الكواكبي مقالاته في كتاب . وحتى عندما فعل ذلك فإنه لم يوقع باسمه . إن الكتاب كان له عنوان غريب(1) هو « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » ، وهي كلمات

حق وصيحة في واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد .

محررها هو الرحالة ك » .

إن الكواكبي يبدأ كتابه بالتساؤل : ما هو الاستبداد ؟

ومن السطر الثاني مباشرة يبدأ الكواكبي في إجابة السؤال ، والانطلاق منه . هكذا يكتب :

إن الاستبداد هو « . . صفة للحكومة المطلقة العنان ، التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء بلا خشية ولا عقاب » .

وسبب الاستبداد هو أن تكون الحكومة « .. مطلقة العنان ، لا يقيدها قانون ولا إرادة أمة ، أو أنها مقيدة بنوع من ذلك ، ولكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود والسير على ما تهوى » .

والحكومات ميالة بطبعها إلى الاستبداد . . لا يصدها عنه إلا « .. وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها ،

وإلا قوة الرأى العام وعظمة سلطانه » .

و . . « المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم . ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته . .

« . . والمستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلهما .

« والمستبد يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزاً . فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم .

« والمستبد يود أن تكون رعيته كالغنم دوراً وطاعة .. وكالكلاب تذللا وتملقاً . . وعلى الرعية أن تعرف مقامها ، هل خلقت خادمة للمستبد أو هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها .

« والمستبد إنسان مستعد بالفطرة للخير والشر . فعلى الرعية أن تكون مستعدة لأن تعرف ما هو الخير وما هو الشر . مستعدة لأن تقول لا أريد الشر . مستعدة لأن تتبع القول بالعمل . .

« . والحكومة المستبدة تكون مستبدة فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشارع . ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس ، إنما غاية مناهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته ، وأنصار لدولته ، وشرهون لأكل الفتات من ذبيحة الأمة . ، وبهذا يأمنهم ويأمنونه ، فيشاركهم ويشاركونه . وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل بحسب شدة الاستبداد وخفته .. فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه ، واحتاج إلى الدقة فى اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم فى المراتب بالطريقة المعكوسة ، وهو أن يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً . »

لقد انفجر البركان . . أخيراً . بركان ضخم متفجر ، ملتهب . بركان ظلت فوهته مسدودة مدة طويلة داخل عقل الكواكبي . الآن ، انفجر البركان . انفجار يقذف إلى صفحات الكتاب بكل الملامح التي ظل الكواكبي يختزنها داخل عقله سنة بعد سنة. إنك في هذا الكتاب لا تشعر أنك تقرأ كلاماً مكتوباً. لا . أنت تشهد بركاناً يتفجر . بركاناً تلفح حرارته وجهك وعينيك وعقلك .

إن هذا الكتاب ليس خيالا أو أحلاماً أو تجريداً أو ميتافيزيقا . إن الكواكبي في هذا الكتاب ليس شاعراً . ليس أديباً . ليس قصاصاً . إنه مصور . إن المصور لايخترع ، لايبتكر ، لايخلق ، لايضيف . إنه يلاحظ . إنه يرى . إنه يسجل . إن الصورة نفسها تحمل رأيه . والكواكبي في هذا الكتاب مجرد مصور . إن عينه هي كاميرا تسجل ما تراه حولها من مظاهر الاستبداد . إنه ليس رساماً . لايستطيع أن يحذف جزءاً من الواقع أو يجمل الواقع. لايستطيع أن يضيف للواقع جمالا يفتقده ، أو يستر قبحا لا يريده . إن الكواكبي هنا ليس قاضياً يصدر الأحكام ، ولا هو محام تهمه البراءة . إنه مجرد شاهد على الواقع الذي يراه . على السلطة التي يخضع لها . إنه — في متابعته لملامح هذه السلطة — لايصورها كمحايد .. ولكنه كمجرب . لا يكتب عنها كمتفرج .. ولكن كضحية .

إن الاستبداد الذي يكتب عنه الكواكبي ليس مجرد كلمة . ليس خيالاً يطوف برأسه . إنه سيف يهدد رأسه . شيء أمام عينيه. عفريت . شبح . إننا نحس بآثار الأشباح لكن لا نراها . الكواكبي يراها. إنه يرى جواسيس السلطان حوله في كل مكان . إن الخوف داخل كل منزل . والسيف فوق كل رأس . لهذا نحس أن الكواكبي يكتب عن الاستبداد بصدق، بحرارة وبخوف . إنه من البداية يخاف حتى من ذكر اسمه على الكتاب . إنه من الصفحة الأولى يؤكد أنه لا يقصد ظالماً بعينه ، ولاحكومة

مخصصة . إن إحدى عينيه تراقب قلمه . . وعينه الأخرى تراقب سيف السلطان . إن يده اليسرى تراقب ما تكتبه يده اليمنى . واحدة تكتب . . والأخرى ترتعش . واحدة تسجل . . والأخرى تطمئن . إنه يكتب بيده اليمنى . . فى حين أن يده اليسرى تتحسس رأسه لتطمئن على أنه ما زال فوق كتفيه . إن سيف السلطان حاد . . والرءوس تتطاير منه بخبطة واحدة . لهذا يكتب الكواكبى كلمته ويجرى . لهذا يتنكر . إن كلماته عامة ، مجردة ، إنه يدق الجرس مرة واحدة — ليس أكثر من مرة واحدة — لأنه يعلم أن كل الآذان معه ، كل العقول ، تعرف ما يقصده . إنه لايكتب للناس عما يمكن أن يفعله الاستبداد بهم . . بل عما يفعله بهم فعلا . إنه يكتب عن قواعد عامة . ويهرب من التفاصيل . يهرب من الأمثلة . فلكي يعطينا الكواكبي أمثلة لابد أن يكتب عن كل مايرتكب السلطان من أعمال : النفى ، التشريد ، الدم ، القتل ، التعذيب ، الخراب ، الفقر ، الاضطهاد ، العزل ، السجن ، الظلام ، الرقابة ، الإعدام . إن الكواكبي لايستطيع أن يعطى هذا كله ظهره ثم يعطى أمثلة . مستحيل . لو أن الكواكبي يستطيع أن يعطى أمثلة . . او أنه يستطيع أن يضع النقط على الحروف ! . . لوأنه يستطيع أن ينقد السلطان علنا ! . . إذن فلا توجد مشكلة . لايوجد حاكم مستبد . فطالما أن السلطان يسمح بالمناقشة ، بالوضوح ، بالنقد ، بالاختلاف معه ، بالمعارضة له . . إذن فهو سلطان قوى . . عادل . . واثق من نفسه . . وأبعد ما يكون عن الاستبداد . ولكن السلطان مستبد . إذن لامناقشة ولاوضوح ، لاتفكير ، لا اختلاف ، لامعارضة ، لا حرية . المعارضة حرية .

إن الاستبداد الذى يتحدث عنه الكواكبى ليس جملة فى كتاب . ليس كتاباً . إنه استبداد يستبد بعقله حينما يفكر . . فمن الطبيعى أن يستبد بقلمه حينما يكتب . إن كابوس الاستبداد يسيطر على عقله فى أثناء الكتابة . . كمغص يسيطر على معدته . يمزق معدته . يمزق عقله .

إن القلم فى يده ليس قلماً . إنه كاسح ألغام . إنه ينير الطريق ويطهر العقل ويزرع الحقل . يزرعه بفكرة . الفكرة هى أن الاستبداد قاتل لكل شيء؛ للموهبة، للكفاية، للعلم، للثقافة ، للكرامة للأخلاق ، للحرية .

إن الكواكبى يعلم أن علاج الاستبداد هو الحرية . لهذا يدعو إلى الحرية فى كل صفحة . إن المهمة أمامه صعبة مرتين . مرة لأنه يريد نشر الدعوة للحرية ، ومرة لأنه يريد نشر الإيمان بالحرية نفسها . إنه يكتب عن الحرية وسط قوم غابت عنهم الحرية زمناً طويلاً . لقد غابت عنهم لضعفهم ، وغابت عنهم لإهمالهم . إن الحقوق والحريات يمكن فقدها بالإهمال . . مثلما يمكن فقدها بالهزيمة . إن الحرية كالقوة ، كالذراع ، كالعضلات . . أستعملها أو أخسرها . وحينما يخسر شعب حريته فإنه يدفع لاستعادتها ثمناً مضاعفاً . ثمناً للحرية نفسها . . وثمناً لاستعادة الإيمان بها . إن فقدان الحرية لايعد خسارة فى نظر قوم لم يعرفوا الحرية أبداً . . نحن هؤلاء القوم . لقد عرفنا فقط أن السلطان هو قيصر . . وهو مندوب الله . . وهو الله نفسه فى أحيان كثيرة ! لقد اعتدنا أن السلطان عبد لسلطته . ونحن عبيد للسلطان . نحن إذن عبيد للعبيد . أسوأ عبيد . إن العلاقة بين الاثنين — بين السيد والعبيد — هى علاقة ذات طابع خاص . علاقة منفعة . حتى العبودية لها منفعة . حتى العبودية يمكن فلسفتها !

إن كلاً من العبد والسيد يقنع نفسه بأنه يعمل لمصلحة الآخر . إن السيد يريد أن يستغل عبده إلى أقصى حد ممكن . وكلما حصل منه على أكثر ما يستطيع كان راضياً . وفى الوقت نفسه يريد العبد ضمان حد أدنى من الحماية والطعام والراحة من المسئولية . السجين لايتحمل مسئولية . إن السيد ، إن السجان ، إن المستبد ، يعطيه الطعام ويعفيه من المسئولية . لهذا ليس غريباً أن نجد العبد نفسه — الشعب المستعبد نفسه — قد يندفع أحياناً فى تمجيد سيده . إن تمجيده له هو

دفاع عن نفسه . فكلما أقنع الشعب نفسه بأن المستبد إنسان قوى عظيم ومدهش . . أحس أنه أقل خجلا من طاعته . لهذا نجد أن المستبد نفسه يغذى هذا الشعور . إنه يغذيه لأنه يحتاج إلى شعب مؤمن به ، مؤمن باستبداده . فلكي يستمر الاستبداد لايكفى أن يوجد حاكم مستبد أو حكومة مستبدة . لابد أيضاً من شعب يقبل هذا الاستبداد . إن الاستبداد لايتم بواحد من الاثنين . لابد من الاثنين . إن وجود أحدهما يشجع على وجود الآخر . ضرورى للآخر . هذا طبيعى . . لأن الاستبداد طريق واحد ذو اتجاهين . لابد من إنسان يريد أن يسلب حرية غيره .. وإنسان آخر يقبل النزول عن حريته لغيره . ركنان أساسيان لقيام الاستبداد . لهذا قالوا دائماً إن كل شعب يستحق الحكومة التى تحكمه. كل عبد يستحق السيد الذى يستعبده . إذا أراده حاكما . فهو شعب ، والآخر حاكم ، والسلطة عبء . إذا أراده سيداً . . فهو عبد والآخر مستبد ، والسلطة ميزة .

إن السلطة عند المستبد تخدم نزوة ، وعند الحاكم تخدم هدفاً . السلطة عند المستبد امتياز بلا حدود ، وعند الحاكم مسئولية بلا حدود .

إن المستبد يحكم الناس بنزوات فردية ، والحاكم يحكمهم بقواعد عامة .

إن الناس عند المستبد حيوانات تتلقى الأوامر ، وعند الحاكم شعب يعطى الأوامر .

إن المستبد يريد من الناس أن تحصل على الطعام . . وتترك له السياسة . فالناس عنده ليس لهم حق فى شىء أكثر من العلف الذى يعطيهم إياه . أما الناس عند الحاكم فيحصلون على السياسة . . ويتركون له الطعام . يحصلون على السلطة . . ويتركون له المسئولية .

وبينما المستبد يخاف من الناس انقلابهم عليه . . فإن الحاكم يخاف من الناس محاسبتهم إياه .

وبينما الأعداء الذين يحاربهم المستبد هم المنافسون له داخل بلده .. فإنهم عند الحاكم الطامعون خارج بلده .

إن البقاء فى السلطة هو عند المستبد هدف يسعى إليه . . وعند الحاكم ثمن يدفعه . لهذا نجد أن المستبد يحس بالراحة حتى ولو كان كل شىء على خطأ . . فى حين يحس الحاكم بالخوف عندما يبدو كل شىء على ما يرام . لهذا نجد أن رءوس الناس هى عند المستبد مجرد جماجم يسير فوقها . . وعند الحاكم هى عقول يستنير بها !

إن النجاح عند المستبد شخصى ، وعند الحاكم موضوعى . إن التمرد عند المستبد كفر . . والحرية شبح . والمعارضة كابوس . . والنقد تآمر . إن النفاق عنده أهم من الكفاية . والقرابة أشرف من العلم . والوساطة أغلى من القدرة . إنه لايريد من حوله مثقفين ، وإنما يريد منافقين يؤدون خدماتهم لمن يدفع الثمن . ولايريد علماء ، يريد « عوالم » . تدق الدفوف لمن يقف على رأس « الزفة » .

إن المستبد يحس أنه عملاق بقدر ما يحيط به من أقزام . . فى حين أن الحاكم عملاق بقدر ما يخلق من عمالقة .

إن عظمة المستبد مخصومة من عظمة رعاياه . . وعظمة الحاكم انعكاس لعظمة مواطنيه .

إن المستبد يريد من حوله بطانة تغذى فيه نقاط الضعف . . على حين يريد الحاكم مساعدين يؤكدون فيه نقاط القوة . لهذا فعندما ينتهى كل شىء ، نجد أن المستبد قد ترك خلفه كلاباً تتقاتل على السلطة . . بينما الحاكم يترك خلفه تقاليد تحكم السلطة .

وعندما نعود إلى الكواكبى وكتابه نجد أن كل شىء لم ينته بعد . إنه سوف ينتهى يوماً ما . . ولكن ليس بعد . لهذا نكتشف — عندما نعود إلى تأمل كتاب الكواكبى من جديد — أنه يكتب كلماته بالقطارة . إن الكتاب نفسه هو كتيب أكثر مما هو كتاب . إنه مجرد وسيلة للوصول

إلى الهدف من أقصر طريق . الهدف عند الكواكبي هو كشف الاستبداد ونتائجه . الهدف هو أن ينزع الكواكبي كل الستائر التي يغطى بها الاستبداد نفسه . وكلما نزع الكواكبي ستاراً وجد ستاراً آخر تحته . وبعد أستار كثيرة يكشف لنا الكواكبي عن الوجه الحقيقي للاستبداد . وجه قبيح.

إن الكواكبي يبحث في الكتاب علاقة الاستبداد بالدين . . إنه ينقل عن الإفرنج رأيهم في أن الاستبداد في السياسة متولد من الاستبداد في الدين أو مساير له . إنهم يقولون إن الأديان تعلم الناس الخوف من قوة عظيمة لاتدرك العقول كنهها . . وتهددهم بالعذاب إن لم يطيعوها . والمستبدون السياسيون يتبعون الأساوب نفسه . . فيرهبون الناس ويذلونهم — بالقوة وسلب الأموال والإرهاب — حتى لايجدوا مفراً من التزلف إليهم وتملقهم .

ولكن الكواكبي يدلل على أن الإسلام قد فرق بين شيئين جوهريين : النظرة إلى الله ، والنظرة إلى الحاكم . إن الحاكم فرد . . يخطئ ويصيب . . يظلم ويعدل . . إنه في جميع الأحوال يلتزم — بحكم الدين — ألا يستبد بالرأي . إن الله تعالى يقول : « وشاورهم في الأمر » ، أي في الشأن . ويقول : « وأمرهم شورى بينهم » ، أي شأنهم . ويقول : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» ، أي أصحاب الشأن منكم ، وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه أكثر المفسرين .

إذن . . لماذا استبد الحكام برغم تعاليم الإسلام ؟

يقول الكواكبي إن إهمال الشعوب مراقبة أمرائهم ومؤاخذتهم وسؤالهم هو الذي أوسع لهم مجال الاستبداد وتجاوز الحدود .

* * *

ثم ينتقل الكواكبي إلى نقطة أخرى هي : علاقة الاستبداد بالعلم . . يقول : « ما أشبه المستبد في نسبته إلى رعيته بالوصي الخائن القوى على أيتام أغنياء ، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين . فكما أنه

ليس من صالح الوصى أن يبلغ الأيتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم » إن الحاكم المستبد يخاف من انتشار العلم . إنه يريد الإبقاء على رعيته فى الظلام ، لأن الجهل يضاعف سيطرته عليهم .

إن الكواكبي يرى الحاكم المستبد « لا يخشى علوم اللغة . وكذلك لا يخاف من العلوم الدينية . . . لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولاتزيل غشاوة » .ولكن المستبد يخشى — بل ترتعد فرائصه من « . . علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية وغيرها » . وبالإجمال إن المستبد لايخشى من العلوم سوى تلك التى « . . توسع العقول وتعرف الإنسان ما هو الإنسان ؟ وما هى حقوقه ؟ وهل هو مغبون ؟ وكيف الطلب ؟ وكيف النوال ؟ وكيف الحفظ ؟ »

« إن المستبد سارق ومخادع ، والعلماء منبهون محذّرون ، وللمستبد أعمال وصوالح — مصالح — لايفسدها عليه إلا العلماء .

« المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته ؛ لأن للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان . . لذلك لايحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكى ، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس . . يختار المتصاغر المتملق . .

« وينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمرًّا ، يسعى العلماء فى نشر العلم ، ويجتهد المستبد فى إطفاء نوره . .

« العوامّ هم قوات المستبد وقوته ، بهم عليهم يصول ، وبهم على غيرهم يطول . . يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ، ويهينهم فيثنون على رفعته ، ويغرى بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته ، وإن أسرف بأموالهم يقولون عنه إنه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً ، ويسوقهم إلى خطر الموت ، فيطيعونه حذر التأديب . وإن نقم عليه بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بغاة . .

« ولا شك أن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه لأن خوفه ينشأ عن علم ، وخوفهم ناشئ عن جهل . .

« وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته ! » . .

مرة أخرى هذا ليس قلماً يكتب . هذه كاميرا تصور . كاميرا يستخدمها الكواكبي ، ليس فى تصوير ما يمكن أن يحدث . . بل ما يحدث فعلا حوله فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية . لقد بدأت الكاميرا فى يده تلتقط الصور ، وهى ستستمر فى ذلك لتكشف كل الوجوه الخفية للاستبداد .

إن الكواكبي يخصص فصله التالى فى الكتاب بمناقشة علاقة الاستبداد بالمجد والتمجد . فصل آخر لمناقشة علاقة الاستبداد بالمال . فى الحكم الاستبدادى يستبد كل شخص بمن تحته ، ويخضع لاستبداد من فوقه . . إن كل مستبد صغير هو موظف عند المستبد الكبير . وليس موظفاً عند الأمة كما يجب أن يكون فى الحكم الصحيح .

وفى ظل الحكومة المستبدة يصبح التظاهر بالفقر ميزة كبرى لأن أحداً لا يأمن على ماله . إن « . . حفظ المال فى عهد الإدارة المستبدة أصعب من كسبه ، لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه ولذلك يضطر الناس فى زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله ، والتظاهر بالفقر والفاقة » .

والحكومة المستبدة تغدق المال على محاسيبها ومن يساعدونها فى طغيانها « ويكفى الواحد منهم أن تكون له علاقة بواحد من المستبدين حتى يصبح فقره ثروة ، ونفاقه نفوذاً ، ورياؤه سلطة » . .

ولا يقف تأثير الاستبداد عند الدين والعلم والمال . إنه يمتد ليؤثر فى كل شىء حتى أخلاق الناس . هذا هو الفصل التالى فى كتاب الكواكبي . إن الاستبداد فى رأى الكواكبي يضعف الأخلاق ويفسدها

أو يمحوها . . إنه يجعل الإنسان كافراً بمن أنعم عليه ، حاقداً على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه . إنه يصبح « . . فاقداً حب وطنه لأنه غير آمن على الاستقرار ويود او انتقل منه . . وضعيف الحب لعائلته لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها . . ومختل الثقة فى صداقة أحبابه لأنه يعلم أنهم مثله . . قد يضطرون إلى إضرار صديقهم — بل قتله — وهم باكون» . إن الاستبداد ينشر النفاق بين الناس . إنه يفقدهم ثقتهم بعضهم ببعض وثقتهم بأنفسهم . .

ثم يرد الكواكبي على المزايا التى يدعى الحكم الاستبدادى عادة أنه يحققها . ان الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد . . صحيح . . ولكنها طاعة عن خوف وجبن لا عن إرادة واختيار . الاستبداد يربى النفوس على احترام الكبير وتوقيره . صحيح . ولكنه احترام عن كراهية لا عن حب . الاستبداد يقلل الفسق والفجور . صحيح أيضاً . ولكن الفجور يقل عن فقر وعجز لا عن عفة ودين . الاستبداد يقلل الجرائم . صحيح . ولكن الجرائم لاتقل . . وإنما تصبح خفية . . إنها لاتختفى . ولكن الذى يختفى هو الحديث عنها علناً . .

إن الاستبداد يسىء أيضاً إلى التربية . إنه « . . يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس » . . إن الآباء يرون أن تربيتهم لأبنائهم تذهب عبثاً تحت أقدام النماذج التى يضربها لهم الاستبداد فى سوء التربية. إن الاستبداد يسمى الشجاعة طيشاً والإنسانية حمقاً والنفاق سياسة والدناءة لطفاوالنذالة ظرفاً . .

* * *

الآن . .

الآن اكتملت صورة الاستبداد عند الكواكبي . الآن نزع الرجل كل الستائر من فوق الوجه القبيح للاستبداد . . وكلما كان ينزع ستاراً كانت ملامح الوجه القبيح تبدو شيئاً فشيئاً . أكثر من هذا . . فإن

واقعية الكواكبي ، إن إصراره على أن ينطبق ما يكتب على ما يراه الناس ، أصبح ميزة له فى كتابه ، ولكنه لن يصبح كذلك فى حياته .

إن الكواكبي أراد أن يكون كتابه مصباحاً ينير الطريق أمام أمته . . ولكنه نسي أن هناك رجلا آخر يهمه الأمر . . طرف آخر تعنيه المسألة ، تعنيه جداً . لقد نسى الكواكبي — يبدو هذا — أن هناك سلطاناً يحكم ، ويحكم بنفس الأساليب التى كشفها هو . نسى الكواكبي أن السلطان عبد الحميد يقضى حياته فى التلصص وراء كل فرد من رعاياه والتجسس عليه بعصا غليظة فى يده بل بسيف حاد . إن السلطان يراقب من قصره فى الآستانة — كل صوت يهمس بين رعاياه فى أى جزء من الإمبراطورية العثمانية كلها . إن جيش الجواسيس الذى كان يجب أن يعرف مطامع الدول الأجنبية فى أراضى الإمبراطورية . . قد ترك مهمته الأصلية وتفرغ ليسمع همسات المواطنين داخل الإمبراطورية. إن التلصص ، التسمع ، والتجسس أصبح مهمة هذا الجيش من العملاء . . فما بالك والأمر هنا لايحتاج إلى تلصص أو تجسس . الأمر هنا ظاهر وواضح . منشور فى كتاب !

ولم تكن غلطة الكواكبي هى الكتاب ، ولكن ما يدل عليه الكتاب ، هو الغلطة . إن ما يدل عليه الكتاب هو أن عبد الرحمن الكواكبي ضعيف الذاكرة ! إن الكواكبي وهو يكتب كتابه تذكر شيئاً ، ونسى شيئاً . تذكر أن اسمه : عبد الرحمن . . ونسى أنه عبد السلطان . السلطان التركى . هذا ضعف فى الذاكرة . هذا فقدان للذاكرة . إن الكواكبي يجب أن يخشى السلطان كما يخشى الله ، بل قبل أن يخشى الله . فالله يغفر . . والسلطان لايغفر . الله يؤجل الحساب . والسلطان لا يؤجل العقاب . . الله يرحم . . والسلطان لا يرحم !

لقد ردد الكواكبي فى كتابه كثيراً أنه لا إله إلا الله . خطأ كبير . كان يجب على الكواكبي أن يخشى السلطان عبد الحميد أكثر مما يخشى الله

. . وسوف يندم الكواكبي كبيراً . . على هذا الخطأ . .
من الآن سوف يصير الكواكبي فى علم الغيب . .
لله أمرك يا كواكبي . . لله أمرك . وللسلطان !

الآستانة ١٩٠١

قصر السلطان

كتاب الكواكبي قيد البحث . من الناحية المبدئية يمنع الكتاب — وأى كتاب آخر للكواكبي — من التداول . أمر سلطانى يبلغ إلى جميع الولايات فى الإمبراطورية العثمانية . . هنالك عقوبات أخرى فى الطريق .

إن الكواكبي هاجم السلطان بهدوء . إذن . . سيعاقبه السلطان بهدوء أيضاً . عقاباً صارماً .

إن السلطان هو الذى يبحث المسألة . . شخصيًّا . هذا طبيعى . فنى السجن تستطيع أن تجد دائماً أن أكثر الناس قلقاً . . هو السجان . إن السلطان مرتعش ، مرتعد ، خائف . إنه خائف على نفسه . على سلطته . إنه مهزوم أمام الدول الأجنبية ، مهزوم أمام العدو الأجنبي ، فلا أقل من أن ينتصر على مواطنيه كبديل وتعويض . إن السيف وحده هو الذى يضمن له الانتصار على مواطنيه . السيف هو السلاح الوحيد الذى يجعل السلطان مطمئنًّا على سلطته . إن السيف مخيف . وصاحبه خائف . وعندما يخاف السلطان — عندما يخاف من مواطنيه — فإنه يطلب راحة وليس نقداً . صمتاً وليس فكراً . إن أى صوت يهز أمنه . . وأى هزة تقلب سفينته . ولأن الرياح عاتية ، والسفينة مملوءة بالثقوب . . تتسرب المياه إليها . إن العدو أصبح الآن داخل السفينة . العدو الآجل هو شعب بأكمله . والعدو العاجل هو كتاب بمفرده . إذا كان الكواكبي قد أصدر هذا الكتاب متنكراً . . فإن السلطان سوف يعاقبه متنكراً

أيضاً . . إذا كان الكواكبي يملك قلماً ، فإن السلطان يملك سيفاً إن القلم يكتب ، يناقش ، يرد ، يعترض . ولكن السيف لا يناقش لايفكر . إنه يقتل . فقط .

وبالنسبة للكواكبي لم يكن السؤال هو : أيعاقبه السلطان أم لا ؟ سيعاقبه . ليس السؤال : أيكون العقاب خفيفاً أم حازماً؟ . . سيكون حازماً . ليست المشكلة : أيكون العقاب بطيئاً أم سريعاً ؟ . سيكون سريعاً . ولكن السؤال هو : كيف يكون هذا العقاب ؟ كيف يتم العقاب فى صمت وحذر . . وبغير أى دليل يشير إلى فاعله ؟ كيف . . كيف . . . . .

الإسكندرية ١٩٠٢

قصر الخديو عباس

« . . يا كواكبي ، أريد أن أستشيرك فى أمر يخصك . إننى أستعد للسفر إلى الآستانة لأجدد فروض الطاعة لمولانا السلطان . . لماذا لا تحضر معى لاستجلاب رضا السلطان عنك ؟ » . .

هذه هى الفكرة التى قالها الخديو عباس للكواكبي عندما استدعاه فى الإسكندرية . لقد خرج الكواكبي من القصر وهو يحس شيئاً مريباً فى الأمر . لايمكن أن تكون هذه فكرة الخديو. لايمكن أن تكون الفكرة بهذه البساطة .

وعندما سأل الكواكبي صديقه محمد كرد على عن رأيه قال له : إن السلطان لاتأخذه رحمة بالذين يخرجون عليه . لقد أغرى جمال الدين الأفغانى من قبل بالذهاب إلى الآستانة . وحينما ذهب الأفغانى اكتشف أنها خدعة . إن السلطان جاء به إلى الآستانة ليراقبه .. ليحد من نشاطه ليجعله حياً كالميت .

و . . اعتذر الكواكبي عن عدم السفر مع الخديو إلى السلطان . . إذن . . لم تنجح هذه الحيلة .

القاهرة ١٩٠٢

مقهى يلدز . حديقة الأزبكية

ـ يا كاظم ؟ هات لى كوباً من الماء ! بسرعة يا ولدى . . !
ـ ماذا بك يا أبي ؟
ـ لا شيء يابني . . مجرد آلام بسيطة . . هات لى الخنطور . . أريد أن أعود إلى البيت . . إلى الأزهر يا أسطى . . إلى شارع الإمام الحسين بالأزهر .

وفى الطريق كان الابن قلقاً والأب يفكر كثيراً . . « . . ماذا جرى لك يا كواكبي ؟ لقد اعتدت أن تجلس فى مقهى يلدز منذ سنتين . واعتدت أن تشرب فيه القهوة السادة فى كل مرة . . لماذا ؟ . . لماذا ؟ . لماذا إذن كانت القهوة غريبة المذاق هذه المرة ؟ . . لماذا يا كواكبي ؟ . . إن الفنجان كان طعمه غريباً . . وهذه الآلام حلت بك بعد فنجان القهوة بنصف ساعة فقط . . ماذا جرى ؟ . . اللهم اجعله خيراً ! »

حى الأزهر

شارع الإمام الحسينى

الخميس ١٤ يوليو ـ ١٩٠٢

بمجرد وصول الكواكبي إلى منزله فى هذا المساء بدأت الآلام تطارد جسمه جزءاً جزءاً . . من الأمعاء إلى القلب ، إلى الصدر . بعد قليل أصبح واضحاً بالضبط ماذا جرى . بعد قليل أصبح كاظم ـ ابنه ـ

يعرف بالضبط سر الخطر . ولكن الابن يتساءل بينه وبين نفسه . . لماذا اختار السلطان ، أن يقتل الكواكبي بالسم . . وليس بأى سلاح آخر ؟

ولم تكن الإجابة صعبة. إن الكواكبي فضح فى كتابه استبداد السلطان جزءاً جزءاً . لهذا أراد السلطان أن يجعل جسم الكواكبي يموت قطعة قطعة .

إن السم وحده يضمن ذلك . . إنه الآن يسرى فى جسم الكواكبي بوصة بوصة . . إن الكواكبي كان جريئاً . .إن جرأته كانت فى عقله . الآن يجرى السم فى دمائه . هذا عقاب السلطان . عقاب تحت الجلد . عقاب بطىء . وعذاب بطىء .

إن الكواكبي يحاول الآن أن يتحدث مع كاظم ، مع ابنه . إنه يقول له بصوت عال يتجه إلى الانخفاض شيئاً فشيئاً : يا بنى .. استدع لنا طبيباً فوراً . . دكتور . . بسرعة . دكتور بسر . . دكتور . . . دكتو . . . مات الكواكبي .

حى الأزهر

منزل المرحوم الكواكبي

اليوم التالى لدفنه

شىء غريب ! كيف استطاع السلطان عبد الحميد – وهو فى قصره بالآستانة – أن يعلم بوفاة الكواكبي بمثل هذه السرعة . كيف استطاع خبر تمام المهمة أن يصل إليه فى مثل هذا الوقت الضيق ؟

لقد أرسل السلطان إلى مندوب له فى بيروت بأن يهبط سريعاً إلى القاهرة . هناك سيجد أن الكواكبي قد مات . هناك سيقابل أناساً آخرين يمثلون السلطان . إن على الجميع أن يذهبوا فوراً – مع أقصى الحذر – إلى بيت الكواكبي . إن السلطان يريد مصادرة كل الأوراق التى كتبها الكواكبي بخط يده. هذه الأوراق يجب أن ترسل فوراً إلى السلطان

عبد الحميد شخصياً فى قصر يلدز بالآستانة . السلطان نفسه ينتظرها . سلطان فى الوحل .

إن المهم . . هو السرعة ، قبل أن يظهر أى دليل يشير إلى علاقة السلطان بوفاة عبد الرحمن الكواكبى . ولكن . عندما ذهب جنود السلطان إلى بيت الكواكبى بعد يوم واحد من دفنه . . وجدوا مفاجأة جديدة فى انتظارهم .

فمن بين الأوراق والكتب التى تركها الكواكبى بعد وفاته كان هناك كتاب قد بدأ تأليفه . . ولم ينته منه بعد . كتاب يحمل عنواناً بسيطاً . عنواناً يقول :

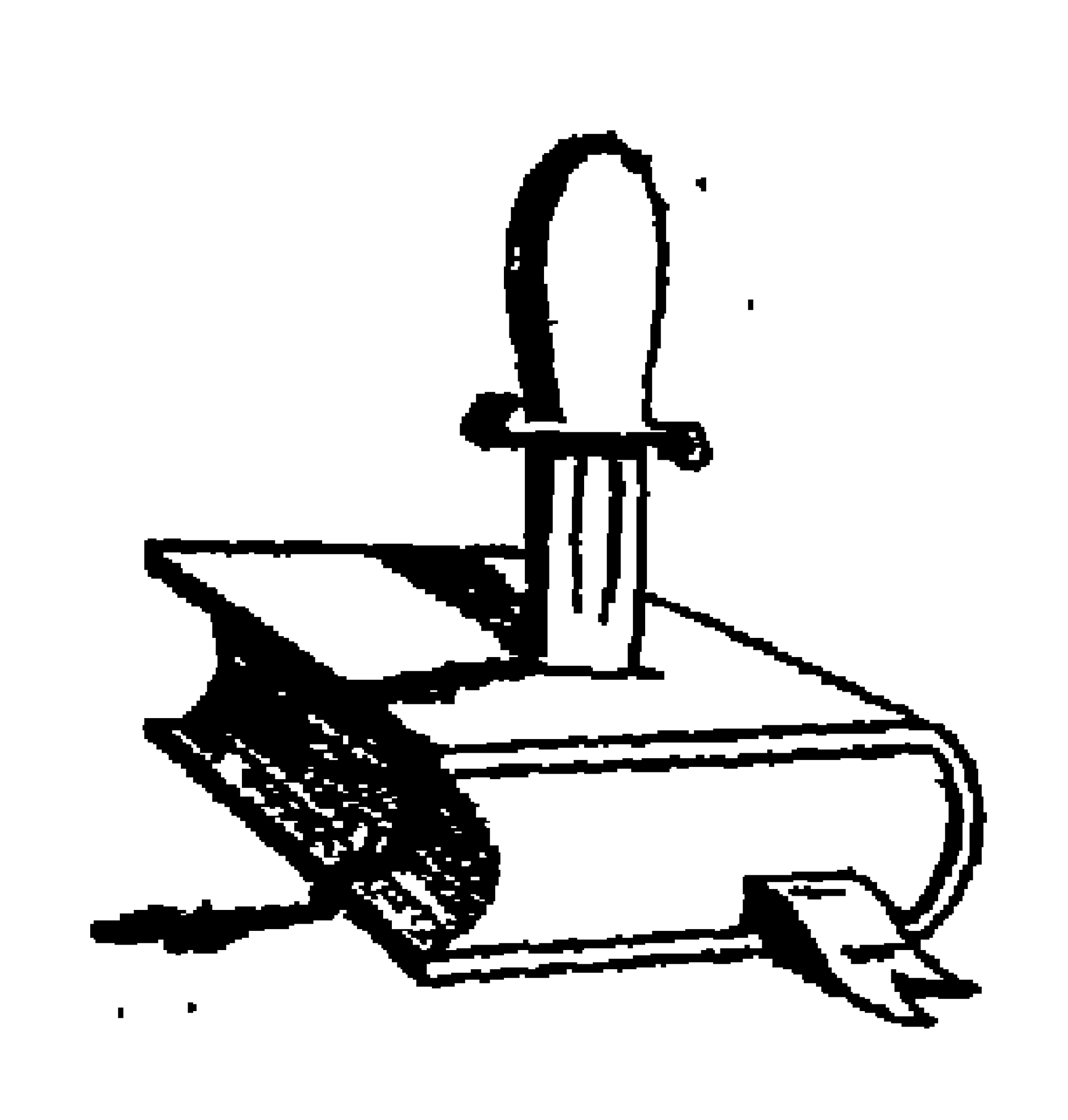
« العظمة لله » !

إن الكواكبى — حتى وهو ميت — ما زال محتفظاً برأيه . الله وحده هو العظيم . . الله وحده . . الله . .

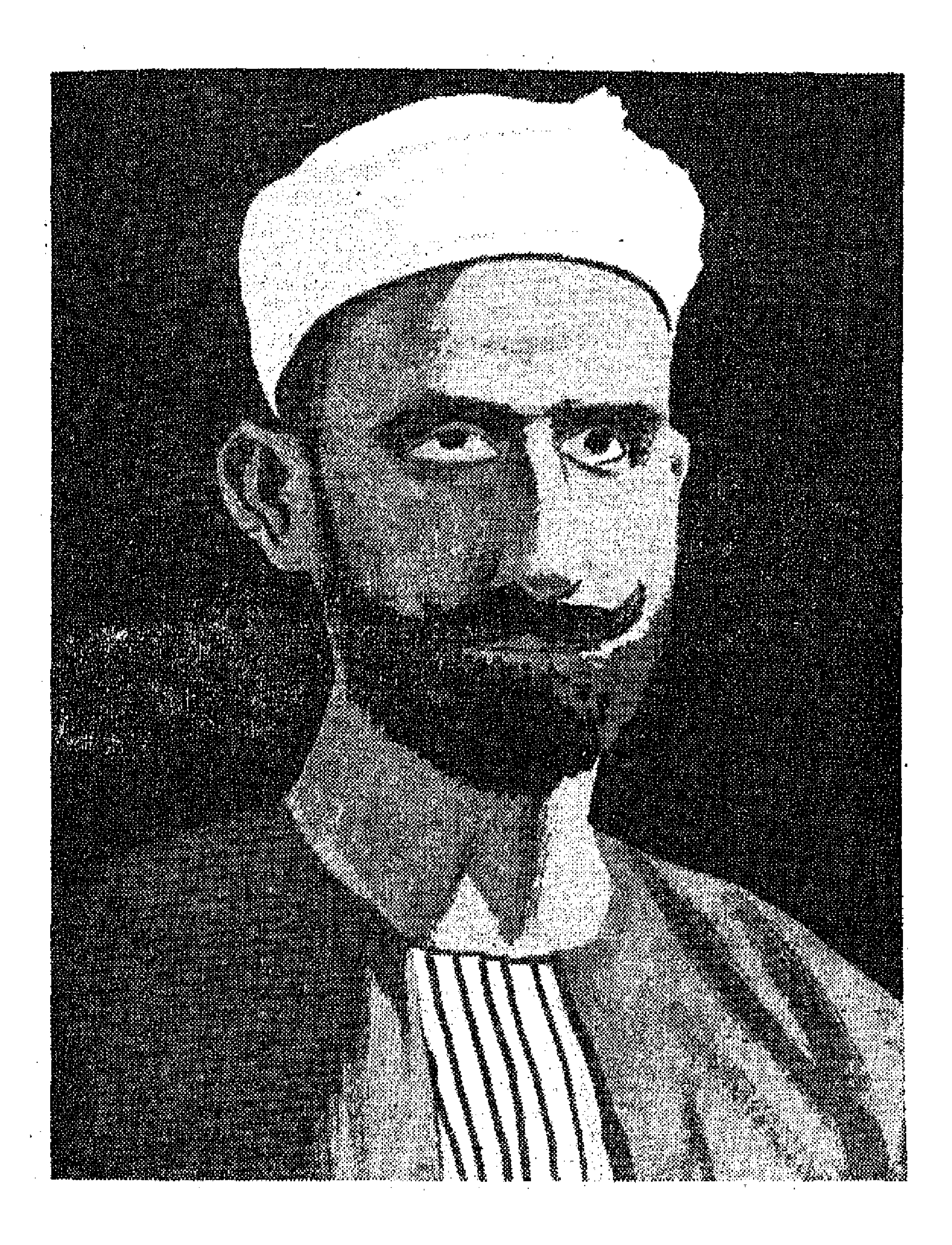
نعم يا كواكبى . .

لله العظمة . أما السلطان — السلطان الذى قتلك بالسم — فله شىء آخر . له . . الوحل !

* * *



على عبد الرازق



٥

شيخ .. ضد الكعبة !

يستطيع السلطان أن يضرب بالسيف . . ولكنه لايستطيع أن يجلس عليه !

يستطيع أن يخدع ، يطارد ، يعاقب ، يسجن ، يعتقل ، يشرد ، يعذّب ، يقتل . . ولكنه لايستطيع أن يضيف ملحقاً إلى عمر استبداده . عمر قصير .

إن السلطان العثمانى عبد الحميد — خليفة المسلمين عبد الحميد — سرق ونهب وهدد ونفى وحكم وأعدم مئات الآلاف من مواطنيه . وفى النهاية كان هناك شيء واحد أقوى من كل أسلحته . شيء واحد . . كلما حرص السلطان عليه ، أصبح يفلت منه . شيء واحد كان السلطان يسعى إليه : الزمن . وشيء واحد كان يرتعد منه : الزمن !

إن السلطان كان يسعى — بالإرهاب — إلى زيادة أيام سلطته سنة ، شهراً ، يوماً ، خمس دقائق او لزم الأمر . لكن — مع كل رأى كان السلطان يعدمه كان عمره فى السلطنة والخلافة ينقص ولو حتى دقيقة واحدة !

وبينما كان السلطان يتجسس على رعاياه ، وبينما كان سيفه مشغولا بإعدام معارضيه ، وبينما هو يتوقع الخطر من كل مكان سوى ما تحت أقدامه . . وقع التغيير .

لقد استطاعت الثورة فى تركيا أن تخلع عبد الحميد — كسلطان وخليفة للمسلمين . وخلال السنوات الخمس عشرة التالية كانت

الثورة قد خلعت ثلاثة سلاطين آخرين خلفوه . . إلى أن أصبح فى السلطة أخيراً : خليفة المسلمين عبد المجيد . لقد عينته الثورة بلا سلطات . ومن الآن فصاعداً أصبح محرماً عليه التدخل فى السياسة .

ولقد ظلت الثورة فى تركيا تخلع سلطاناً وتعين بدلا منه ، إلى أن قررت فى إحدى الليالى أن تتخذ الخطوة الحاسمة . خطوة أجلتها الثورة طويلا .

كانت الثورة فى تركيا تحكم بزعامة الضابط التركى مصطفى كمال .

وفى ليلة ٣ مارس سنة ١٩٢٤ أصدر برلمان الثورة قراراً . . سرعان ما وقعه مصطفى كمال ، وطلب تنفيذه فوراً . كان القرار بسيطاً وحاسماً : إلغاء منصب الخلافة نهائياً . خلع السلطان عبد المجيد خليفة المسلمين . طرده من تركيا مع كل أسرته قبل الخامسة صباحاً .

وعلى الفور حمل قائد الشرطة القرار فى يده وتوجه إلى مقر الخليفة . قصر السلطان عبد المجيد .

وعندما قال الخدم لقائد الشرطة : إن الوقت ليل . . والخليفة نائم . . رد قائد الشرطة : أيقظوه . . أيقظوه فوراً .

نعم . كان هذا قرار الثورة . إذا كان خليفة المسلمين قد نام فإن الثورة لا تنام . إذا كان لم يمهل ضحاياه من قبل ، فإن الثورة لن تمهله الآن .

وعندما استيقظ الخليفة بعد دقائق كان مجرد شبح . منذ سنة وهو شبح . إنه نصف نائم ، نصف متيقظ ، نصف خائن ، نصف قلق ، نصف متردد ، نصف شاحب ، نصف مرتعد ، نصف شبح . إن الثورة لاتريد أنصاف أشباح ، ولا هى تؤمن بأنصاف حلول : على السلطان — على الخليفة ، أن يحمل ثيابه فوراً حتى تقذف به الثورة خارج الحدود . أى مكان . . ولكن خارج الحدود .

وبدأ السلطان يتهته ويستغفر ويسترحم ويرجو ويتوسل . لا .

وقبل الفجر كانت الشرطة قد حملت الخليفة وحريمه فى سيارته إلى محطة سكة الحديد . من هناك قذفوا به القطار فى المتجه إلى سويسرا .

لقد خرج الخليفة من إستانبول فى يوم ثلاثاء . نفس اليوم الذى دخل فيه أجداده إلى العاصمة التركية كغزاة . إنه اليوم فى حال غير الحال ... وعصر غير العصر . . كان غازياً . . فأصبح طريداً . كان فاتحاً . . أصبح منفيًّا . كان مستبدًّا . . أصبح ذليلا . إنه يسافر إلى غير رجعة . يسافر لأول مرة بغير حاشية تحيط به . لا أصحاب عزة ولا أصحاب رفعة ولا ضباط ولا وزراء ولا بطانة ولا حاشية . مجرد سلطان . مجرد خليفة سابق . . مع زوجاته وحقائبه .

وكأنما كتب على هذا الخليفة التركى – آخر خليفة بعد ألف سنة – أن يشرب حتى الثمالة كأس الذل التى أذاقها لمواطنيه . فعند الحدود السويسرية توقف القطار . .

– ما الخبر ؟

– ممنوع دخولك سويسرا .

– لماذا ؟

– لأنك متعدد الزوجات . والقانون هنا يمنع دخول متعددى الزوجات .

– ولكننى سلطان . والسلطان فوق القانون .

– من الآن سوف تصبح تحته !

– إننى خليفة المسلمين . .

– لقد أصبحت خليفة . . بلا مسلمين .

– ولكننى كنت خليفة . .

– أنت الآن خليعة . . ولست خليفة !

– والعمل ؟

– عد إلى بلادك . .

– بلادى طردتنى . . نفتنى فى منتصف الليل .

— إذن . . نعطيك تصريحاً مؤقتاً بالدخول .

— مؤقتاً . . إلى متى ؟

— إلى أن نستعلم عن حالتك الاجتماعية . . وعن عدد زوجاتك بالضبط

هكذا خرج آخر خليفة عثمانى من تركيا . . بعد ليلة تاريخية شهدتها مدينة إستانبول . إن الخليفة — بتنفيذه لقرار الثورة فى تلك الليلة — استطاع أن ينقذ حياته . ولكن . . ليس أكثر من حياته . فى تلك الليلة لم يمت أحد . الخلافة فقط .

* * *

ومن اليوم التالى مباشرة بدأ اللعاب يسيل . لعاب الملك فؤاد فى القاهرة ، ولعاب الحكومة البريطانية فى لندن . لقد أصبح العالم الإسلامى — لأول مرة منذ ألف سنة — بلا خليفة . لقد أعلن مصطفى كمال قيام الجمهورية فى تركيا وفصل الدين عن الدولة ، ورفض أن يتحول هو نفسه إلى خليفة آخر . ولكن الملك فؤاد لايرفض . . بالعكس . . إن لعابه يسيل الآن على اللقب الرنان « خليفة المسلمين » . كما أن بريطانيا هى الأخرى بدأت تكتشف أن من مصلحتها تشجيع فؤاد على ذلك . إن فؤاداً كان بالنسبة لها حتى عشر سنوات مضت تابعاً بدرجة سلطان . موظفاً بدرجة سلطان . . ثم أصبح منذ سنة موظفاً بدرجة ملك . لماذا لايصبح فؤاد إذن موظفاً بدرجة خليفة ؟ ! إن الترقية سوف تجعل فؤاداً خليفة بالنسبة لشعبه فقط . . ولكنها لن تغير وضعه كتابع لبريطانيا التى تحتل مصر ، وتتطلع إلى أجزاء أخرى فى الوطن العربى . . وإذا كان السلاطين العثمانيون قد استخدموا « يافطة » الخلافة لحسابهم الخاص طوال خمسة قرون . . فإن بريطانيا أصبحت تريد ذلك الآن لحسابها هى . . ومن باطن الملك فؤاد . لهذا فبعد أن حصل الملك فؤاد على النور الأخضر من رؤسائه فى لندن . . أضاء النور الأخضر لمرؤوسيه فى القاهرة . المطلوب : مبايعة الملك فؤاد خليفة على المسلمين . . . . .

ونظراً لأن الملك فؤاد لا يستطيع الحصول على هذه المبايعة بحد السيف – كما كان الوضع بالنسبة الكل خليفة من قبله – فإنه لم يبق أمامه غير الإقناع . وحتى لا يحمل الإقناع شبهة المطامع الشخصية ، استقر الرأى على أن يقوم الأزهر بالدعوة إلى مؤتمر إسلامى فى القاهرة .
الهدف الظاهرى : بحث موضوع الخلافة بعد سقوطها من تركيا .
الهدف الحقيقى : إقناع ممثلى الأقطار الإسلامية بمبايعة الملك فؤاد خليفة للمسلمين .

وعلى الفور شكلت لجان من بعض رجال الدين – تحت إشراف شيخ الجامع الأزهر – بهدف الاتصال بمندوبى الأقطار الإسلامية إلى المؤتمر ، بهدف الترويج لفكرة الخلافة ولأهمية المؤتمر بين الشعب المصرى . وعند هذا الحد فإن الشيخ الأحمدى الظواهرى – شيخ الأزهر فيما بعد ورئيس إحدى تلك اللجان حتى الآن – يكتب فى مذكراته : «لم يكن التمهيد لانعقاد مؤتمر الخلافة بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع أمم الإسلام أمرا بسيطاً هيناً كما ظن علماء الأزهر فى بادئ الأمر . فقد امتد زمن الدعوة إليه من سنة سقوط الخلافة فى إستانبول إلى عام ١٩٢٦ عندما عقد المؤتمر فعلا فى القاهرة . . أما سبب التأخير فيرجع إلى أنه قد دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم فى الأمم الإسلامية الأخرى شكوك من جهة مصر . فقد ظنوا أن علماء الأزهر ، إنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذى يدعون إليه أمراً آخر له باطن غير ظاهره . وأنهم إنما يثيرون مسألة حماية الخلافة . . لا خوفاً على الخلافة وإشفاقاً على كلمة الإسلام كما يدعون ، بل لغرض آخر . . هو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين وفى رأس التين » .

هكذا إذن فاحت رائحة الدوافع السياسية فى موضوع الخلافة من

بعيد . . لم يكن السؤال : ماذا ؟ . . ولكن السؤال هو : من ؟ لمصلحة من ؟ هذه هى القضية .

* * *

وعند هذه النقطة لم يكن أحد يدرى بعد بما يفعله شيخ شاب فى مدينة المنصورة ، شيخ اسمه على عبد الرازق . إن هذا الاسم لم يكن يعنى بالنسبة لمشايخ الأزهر سوى أشياء محدودة . إنه يعنى فقط أن الشيخ على عبد الرازق ، هو واحد من أسرة عبد الرازق ، المشهورة بثرائها المادى والفكرى . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الاسم يعنى أيضاً أن صاحبه من خريجى الأزهر – من علماء الأزهر – ويعمل قاضياً شرعياً بمحكمة المنصورة . هذا كل ما يعنيه اسم على عبد الرازق بالنسبة للأزهر ، وبالنسبة للملك فؤاد . . حتى تلك الأيام المبكرة فى سنة ١٩٢٧ . .

فى تلك الأيام كان الشيخ على عبد الرازق يضع اللمسات الأخيرة فى كتاب جديد له – فى الواقع هو بحث أكثر مما هو كتاب . إن الشيخ على عبد الرازق – وهو يراجع الصفحات الأخيرة للكتاب – لم يكن يعلم أن كتابه هذا سوف يصبح أسطورة فى التاريخ السياسى الحديث لمصر . كتاب أسطورة . ولكنه ليس كذلك بعد . إنه الآن مجرد كتاب . مجرد صفحات يراجعها الشيخ على عبد الرازق فى منزله بالمنصورة ، قبل أن يرسلها إلى مطبعة مصر بالقاهرة .

إن على عبد الرازق يراجع صفحات كتابه بدقة متناهية . إنه يعلم أنه يكتب فى موضوع خطير . يعلم أنه أول من يجرؤ على الكتابة فى هذا الموضوع . يعلم أنه بمجرد أن يخرج الكتاب من يده . فإنه لن يستطيع تعديله ولا التراجع عنه . لهذا يختار كلماته بحرص ويحدد أدلته بدقة وحيث يحتاج الأمر إلى دليل واحد فإنه يقدم عشرة ، ليس أقل من عشرة ، حتى لا يكون فى رأيه محل لشك .

لقد اختار الشيخ على عبد الرازق عنواناً محدداً لكتابه . .العنوان هو « الإسلام وأصول الحكم – بحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام » .
من هنا يبدأ المؤلف فى شرح الخلافة وطبيعتها . إنه يرى أن الخلافة هى عند معظم المسلمين « . . رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم ». فالخليفة له على المسلمين « الولاية العامة ، والطاعة التامة ، والسلطان الشامل » . وبناء على ذلك أصبح السلطان هو : « خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضاً حمى الله فى بلاده ، وظله الممدود على عباده » . إن ولايته على المسلمين عامة ومطلقة . إنه وحده « له الأمر والنهى وبيده وحده زمام الأمة ، وتدبير ما جل من شؤونها وما صغر . كل ولاية دونه فهى مستمدة منه وكل وظيفة تحته فهى مندرجة فى سلطانه ، وكل خطة دينية أو دنيوية فهى متفرعة عن منصبه ». إنه يحكم بغير شريك ولا نائب. إن قراراته لا تخضع للمراجعة أو الحساب .

وعندما يراجع على عبد الرازق آراء علماء المسلمين فى ذلك يجد أنهم انقسموا إلى مذهبين : فريق يرى أن الخليفة يستمد سلطته من الله تعالى ، فهو ظل لله وحاكم بأمره . هذا الفريق هو الأغلبية . ثم هناك فريق آخر – أقلية هذه المرة – يرى أن الخليفة يستمد سلطانه من الأمة . . بحيث تصبح هى مصدر قوته . .

ثم يتساءل على عبد الرازق : ما هو سند الخلافة ؟ هل هو القرآن ؟ السنة ؟ إجماع المسلمين ؟ إنه مبدئيًّا يقرر أن القرآن والسنة لم يتعرضا مطلقاً لموضوع الخلافة . إن الخلافة ليست – ولم تكن قط – حكماً من أحكام الدين الإسلامى . كما أن الإجماع – أى اتفاق المسلمين – لم ينعقد قط على خليفة . بل إن التاريخ الإسلامى لا يكاد يعرف خليفة إلا وعليه خارجون ومتمردون .

إذن . . ما هو سند الخلافة ؟ ما زال السؤال قائماً .

يقول على عبد الرازق : « إن الخلافة فى الإسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة وإن تلك القوة كانت — إلا فى النادر — قوة مادية مسلحة . فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه إلا الرماح والسيوف ، والجيش المدجج والبأس الشديد ، فبتلك دون غيرها يطمئن مركزه ، ويتم أمره . .

« . . قد يسهل التردد فى أن الثلاثة الأول من الخلفاء الراشدين مثلا شادوا مقامهم على أساس القوة المادية ، وبنوه على قواعد الغلبة والقهر ، ولكن أيسهل الشك فى أن علياً ومعاوية رضى الله عنهما لم يتبوءا عرش الخلافة إلا تحت ظلال السيف ، وعلى أسنة الرماح ، وكذلك الخلفاء من بعد إلى يومنا هذا . . » .

ثم يضرب على عبد الرازق مثلا بقصة مبايعة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان للخلافة . لقد وقف أحد المبايعين خطيباً فى الحفل وقال : « أمير المؤمنين هذا » ، وأشار إلى معاوية . . « فإن هلك فهذا » وأشار إلى يزيد « . . فمن أبى فهذا » ، وأشار إلى سيفه . .

إن على عبد الرازق يرى أن النظرة الدينية إلى الخلافة قد دفعت الحكام إلى الاستبداد والظلم . وسهلت عليهم العدوان والبغى . لهذا فإنه « . . ليس بنا من حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا . ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك ، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين » . .

* * *

فى هذه السطور الأخيرة لخص على عبد الرازق القسم الأول من رأيه . ما زال هناك قسم ثان . إنه يخصص هذا القسم لبحث مكان الحكومة فى الدين الإسلامى . .

إنه يتساءل : أكان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً . . أم كان نبياً وزعيماً سياسياً ؟ إنه يسجل مبدئياً أن هذا الموضوع لم يناقشه أحد من قبل بصراحة . ولكن المسلم العامى يعتقد — مع ذلك — أن النبى

كان ملكاً رسولا . . وأنه أسس بالإسلام دولة سياسية مدنية . . كان هو ملكها وسيدها . هل هذا صحيح ؟

يقول على عبد الرازق : إن النبي لم يكن إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين . . لاتشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة . بكلمات أخرى : إن محمداً نبي . . فقط . إنه لم يكن ملكاً ، ولا حاكماً ، ولا زعيماً سياسيًّا . إن الفرق بين الاثنين خطير . لأن سلطة محمد ـ النبي ـ هى سلطة دينية ، يستخدمها فى سبيل الله والدين . أما سلطة محمد ـ الزعيم السياسى ـ فهى سلطة سياسية يستخدمها فى سبيل الناس والدنيا . حاشا لله . إن محمداً لم يكن قط كذلك. لم يكن مطلقاً زعيماً سياسيًّا . إن القرآن صريح فى منعه النبي من أن يكون حفيظاً على الناس ولا وكيلاً ، ولا جباراً ، ولا مسيطراً . إنه ـ حتى ـ ليس من حقه أن يكره الناس على الإيمان بالإسلام . لهذا كان النبي يكرر دائماً للمؤمنين : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

وإذا كانت زعامة النبي إذن زعامة أساسها الدين لاالسياسة ، فإن هذه الزعامة ـ يقول على عبد الرازق ـ قد انتهت بموته ، وليس لأحد من بعده أن يخلفه فى زعامته . لايصح . لايجوز .

إن الصحيح إذن أن الزعامة التى توجد بعد النبي هى زعامة أخرى . زعامة من نوع جديد . زعامة مدنية سياسية . زعامة الحكومة والسلطان . . وليست زعامة الدين . زعامة سوف تبحث من الآن فصاعداً فى مملكة تقيمها ، ودولة تشيدها . . وحكومة تنشئها . زعامة سوف تهتم بالدين ـ صحيح ـ ولكنها سوف تهتم أيضاً بالإمارة والأمراء . بالوزارة والوزراء . بالقوة والسيف . . بالدنيا والناس . . بالجاه والثروة . .

والسؤال الآن : لماذا أصر الحكام بعد وفاة النبي وطوال ألف سنة ـ على استخدام لقب « الخليفة » وهم يقصدون بذلك « خليفة رسول الله » ؟

يقول على عبد الرازق إن السبب كان يرجع فى البداية إلى أن هذا اللقب له روعة . . وفيه قوة . . وعليه جاذبية . . كان الحكام الأوائل فى حاجة إليها لتدعيم الدولة الإسلامية الناشئة .

ولكن . . سرعان ما اختفى هذا السبب وحل محله سبب جديد . لقد أصبحت لسلاطين المسلمين مصلحة سياسية فى استخدام هذا اللقب بمعناه الدينى فى أغراض سياسية . لهذا استطاع السلاطين أن يروجوا بين المسلمين أن « طاعتهم من طاعة الله . . وعصيانهم من عصيان الله » . هذا كذب . هذا افتراء ولكن « تلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين ، أضلوهم عن الهدى ، وعموا عليهم وجوه الحق ، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين ، وباسم الدين أيضاً استبدوا بهم ، وأذلوهم وحرموا عليهم النظر فى علوم السياسة . . وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم . . وضيقوا عليهم أيضاً فى فهم الدين ، وحجروا عليهم فى دوائر عينوها لهم ، ثم حرموا عليهم كل أبواب العلم التى تمس شئون الخلافة . .

« كل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين . . فأصيبوا بشلل فى التفكير السياسى ، والنظر فى كل ما يتصل بشأن الخلافة والخلفاء » .

* * *

إلى هنا أصبح رأى على عبد الرازق واضحاً تماماً : لا خلافة فى الإسلام . هناك دين . . وهناك سياسة . هناك إسلام . . وهناك سلطان . إن السلطان يستخدم الدين دائماً لخدمته . . هذه سياسة . هذه جريمة . . هذه جناية . جناية على الدين لمصلحة السياسة . إنها جناية يجب أن يحاسب عليها ملوك المسلمين وسلاطينهم ولا يحاسب عليها الدين الإسلامى نفسه . .

منتهى الوضوح . منتهى الجرأة . ولكنها ليست منتهى الكتاب . ليست بعد .

إن على عبد الرازق بعد أن كشف طبيعة الدين . . وموقف الدين من الخلافة . . اتجه إلى نقطة أخرى : طبيعة الملوك أنفسهم . الآن انتهى الدين فى كتاب على عبد الرازق . انتهى الدين . . وبدأت السياسة . .

يقول الشيخ فى كلمات من نار « إن ذلك الذى يسمى عرشاً لا يرتفع إلا على رؤوس البشر ، ولا يستقر إلا فوق أعناقهم ، وإن ذلك الذى يسمى تاجاً لا حياة له إلا بما يغتال من قوتهم ، ولا عظمة له ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم . .

« إن الغيرة على الملك تحمل الملك على أن يصون عرشه من كل شىء قد يزلزل أركانه أو ينقص من حرمته أو يقلل من قدسيته . لذلك كان طبيعياً أن يستحيل الملك وحشاً سفاحاً وشيطاناً مارداً . . إذا ظفرت يداه بمن يحاول الخروج عن طاعته وتقويض كرسيه . .

« وإنه لطبيعى كذلك فى الملك أن يكون عدواً لدوداً لكل بحث ولو كان علمياً يتخيل أنه قد يمس قواعد ملكه ، أو تهب من تلقائه ريح الخطر ، ولو كان بعيداً . .

« من هنا نشأ الضغط الملوكى على حرية العلم ، واستبداد الملوك بمعاهد التعلم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

ولا شك أن علم السياسة هو من أخطر العلوم على الملك ، بما يكشف من أنواع الحكم وخصائصه وأنظمته إلى آخره . . لذلك كان حتماً على الملوك أن يعادوه وأن يسدوا سبيله على الناس . .

« إن هذا هو السبب فى أن حظ العلوم السياسية كان عند علماء المسلمين أسوأ حظ ، وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود ، فلسنا نعرف لهم مؤلفاً فى السياسة ولا مترجماً . . ولا نعرف لهم بحثاً فى شىء من أنظمة الحكم ولا أصول السياسة اللهم إلا قليلا » .

نعم . هذا هو السبب . الملوك هم السبب . السلطة هى السبب . الاستبداد هو السبب . محاربة الملوك لحرية الفكر هى السبب .

* * *

الآن ، بعد أن انتهى على عبد الرازق من كتابه ، أصبح واضحاً تماماً ما يريده . لقد قام الشيخ على بتعرية الخلافة من قناعها الديني . لقد فضح أساليب السياسة فى استخدام الدين لحساب أغراضها . لقد كشف دور الملوك فى استغلال الدين والخلافة معاً . . ضد الحرية والتفكير والعلم .

الآن انتهى الشيخ على عبد الرازق من تأليف كتابه . لم يعد أمامه سوى كتابة المقدمة . بعدها سوف يبدأ طبع الكتاب فوراً فى القاهرة . .

ولأن على عبد الرازق يعلم أن فى مصر ملكاً ... ملكاً يسعى للخلافة .. ملكاً يسعى للخلافة الآن — الآن أكثر من أى وقت مضى — لهذا كله . . ولأسباب أخرى كثيرة . . اختار المؤلف سطرين محددين يقدم بهما كتابه . سطرين يقولهما المؤلف لنفسه بصوت عال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا أعبد إلا إياه ، ولا أخشى أحداً سواه . له القوة والعزة ، وما سواه ضعيف ذليل . . .

المنصورة فى يوم الأربعاء ٧ رمضان سنة ١٣٤٣هـ أول أبريل سنة ١٩٢٥ م .

* * *

بعد هذا السطر ، أرسل على عبد الرازق كتابه إلى المطبعة ، ثم عاد يستأنف حياته العادية فى المنصورة : يصلى ، يقرأ ، يحكم بالعدل ، ويعيش فى هدوء .

ولكن الهدوء سوف يستمر فى حياة علي عبد الرازق حتى الساعة العاشرة والربع فقط من صباح يوم ١٥ يونيو .

ثم : الجحيم

٦

شيوخ.. ضد الشيخ!

« . . يقول العبد الفقير إلى مولاه ، الغنى بفضله عمن سواه ، محمد بن نجيب المطيعى الحنفى : قد ظهر فى هذا الزمان كتاب اسمه (الإسلام وأصول الحكم) نسب تأليفه إلى الشيخ على عبدالرازق القاضى بمحكمة المنصورة الشرعية حالا ، فاطلعت عليه . فوجدنا أنه لم يذكر فى كتابه هذا رأياً إيجابياً ينسبه لنفسه ويقيم عليه البرهان . بل كل ما قاله فى هذا الكتاب قضايا سالبة وإنكار محض لما أجمع عليه المسلمون أو نص عليه صريحاً فى الكتاب العزيز أو السنة النبوية ، واستند فى إنكاره إلى السفسطة العقلية والآراء الظنية والأدلة الشعرية ، مع أن تلك المسائل التى أنكرها وأنكر أدلتها مسائل فقهية شرعية لايجوز الخوض فيها بمجرد العقل » .

هذه مقدمة واحد من الكتب الكثيرة التى بدأت تتدفق إلى أسواق القاهرة بسرعة عقب صدور كتاب على عبد الرازق . كتب تهاجم — تهاجم كلها — بقسوة . . بعنف . . بغير رحمة . إن كتاب على عبد الرازق يدافع عن الدين ضد السياسة . ولكن الكتب التى تهاجمه تستغل الدين لمصلحة السياسة . إن على عبد الرازق قال إن الخلافة ليست ديناً . . إن السلطان هو موظف مدنى . . إن الملوك استبدوا بالمسلمين. الآن . . سوف تخرج الكتب سريعاً ضده لتقول إن الخلافة ركن من أركان الدين . . إن السلطان ظل الله على الأرض . . إن الملوك من حقهم أن يمارسوا القتل ويحكموا بالسيف ويستمروا بالإرهاب .

إن أول هذه الكتب التى خرجت تهاجم على عبد الرازق هو كتاب بعنوان ... (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) . تأليف « .. الأستاذ العلامة الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعى ، مفتى الديار المصرية سابقاً » . إن الألقاب رنانة .. والاسم ضخم .. والوظيفة السابقة ساحرة ، مفتى الديار المصرية .

وإذا كان المؤلف قد سبق له أن شغل وظيفة المفتى .. فإن هذا لا يعطى آراءه فى الكتاب أى وزن خاص .. ولا يجعلنا نعطى كتابه أية قيمة استثنائية . إن سلطة القاضى أو المفتى أو شيخ الإسلام هى بتعبير الشيخ محمد عبده « .. سلطة مدنية قررها الشارع الإسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره » .

لا حرج من المناقشة إذن .. ولا ضرر .

إن المفتى السابق الشيخ المطيعى — مبدئياً — يستغرب إصدار على عبد الرازق كتابه . إنه ينكر عليه أن يكون مسلماً « .. فضلا عن أن يكون عالماً وقاضياً بين المسلمين .. حاشا وكلا ، ثم حاشا وكلا » !

إنه يعتبر أن كتاب على عبد الرازق هو « .. كفر صريح يجب على قائله أن يتوب منه ليرجع إلى حظيرة الإسلام » . تهمة خطيرة سوف تلتصق من الآن فصاعداً بعلى عبد الرازق .

إن على عبد الرازق أخرج كتابه فى هدوء وكتبه بدقة ، وقدمه بمنطق ، ودعمه بالأدلة .. ولكن الكتب التى ترد عليه ليس فيها هدوء ولا دقة ولا منطق ولا أدلة . فيها أولا .. اتهامات . اتهامات شخصية تجريح شخصى .

إن الشيخ المطيعى يردد فى كتابه أكثر من مرة أن على عبد الرازق « طفل .. أعمى الله بصيرته .. أبله .. يعبث بالأمن العام .. يسعى فى الأرض بالفساد .. يطعن الملوك .. يعتدى على الأمة .. ظالم .. معاند .. كاذب .. ملحد .. كافر .. فاسق .. ! »

هذه مجرد عينة من قائمة الاتهامات الطويلة التى نشرها الشيخ نجيب المطيعى ضد على عبد الرازق فى كتابه . اتهامات لامناقشة فيها . لاموضوعية . مجرد تجريح شخصى .

بعد التجريح يقول الشيخ المطيعى : « . . إن الخلافة هى أكمل أنواع الحكومات » . إنها لم تكن سبباً فى نكبات المسلمين ، ولكن نكبات المسلمين « . . إنما جاءت على المسلمين من مخالفتهم ما تقتضيه الخلافة » . إن الخلافة هى – فى رأى الشيخ نجيب المطيعى « . . منصب شريف عظيم ونعمة كبيرة من نعم الله تعالى ، ونعم الله كالطيور إن أكرمت قرّت وإن أهينت فرّت » .

بل إن الشيخ يكتب بأسلوب خطابى « . . إن الخلافة الإسلامية هى الشبح المخيف الذى لو رآه أشجع رجل فى أوربا ، ولو فى منامه ، لقام فزعاً يرتجف قلبه ، وتعلوه رعدة كما ارتعد العصفور بلله القطر ، أوكما ارتعد المحموم خالطته البردة » !

لهذا يقول الشيخ إن « . . للمسلمين حاجة شديدة – لدينهم ودنياهم – إلى الخلافة » .

لماذا ؟ وكيف؟ ومن قال ذلك ؟

يقول الشيخ إن القرآن هو الذى أوجب قيام الخلافة . . كيف يا شيخ ؟ إلى أى نص فى القرآن تستند ؟

يردّ الشيخ بأنه « . . لايلزم أن يذكر القرآن لفظ الخلافة » وإنما يكفى أن يقول القرآن : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

هل هناك علاقة بين الخلافة وبين تلك الآية الكريمة ؟ نعم . . هناك علاقة . هكذا يقول الشيخ . يقول إنه طالما أن الآية تنص على « أولى الأمر » فإن هذا معناه أنه لابد للأمة الإسلامية من أن يكون لها ولاة أمور يقومون بأمورها الدينية والدنيوية . ثم إن ولاة الأمور مأمورون

بأن يسند كل واحد منهم كل ما يتعلق بأمور المسلمين لمن هو أهل له. بناء على هذا يصبح من الواجب على المسلمين « .. أن يجعلوا منهم حاكماً واحداً أو أكثر ليكون وكيلاً عنهم في أن يقوم بأمورهم الدينية والدنيوية ». وحيث إن تعدد الحكام يؤدى إلى الانقسام فإن هذا يدل « .. على أن الخليفة لابد أن يكون واحداً » .

كيف أقحمت كلمة « الخليفة » يا شيخ ؟ كيف خرجت بهذا التفسير العجيب ؟ لا إجابة !

إن الشيخ يقول فقط إن الخلافة واجبة . إن الخليفة لابد له من استخدام القوة . وحتى لو استخدم الخليفة قوته فى ظلم الناس فإن هذا ليس قرينة ضد الخليفة . . لأن الله سوف يحاسبه على ذلك فى الآخرة ! بل إن من حق الخليفة أن يجعل حكمه وراثياً مثلما فعل معاوية مع ابنه . . لأن هذا العمل من معاوية إنما كان « .. خوفاً من افتراق الكلمة » . إن معاوية هدد بالسيف للحصول على مبايعة ابنه ، ولكن الشيخ يعلن أننا يجب أن نثق بمعاوية وبأن هدفه كان بلا شك هدفاً نبيلا ، و « .. يجب ألا نظن فى معاوية غير ذلك .. حاشا لله لمعاوية » !

هكذا يدافع الشيخ عن الحكم الوراثى . عن الظلم . عن الإرهاب عن السيف . عن غيرة الملوك على عروشهم . إن على عبد الرازق قال فى كتابه إن غيرة الملوك على عروشهم كانت تدفع كلاً منهم إلى أن يستحيل وحشاً سفاحاً وشيطاناً مارداً .

ولكن الشيخ نجيب المطيعى يرد « .. لنفرض أن كل هذا قد وقع . ولكن .. مما لا شك فيه أن كل ذلك قد انطوى بساطه وعفت آثاره » . يعنى — يقول الشيخ — عفا الله عما سلف ! هناك استبداد ووحشية وإرهاب وقتل ، ولكن .. عفا الله عما سلف ! ليس هذا فقط ، بل إن الشيخ يحاول جرجرة على عبد الرازق إلى معركة صريحة مع الملك

فؤاد شخصيًّا فيقول متحدياً « . . ليذكر المؤلف لنا أمة من الأمم الإسلامية المتمدينة . . ملكها متصف بالأوصاف التى وصف بها المؤلف الملوك . . . . وهل يمكن للمؤلف أن يأتينا بملك فى هذا العصر وما قبله من مائة سنة من ملوك الأمم المتمدينة ضغط على حرية العلم واستبد بمعاهد التعلم أو ضغط على علم السياسة ؟ . . . لاشك أنه إذا حاول أن يبحث بكل ما أوتيه من قوة — وظاهره على ذلك عمال جريدة السياسة وكل ملحد على وجه الأرض وكل اشتراكى وكل شيوعى وكل بلشفى — ما وجد إلى ذلك سبيلا » .

إن الشيخ يدافع إذن عن كل الملوك — خصوصاً فى السنوات المائة الأخيرة — ومن بينهم طبعاً السلطان العثمانى عبد الحميد الذى كان نموذجاً لعصره فى الاستبداد .

والشيخ يتهم على عبد الرازق بأنه اشتراكى وأن من يؤيده لابد أن يكون عاملا فى جريدة « السياسة » الناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين ، أو يكون ملحداً أو اشتراكيًّا ، أو شيوعيًّا ، أو باشفيًّا .

هكذا — بهذا الأسلوب وتلك اللهجة — ينطلق الشيخ نجيب المطيعى فى كتابه ضد على عبد الرازق ، إنه يستنكر من على عبد الرازق الدعوة إلى تقييد سلطات الملوك أو محاسبتهم ، فيقول متسائلا : « . . أيريد المؤلف أن يكون الناس فوضى لا ملك لهم ولا رئيس . . أم يريد أن الملك يترك ملكه لمن يعبث به ، ويترك أمته لمن يستولى عليها ، ويترك عرشه فتتسلط عليه الرعاع وسفلة الناس » .

إن الشعب عند الشيخ رعاع . إنه سفلة الناس. إن الملك من حقه أن يفعل كل شىء ضد هؤلاء .. ضد هؤلاء السفلة ، طالما يهدف بذلك إلى المحافظة على عرشه. إن من حقه أن يستبد بشعبه ويقف أمام من يعارضه . بل إن من يعارض الملك هو عند الشيخ « . . يجب محاربته ويجب قتله ما لم يتب » .

وفى النهاية يختتم الشيخ نجيب المطيعى كتابه — ٤٥٤ صفحة فى مناقشة على عبد الرازق بهذه الكلمات « كنا نود . . . ألا يظهر المؤلف بمظهر الإلحاد والمكابرة والعناد ، وأن يسلك سبيل الهدى والرشاد ، ولا يخوض فيما خاض فيه فألحق بنفسه عيباً لايمحى ، وعاراً لاينسى ، ودنساً لايطهر . إلاّ بدموع التوبة والاستغفار والندم على ما وقع فيه » !

* * *

ولكن على عبد الرازق لايتوب ، ولايندم . إنه مستمر . إن كتابه مستمر فى الانتشار وآراءه مستمرة فى الإقناع . لهذا يستمر سيل الكتب فى الصدور ضده . كتاب بعنوان (نقد علمى لكتاب الإسلام وأصول الحكم) يقول فيه مؤلفه إنه كتبه فى الرد على كتاب على عبد الرازق « خيفة أن تتلقفه طلبة العلم كدأب الناس فى تلقف الجديد . فيقع من أذهانهم موقع الصدأ من الحديد » كتاب آخر بعنوان (الرد على على عبد الرازق . . المسمى : سهام اليقين فى نحر أعداء الدين) ، « أصدره مؤلفه للرد على تلك السفاسف التى اوث بها الشيخ على عبد الرازق صحائف كتبه فخرج بها على إجماع المسلمين وفقد ثقة المواطنين »

ثم كتاب ثالث ورابع ، وخامس ، وسادس و . . شىء واحد يجمع بين هذه الكتب كلها . شخص واحد تخاطبه الكتب كلها : الملك فؤاد . ملك مصر . إن الملك هو الذى يسعى لإعادة الخلافة ، هو الذى يريد أن يصبح خليفة للمسلمين . إنه بالطبع أول من يستفيد ، لهذا فهو أول من يخاطبه المتاجرون بالدين .

مثلا . . فى كتاب (سهام اليقين فى نحر أعداء الدين) يهتم المؤلف للغاية بتقديم « خالص الإجلال والتواضع إلى مولانا الملك المحبوب الذى حفظ الدين من عبث العابثين ، وإلحاد الملحدين ، وحفظ كرامة العلم والعلماء ، ونبتهل إلى الله ونضرع إليه أن يدعم مولانا الملك مؤيداً للدين ورافعاً لشأن الإسلام والمسلمين » .

متى رفع الملك فؤاد شأن الإسلام والمسلمين ،؟ لم يرد المؤلف .

مرة أخرى .. فى كتاب أصدره الشيخ محمد الخضر حسين بعنوان (.. نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) يهدى المؤلف كتابه إلى « .. خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم » مع رجاء منه — من الخضر حسين — بأن يتفضل عليه الملك فؤاد .. بالقبول ، والله يحرس ملكه المجيد ، ويثبت دولته على دعائم العز والتأييد »

وبينما السطر الأول فى كتاب على عبد الرازق هو أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا أعبد إلا إياه ، ولا أخشى أحداً سواه » . فإن السطر الأول فى كتاب الخضر حسين هو الحمد لله والصلاة على النبى وآله وصحبه و « .. كل من حرس شريعته بالحجة أو الحسام وأحسن الحراسة »! الكلام موجه طبعاً للملك فؤاد !

ثم ..

يقول الشيخ إنه لاغضاضة مطلقاً فى أن يكون الخليفة ظلّ الله فى أرضه ، فهذا القول« .. ليس بمستنكر » وبينما يقول على عبد الرازق إن استبداد الخلفاء والحكام أدّى إلى انحطاط العلوم السياسية عند المسلمين. فإن الشيخ الخضر حسين يردّ بأن هذا غير صحيح .. وأن هناك أدلة مفحمة على ذلك . من هذه الأدلة التى اعتبرها الشيخ قاطعة . ما قاله أبو سفيان لعثمان رضى الله عنه : « لاترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك » . وقول معاوية بن أبى سفيان : « إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا » .

هذه هى العلوم السياسية فى نظر الشيخ !

وبينما يقول على عبد الرازق إن الخلافة كانت تعتمد على السيف دائماً فى قيامها واستمرارها . فإن الشيخ الخضر يرد بأن هذا غير صحيح ، لأن « .. على الأمة اليقظة أن تتخذ من التدابير مايمكنها من مشاركة الخليفة فى تعريف هذه القوة المسلحة حتى إذا خاب ظنها فيه وأخذه

الاستبداد بالإثم وجدت الطريق إلى اتقاء بأسه وكف يده أمراً ميسوراً » .

كيف تتقى الأمة بأس الخليفة بعد أن يستبد ؟ لم يوضح الشيخ شيئاً . . فالمسألة لاتعدو أن تكون حبراً على ورق .

وبينما يقول على عبد الرازق إن الخلافة لا تستندإلى أى دليل من القرآن أو السنة ، ومن ثم فهى مسألةدنيوية ترجع إلى الناس أنفسهم . . يرد الشيخ الخضر بأنه « . . لاغضاضةعلى حكم الخلافة إذا لم يرد به القرآن يتلى ، لأن . . . بحث الخلافة يرجع إلى النظر فى حكم عملى لا فى عقيدة » .

إن هذا ليس رداً . . ولكنه تأكيد لآراء على عبد الرازق : الخلافة ليست من أحكام الدين . . ولكنها من أحكام الدنيا . . .

ولكن الشيخ يرى أنه ليس من الضرورى أن يتفق علماء المسلمين على اختيار الخليفة دائماً « يكفى اتفاق جماعة من أهل الحل والعقد بحيث تكون كلمتهم العليا على من خالفهم » . كيف تكون كلمتهم عليا إلا بالقوة ؟ لم يجب الشيخ عن السؤال .

وبينما على عبد الرازق يقول إننا لانحتاج إلى الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا ، وإن الخلافة كانت ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين . . فإن الشيخ الخضر يقول : إن «الخلافة حقيقة شرعية ، وأمر لا غنى للمسلمين عنه » ولكنه فى الصفحة التالية مباشرة يتحسر قائلا إنه « . . لو أن المتأخرين من سلاطين آل عثمان أعطوا للخلافة شيئاً من حقوقها وراعوا ما أمر الله من وسائل استقامتها لما انفرط عقد هذه الممالك الإسلامية وأصبحت كل قطعة منها تحت سلطة أجنبية تستبد عليها فى حكمها » .

سبحان الله !

إن الشيخ يقول بأن سلاطين بنى عثمان ــ الذين كانوا خلفاء أيضاً ــ لم يعطوا الخلافة شيئاً من حقوقها . إن المبدأ صحيح إذن ،

فالخليفة يستطيع أن يستبد وأن ينحرف. ماهو الحل وقتها ؟ لا حل . .

برغم ذلك . . يرد الشيخ بأنه لاغنى للمسلمين عن الخلافة . . « ما داموا يطمحون إلى عز مكين وحياة مستقلة » . لكن . إذا كان استقلال المسلمين يتوقف إذن على الخلافة . فلماذا لم تستطع الخلافة أن تحافظ على استقلال مصر والسودان وعدن وفلسطين واليمن يوم احتلتها بريطانيا . لماذا لم تحافظ على استقلال سوريا ولبنان وتونس والمغرب والجزائر يوم احتلتها فرنسا ؟ أسئلة لا يجيب عنها الشيخ .

والواقع أن الشيخ لم يجب طوال كتابه عن أى سؤال رئيسى : لماذا الخلافة ؟ على أى نص فى القرآن أو السنة تستند ؟ لماذا يستبد الملوك؟ لماذا لا يحاسب الشعب سلطانه ؟ لماذا . . لماذا ؟

لا شىء . إن الشيخ يقول فقط إن سكوت على عبد الرازق أنفع من كلامه . . إنه إباحى . . إنه ينتمى لطبقة أصحابها « لايدخلون فى حساب علماء الشريعة وإن وضعوا على رؤوسهم عمائم وجلسوا بمجلس الفتوى أو الحكم بين الناس » .

إن الشيخ يتناسى أن على عبد الرازق أصبح شيخاً وأصبح عالماً وأصبح قاضياً . . بمقتضى شهادة حصل عليها من الأزهر نفسه ، ومنحها له علماء الأزهر أنفسهم .

إن على عبد الرازق لم يعد من الآن – منذ نادى برأى مختلف – لم يعد شيخاً ولا عالماً ولا قاضياً ولا صالحاً للفتوى .

* * *

إن جوهر المسألة إذن هو كلمتان اثنتان : رأى مختلف . جوهر المسألة هو رأى نشره على عبد الرازق فى كتاب من مائة صفحة ، وصدرت ضده كتب فى أكثر من أربعة آلاف صفحة !

إن رأى على عبد الرازق قد يكون خطأ . . وقد يكون صواباً . . إنه صواب لكن . . لنفرض أنه خطأ فلماذا إذن تحدث كل هذه الثورة

ضده ؟ لماذا يتسابق المتاجرون بالدين إلى اتهامه فى دينه وعلمه ووطنيته وأشياء أخرى كثيرة ؟ هل الإسلام يمنع الرأى ؟ يمنع الاختلاف ؟ يمنع الاجتهاد ؟ أبداً . مطلقاً . الإسلام أكبر من كل ما يريد له المتاجرون به. ولكن الإسلام أصبح تجارة يوم جردته السياسة من أهدافه . وحولته لخدمة أغراضها الخاصة

* * *

إن الإسلام ينادى بالحرية . ويقوم على الحرية .

يوم كانت لنا حرية . . كانت لنا إمبراطورية . يوم فقدنا هذه الحرية . . أصبحت تستعمرنا كل إمبراطورية . .

إن الحرية ليست مجرد حرية فى مواجهة الآخرين، إنها أولا حرية فى مواجهة أنفسنا . نحن أسوأ أعداء لأنفسنا . لقد أصبحت السلطة مغرية وأصبح السلطان مخيفاً . يوم كان السلطان خادماً للشعب. . انتشر الإسلام . . وحينما أصبح الشعب خادماً للسلطان خسر الإسلام . هذه هى الحقيقة التى تقف خلف كل الصراع بين على عبد الرازق ومعارضيه .

الحرية . الحرية فى مواجهة أنفسنا . الحرية . الحرية فى مواجهة السلطان ، الخليفة ، الملك .

حينما قال أبو بكر : « أيها الناس . لقد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوموني» . . كان الخليفة يسير بين الناس مطمئناً . وحينما قال عبد الملك بن مروان للناس : « من قال لى بعد مقامى هذا : اتق الله . . ضربت عنقه » ، كان الخليفة يسير بين الناس مذعوراً .

حينما تساءل عمر بن الخطاب : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . . وصل الإسلام إلى حدود مصر والشام والعراق وحينما أصبح القاضى العثمانى يقول : «أمر السلطان لا يخالف ويجب طاعته » . . تدهور الإسلام .

حينما قال عمر بن الخطاب : « من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقومه بحد السيف » . . كان الحاكم أميراً للمؤمنين . وحينما قال أبو جعفر المنصور : « أيها الناس . . إنما أنا سلطان الله فى أرضه » كان الحاكم نكبة على المؤمنين .

حينما كان الفرد العادى يستطيع أن يقول لأمير المؤمنين : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا » ، كان الإسلام قوة . وحينما أصبح الفرد العادى يخشى سيف السلطان أصبحت أرض الإسلام مستعمرة لكل قوة .

حينما كان الدين عبادة . . كانت أرضه أماناً . وحينما أصبح الدين تجارة . . أصبحت أرضه بغير أمان . إنها بغير أمان لأن المفاهيم انقلبت ، والقيم تدهورت ، والسيف طغى ، والسلطان ظلم ، والحرية اختفت . إن الحاكم لم يعد خادماً . . أصبح ذئباً . والشعب لم يعد سيداً . . أصبح أغناماً . إن النفاق لم يعد عيباً . أصبح مطلباً . إن الرأى لم يعد اجتهاداً . . أصبح جريمة .

لهذا كان عنف المعركة ضد على عبد الرازق . معركة عنيفة . شرسة . . ضارية .

إن الرجل يقف وحده ضد الملك . . ضد حاشية الملك . . ضد السياسة . . ضد المتاجرين بالدين لمصلحة السياسة إنه يجتهد برأيه فى الوقت الذى لا يريد فيه السلطان أى رأى. السلطان الضعيف لا يريد أى رأى . السلطان القوى هو وحده الذى يريد الحقيقة . . ويبحث عن الرأى . . ويشجع حرية الرأى. حينما كان الخليفة الإسلامى قوياً كان يؤمن بالشورى ويمشى بين الناس بسيطاً بلا سيف ولا خوف ولا رهبة ولا بطانة ولا استبداد . كان الخليفة يريد العدل ويزهد فى السلطة ، ويعزف عن العقاب ، ويشجع الاجتهاد . لكن . حينما بدأت الخلافة تخاف ، والدولة الإسلامية تضعف - منذ عشرة قرون وهى تضعف -

بدأ الانحلال يصيب الجسم والعقل معاً . لم تعد هناك . . خلافة واحدة، أصبحت ثلاثة : الأمويون فى الأندلس ، والفاطميون فى شمال إفريقيا والإخشيديون فى مصر . يومها فقط — بعد الانحلال فقط أقفل باب الاجتهاد فى الدين . عشرة قرون وهو مقفل — لا اجتهاد . لا رأى . لاحرية فى إبداء الرأى .

إن على عبد الرازق يجىء الآن ليساهم — مع قليلين قبله — فى فتح باب الاجتهاد فى الدين ، فى إبداء الرأى . فى المطالبة بحرية الرأى . إنه الآن يواجه كل هذا الرصيد المتعفن الذى ترسب عند المتاجرين بالإسلام طوال عشرة قرون سابقة.إنه يواجه الطابور وحده . . السلطان وحده . إنه — لأول مرة — يجرد الخلافة من عباءتها الواسعة التى ارتدتها طوال فترة الانحلال والتدهور . الدين لله . . والسلطان للدنيا . الدين نقدسه . . والسياسة نراجعها . الدين نؤمن به . . والسلطان نحاسبه.

لهذا خرجت كل الكتب تهاجم على عبد الرزاق . إن كل مؤلف يحاول أن يكون أكثر قسوة ، أعنف هجوماً ، أعلى صوتاً . . من الآخرين . الأعلى هو الأفضل . على عبد الرازق إباحي . . زنديق . . فاسق . . ملحد . إنه كافر . . كافر . نحن معك أيها السلطان ، أيها الملك . يحيا الملك . يحيا صاحب السيف . يحيا ذو الجلالة . النفاق . النفاق . . النفاق !

ولكن النفاق وحده لايؤذى . إنه لايؤذى إلا إذا أصبح فى يده سيف . . لحظتها فقط يستطيع النفاق أن يؤذى ويجرح ويذبح ، ويقتل . و . . . . .

سوف يحصل المنافقون قريباً على سيفهم . . ضد رقبة على عبد الرازق !

الملك يتحرك

كان كتاب الشيخ على عبد الرازق قنبلة مدوية ، قنبلة شديدة الانفجار قنبلة سوف يسمع دويها كل مواطن فى مصر . ابتداء من أصغر كناس . . إلى أكبر رأس : الملك فؤاد .

إن الناس فى الشوارع بدأت تهامس . . ماذا يفعل الملك فؤاد ؟

إن الكتاب ليس فيه اسم فؤاد . ولكن الناس تعرف بالضبط من الذى يهمه الأمر فى هذا الكتاب كله . إنه الملك فؤاد . . شخصياً .

إن الملك فؤاد كان يحكم مصر وقتها بدستور أوقف العمل به ، وبرلمان معطل ، وسعد زغلول زعيم الأغلبية خارج الحكم ، ووزارة ائتلافية يرأسها أحمد زيورباشا . وزارة تضم حزب الاتحاد وحزب الأحرار الدستوريين .

وعندما أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه ، لم يكن يعلم أن هذا الكتاب سوف يتسبب فى أخطر أزمة وزارية يشهدها التاريخ المصرى الحديث بسبب كتاب واحد . أزمة لن ينجو من ذيولها أحد .

إن هناك أطرافاً كثيرة يهمها أمر هذا الكتاب . هناك الملك الذى يسعى للحصول على لقب خليفة المسلمين . وهناك الإنجليز الذين يساعدونه من وراء الستار بحرص وحذر . وهناك المتاجرون بالدين ، الذين يسهلون أمام الملك دائماً مهمة استخدام الدين فى أغراضه السياسية ثم . . هناك السياسيون الذين يحصلون من الملك على عمولة مقابل كل زيادة فى سلطته . إن كل طرف من هؤلاء له أنصار وخصوم و : قدر من السلطة . ولكن الرأس الكبير بينهم جميعاً ، ويعمل نيابة عنهم جميعاً ، هو الملك فؤاد .

مرة أخرى يتهامس الناس : ماذا يفعل الملك فؤاد ؟ ماذا ؟ لم يمر وقت طويل قبل أن يتحرك الملك . حركة متوحشة شرسة .

إن رئيس الوزراء مسافر فى أوربا . لهذا يستدعى الملك يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة [١]. إن كلمات الملك تحمل مزيجاً من التنبيه والإنذار والتهديد والوعيد والإغراء .

قال الملك بحدة لرئيس الوزراء بالنيابة : كيف يجرؤ واحد من الأزهر على المطالبة بقيام الجمهورية فى مصر ؟

وبسرعة جاء الرد : أستغفر الله ! أستغفر الله يا صاحب الجلالة! من الذى يجرؤ على هذا الإلحاد ؟ هذا الكفر ؟ !

ويزمجر الملك غاضباً : هذا ما حدث . هذا ما حدث يا باشا . هذا ما حدث يا باشا فى ظل وزارتك .

ويتلعثم رئيس الوزراء بالنيابة وهو يقول : لكن . . لكن يا صاحب الجلالة . . أقصد . . أرجو عفوك وغفرانك . . إننى سمعت أن الكتاب يهاجم الخلافة . ولكنه لايدعو إلى قيام الجمهورية . .

ويصيح الملك بسرعة :وما الفرق ؟! ما هو الفرق يا باشا ؟الهجوم على الخلافة هو تمهيد للدعوةلقيام الجمهورية ألم يحدث هذا فى تركيا ؟

— نعم . . يا صاحب الجلالة .

— إذن . . ما رأيك ؟

— الرأى رأيك يا صاحب الجلالة . .

— رأيى أن هذا الكتاب تمرد . .

ولكن رئيس الوزراء بالنيابة يسكت قليلا قبل أن يصحح للملك جملته : لا ياصاحب الجلالة . هذا الكتاب ليس تمرداً . إنه ثورة !

ويهدأ الملك قليلا بعد هذه المزايدة من رئيس وزرائه ، ثم يقول :

نعم يا باشا . ثورة وليس تمرداً . ثورة ضد الدين . هذا الكتاب إلحاد . زندقة . كفر .

وبسرعة ، يلتقط رئيس الوزراء كلمة الملك الأخيرة . نعم . لقد فهم الآن بالضبط طلبات الملك : لهذا يرد : نعم . . نعم . . مضبوط يا صاحب الجلالة . إذن . . نصدر بياناً بذلك باسم الحكومة .

ولكن الملك يقاطعه : باسم الأزهر يا باشا .. وليس باسم الحكومة . المؤلف عالم فى الأزهر . دع أصدقاءنا إذن يرتبون هذا الموضوع .

* * *

ولم يكن رئيس الوزراء بالنيابة – ولا الأصدقاء فى الأزهر – ينتظرون سوى هذه الإشارة من الملك . بعدها عرف كل واحد مهمته بالضبط . المهمة عاجلة : إعلان كفر الشيخ على عبد الرازق . تأديب الشيخ على عبد الرازق . من الناحية المبدئية سوف يبدأ التعريض بالمؤلف على صفحات الصحف . صحيفة معه . . وخمس ضده . فى الواقع أن صحيفة واحدة فقط كانت تقف مع الشيخ ، هى صحيفة « السياسة » الناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين. جريدة « الأخبار » الناطقة باسم الحزب الوطنى : ضده . جريدة « الاتحاد » الناطقة باسم حزب الاتحاد . . ضده . جريدة « البلاغ » الناطقة باسم حزب الوفد . . ضده . جريدة « كوكب الشرق » الناطقة باسم الوفد أيضاً . . ضده .

إن الدوافع تختلف : أحزاب خارج السلطة . . تهاجم المؤلف لمجرد التشفى فى حزب الأحرار الدستوريين ، لأن عائلة عبد الرازق من كبار مناصريه ، ولأن الحزب مشترك فى الوزارة القائمة . وحزب فى السلطة – هو حزب الاتحاد – شكله القصر الملكي منذ أشهر قليلة لكى ينطق بلسان ضد الأحزاب الأخرى . . وهو الآن يسدد بعض ديونه للملك . إن الحقيقة ضائعة وسط كل هذا الهجوم ، ولكنها موجودة على أى حال .

إن عدداً من المثقفين مثلا يناقشون الأمر . إنهم – بتعبير أحمد شفيق باشا الرئيس السابق للدائرة الخديوية – يشمون فى الجو « . . رائحة الحكم على الشيخ على عبد الرازق بالردة والمروق من الإسلام » . لهذا عقدوا فى اليوم التالى اجتماعاً حضره ستة من أعضاء الرابطة الشرقية .

فى الاجتماع يضع أحمد شفيق باشا للحاضرين شرطاً أساسياً . إنه يقول لمحمود سالم بك : « . . إنه يجب على الشيخ على عبد الرازق أن يعلن فى دفاعه أنه لايقصد مطلقاً إقامة جمهورية فى مصر » . إن أحمد شفيق يعلم أن هذا هو بيت القصيد فى الموضوع كله . وأن الملك ربما يغفر للشيخ جرأته لو صدر منه هذا الإعلان .

ولكن الملك لايغفر . بل إن نفس هؤلاء الأعضاء الستة فى الرابطة الشرقية قدموا فى اليوم التالى التماساً إلى الملك فؤاد لحماية حرية الفكر . التماساً قالوا فيه : « ياذا الجلالة . . نلجأ إليك – وأنت رب الدستور – لتحول دون استباحته فى أقدس ما كفل وصان ، وهى حرية الفكر . إن مؤاخذة مؤلف عالم – وفوق ذلك قاض – لنشره بحثاً علمياً حوى آراءه الخاصة فى مسائل دينية أو اجتماعية حسبما وصل إليها بحثه فى تأويل مصادرها ومراجعها . . لهى مصادرة لحرية الفكر المكفولة بدستورنا المصرى . . والمقدسة لدى جميع الأمم المتمدينة ، ورجوع بمصر إلى عهد الظلمة » .

التماس مؤدب . . مهذب . . ولكنهم قدموه للشخص الخطأ . إن الملك فؤاد هو الخصم . . فكيف يكون هو القاضى ؟

التتيجة : رفض الالتماس . إذا كانت هناك سلطة فى مصر . . فالملك فوقها . إذا كان هناك دستور . . فالملك هو الذى يعطله . إذا كانت هناك حرية . . فالملك هو الذى يصادرها . إذا كان هناك شخص واحد صاحب رأى . . فالملك هو الذى يؤدبه . لاشىء أكبر من الملك . لا شىء ، ولا أحد ، سوى المندوب السامى البريطانى .

إن الاتصالات تبدأ . المشاورات تستمر . مشاورات مع المندوب السامى البريطانى . مع الملك . مع حزب الاتحاد . مع الأزهر .

اجتماعات . لجان مغلقة .

الإلحاد هو التهمة المناسبة .

الجو معبأ .

الوسيلة تحددت .

الشائعات تنتشر .

اليوم يوم الاثنين .

إنها الساعة التاسعة .

تجمعات . أصوات من الغضب . الرشوة تشترى الغضب .

موجات منافقة . السلطة تغرى بالنفاق .

الموجة الأولى : مظاهرة .

أول مظاهرة ضد المؤلف . الساعة العاشرة والربع . اليوم ١٥ يونيو . الجامع الأزهر . عرائض تكتب . الموت لأعداء الدين . على عبد الرازق عدو الدين . إحدى العمائم تتحرك . تحت العمة شيخ . الشيخ يخاطب المتظاهرين . سياسة . . لادين . السياسة الآن . الدين فيما بعد . السياسة تتكلم . الموت لأعداء الإسلام .

الموجة الثانية : مظاهرة . اليوم يوم الثلاثاء .

مظاهرة ثالثة ، رابعة . عرائض تكتب . مقالات تنشر . كتب تصدر . السياسة تتحرك . الدين هو الضحية .

الجريمة : رأى . الانتقام مطلوب . المندوب السامى ينتظر . الملك يشرف . رئيس الوزراء بالنيابة يتابع . الكابوس . رائحة الكراهية . طعم الخوف . خوف من كتب أخرى . ذعر من رأى ينشر . ذكريات خليفة كان يستبد وملك يريد أن يستبد . صيحات غضب . أصوات . أصوات شرسة .

اجتماعات . مزيد من الاجتماعات .

مشاورات .

القرار : محاكمة على عبد الرازق .

المحكمة : هيئة كبار العلماء . التهمة : الإلحاد . الحاضرون : ٢٥ . الرئاسة : شيخ الجامع الأزهر . موعد الجلسة : ١٢ أغسطس ١٩٢٥ اليوم : الأربعاء . العاشرة صباحاً . المكان : الإدارة العامة للمعاهد الدينية . الأزهر . الإجراءات : يعلن المتهم للحضور .

* * *

حضر المتهم . . .

— السلام عليكم .

لا رد .

مبدئياً : الدين يقول : « إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » . لا دين .

— السلام عليكم .

— اقعد عندك .

هكذا صاح رئيس الاجتماع فى المتهم . جلس المتهم .

ما الذى يراه على عبد الرازق أمامه ؟ هيئة كبار العلماء . إنهم لا يبدون كباراً ، ولا علماء . ولكن الملك يرى غير ذلك . ما هذه الوجوه ؟ من قبل رأى على عبد الرازق هذه الوجوه ضاحكة . صديقة . ولكنها الآن ليست كذلك . إنه يرى أمامه وجوهاً يغطيها الغضب . . التربص . . الغليان . . الثورة . . الكراهية . . الحقد . . الانتقام . . الرغبة فى الانتقام . . الشر . إنه يرى الشر أمامه فى الأعين ، على الشفاه ، وداخل القلوب . إنه يرى أمامه أسناناً حادة . . لا عقولا حادة .

سكوت . فتحت الجلسة .

ــ الكتاب ده . . كتابك ؟ !

هكذا لوح شيخ الجامع الأزهر محمد أبو الفضل ــ رئيس الاجتماع ــ بكتاب « الإسلام وأصول الحكم » موجهاً السؤال إلى على عبد الرازق .

ــ نعم .

ــ وهل أنت مصمم على كل ما فيه ؟

ــ نعم .

وبكل طاقة الغضب فى العالم ، ألقى شيخ الجامع بالكتاب على المنضدة أمامه وصاح فى المتهم .

ــ هذا الكتاب كله ضلال وخطأ . ولكنا نحن كتبنا لك عن سبع نقط فيه . . ولو أن فيه غيرها كثير كلها ضلال أيضاً . وسأقرأ لك هذه النقط السبع التى تضمنها كتابك :

١ ــ إن الكتاب جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لاعلاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا .

٢ ــ وإن الدين لايمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين .

٣ ــ وإن نظام الحكم فى عهد النبى كان موضوع غموض وإبهام أو اضطراب وموجباً للحيرة .

٤ ــ وإن مهمة النبى كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ .

٥ ــ وإنكار اجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام ، وعلى أنه لابد للأمة ممن يقوم بأمرها فى الدين والدنيا .

٦ ــ وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية .

٧ ــ وإن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضى الله عنهم كانت لادينية .

والآن . . هل عندك ما تقوله ؟

أجاب الشيخ المتهم على عبد الرازق فى هدوء وابتسام : إنى كتبت

مذكرة للرد على هذه النقط أرجو أن تسمحوا لى بقراءتها . وأما إذا أردتم أن تكون المناقشة شفويًا فأنا مستعد . ولكن . .

— لكن إيه ؟ !

— لكن . . هناك نقطة سابقة لهذا كله أرجو أن تسمحوا لى بذكرها . إننى لاحظت الآن أن هناك محاضر تكتب فى الجلسة . . وأريد أن أسجل أولا أن هذه الهيئة — هيئة كبار العلماء — ليس لها صفة قانونية تخول لها محاكمتى بمقتضى قانون الأزهر . إننى لم أحضر اليوم اعترافاً لهذه الهيئة بصفة قانونية . . وإنما حضرت أمامها باعتبار أنها هيئة فيها أساتذتى ومشايخى وكثير من علماء الأزهر الذين أعتقد أن لهم على أدبيًا أن أجيب دعوتهم وأناقشهم فيما يريدون .

الشيخ محمد بخيت : هذا دفع يجب الفصل فيه .

الشيخ محمد شاكر : يجب ضم الفصل فى هذا الدفع إلى الموضوع .

همهمة . مشاورات . رءوس تتقارب . رئيس الاجتماع يصيح : طيب . . اخرج بره . . حننده لك .

* * *

— المتهم على عبد الرازق . ادخل .

دخل المتهم . القرار : إن الهيئة ترى أنها مختصة بنظر المسألة . . وترفض الدفع الفرعى .

الشيخ على عبد الرازق : إنى أحترم هذا القرار . ومع احترامى فإننى مصمم على ما قلته .

— طيب . . اقرأ ردك على الاتهامات السبعة .

— أولا ، أحب أن أقرر أنى عندما ما ألفت هذا الكتاب . . كنت أقوم ببعض ما يجب على كل عالم من البحث والتماس الحقائق . إن شهادة العالمية — التى حصلت عليها من الأزهر — ليست إلا صفة توجب على صاحبها البحث والتماس الحقائق . إننى أعتقد أن الوسيلة الوحيدة

التى يمكن الاعتراض بها على أى بحث علمى إنما هى المناقشة فيه والمجادلة بالحسنى . إن سماحة الدين الإسلامى وعدالة القوانين لايتيحان لأحد أكثر من هذا الحق .

بعد ذلك أتناول النقط السبع .

النقطة الأولى : اتهامى بأننى جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة . غير صحيح . بل إن الكتاب كله لاتوجد فيه كلمة « روحية » مطلقاً فى سياق الكلام عن الشريعة الإسلامية . النقطة الثانية : اتهامى بأننى كتبت أن الدين لايمنع من أن جهاد النبى كان فى سبيل الملك . غير صحيح . الكتاب يقول عكس ذلك تماماً . اقرأ صفحة ٧٠ . النقطة الثالثة : اتهامى بأننى قلت إن نظام الحكم فى عهد النبى كان موضوع غموض وإبهام . غير صحيح . ليس فى الكتاب كله مثل هذا الرأى ، ولا مثل هذه الجملة .

النقطة الرابعة ، والخامسة ، السادسة . . السابعة . . »

هكذا قرأ الشيخ على عبد الرازق رده المكتوب على اتهامات هيئة كبار العلماء . رد مفحم . الآن . . رفعت الجلسة للتشاور .

* * *

نفس اليوم .

الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً . فتحت الجلسة . الحكم :

« حكمنا نحن شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ومؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء . تعلن الأسباب بعد إعدادها . فيما بعد » !!

* * *

إن الأسباب لم تكن مهمة فى نظر الذين أصدروا هذا الحكم فى

جلسة واحدة . الحكم فقط هو المهم . الحكم فقط هو الذى ينتظره الملك . إن على عبد الرازق احتاج إلى خمس عشرة سنة من الدراسة المتواصلة لكى يحصل من الأزهر على شهادة العالمية . ولكنه هنا قد تجرد منها فى جلسة واحدة استمرت ساعتين . منتهى الاحترام للعلم ، للحرية ، للبحث ، للرأى ، للعقيدة ، للدين .

ولم تكن شهادة العالمية هى الشىء الوحيد الذى تجرد منه الشيخ على عبد الرازق أيضاً بمقتضى هذا الحكم . إن الحكم يقضى أيضاً « . . بمحو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى ، وطرده من كل وظيفة وقطع مرتباته فى أى جهة كانت وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية . . دينية كانت أو غير دينية » .

أهذا دين . . أم سياسة ؟ عقوبة . . أم انتقام ؟ فصل . . أم تشريد ؟ علم . . أم كراهية للعلم ؟ حرية . . أم مصادرة للحرية ؟ إسلام . . أم استغلال للإسلام ؟

كانت هناك هذه الأسئلة — الإجابات معروفة — وكانت هناك أسئلة أخرى . جريدة البورص إجيبسيان » أرسلت مندوبها إلى الشيخ على عبد الرازق عقب الحكم لسؤاله . حديث صحفى . أول حديث صحفى للشيخ الكافر المطرود .

سؤال : ما هو سبب الحكم عليك . . فى رأيك ؟

— الكتاب .

— ما هى الفكرة الرئيسية فى الكتاب ؟

— الفكرة التى حكم على من أجلها هى أن الإسلام لم يقرر نظاماً معيناً للحكومة ، ولم يفرض على المسلمين نظاماً خاصاً يجب أن يحكموا بمقتضاه . بل ترك لنا مطلق الحرية فى أن ننظم الدولة طبقاً للأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التى توجد فيها مع مراعاة تطورنا الاجتماعى ومقتضيات الزمن .

— ما هو رأيك فى الخلافة ؟

— إنها ليست نظاماً دينياً . والقرآن كما فى كتابى لم يأمر بها ولم يشر . وقد قلت أيضاً إن الدين الإسلامى برىء من نظام الخلافة برىء بالأخص من الأدواء التى عصفت به وعملت كثيراً على تأخير المسلمين فى سيرهم نحو التقدم . لقد شلت الخلافة كل تطور فى شكل الحكومة عند المسلمين نحو النظم الحرة . . خصوصاً بسبب العسف الذى أنزله بعض الخلفاء بتقدم العلوم السياسية والاجتماعية ، فإنهم قد صاغوها فى خير قالب يتفق مع مصالحهم .

سؤال : إذن فالإسلام يترك المسلمين أحراراً فى إنشاء الحكومة التى يرونها وأن يبحثوا من الوجهة العلمية عن أحسن شكل للحكومة يسد حاجتهم ؟

— نعم بلا ريب . . وإننى أتحدى أى عالم يقول بعكس ذلك ويؤيد رأيه بأى نص من القرآن أو بحديث واحد . وليس الخليفة خليفة النبى . وهذا مع الأسف — خطأ شائع جداً : لقد أثبت فى كتابى أن النبى لم يكن قط ملكاً وأنه لم يحاول قط أن ينشئ حكومة أو دولة ، فقد كان رسولا بعثه الله ، ولم يكن زعيماً سياسياً .

سؤال : هل أصدرت هذا الكتاب بسبب دوافع سياسية ؟

— لقد زعم خصومى أنى أردت بكتابى أن أخدم مصالح حزب سياسى معين ، وهذا اختلاق محض . أنا لست عضواً فى أى حزب . . وقد لبثت دائماً بعيداً عن المعارك الداخلية وعن كل نشاط سياسى . إنى رجل دين ورجل شريعة . ولم يحملنى على وضع كتابى إلا غاية علمية . وقد كتبت بعيداً عن كل أهواء السياسة . . يكفى أن تقرأ الكتاب لتجزم بأن حزباً سياسياً لايمكن أن يستخرج منه أية فائدة . . ولكن أشخاصاً

من ذوى الغايات والنيات السيئة هم الذين شوهوا آرائى - ومسخوا النصوص ليقولوا بعكس ذلك .

سؤال : ما رأيك فى الحكم الذى أصدرته عليك هيئة كبار العلماء؟

- إنه حكم باطل مخالف للدستور ، لأن الدستور قد كفل حرية الرأى لكل مصرى ، وهذا الحكم ليست له سابقة واحدة .

- هل يمكن أن نعتبرك زعيماً لمدرسة ؟

- لست أعرف ماذا تعنى بزعيم مدرسة . فإن كنت تريد بهذا أن لى أنصاراً فيسرنى أن أصرح لك بأن الكثيرين يرون رأيى - لا فى مصر وحدها - بل فى العالم الإسلامى بأسره .

- أما زلت مصمماً على آرائك ؟

- نعم .

- هل تستمر فى نشر آرائك ؟

- لا ريب. فإنى - برغم الحكم - لا أزال مستمراً فى آرائى وفى نشرها لأن الحكم لا يعدل طريقة تفكيرى .

* * *

فى اليوم التالى قرأ على عبد الرازق آراء كثيرة تؤيد الحكم ضده . . ولكنه قرأ أيضاً رأياً آخر يعارض الحكم . رأيا كتبه طه حسين - بلا توقيع - ونشره فى جريدة « السياسة » .

كتب طه حسين يقول مخاطباً على عبد الرازق : « . . إيه أيها الطريد من الأزهر تعال إلىّ نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة . قصة كتابك .والحكم عليه وعليك وطردك من الأزهر . . ما بال رجال الأزهر لم يقضوا على كتابك بالتمزيق . . فقد كان يلذنا أن نرى نسخة فى صحن الأزهر أمام (باب المزينين) أو فى ناحية من هذه الانحاء

التى لايأتيها ولا يصل إليها المفكر ولا يسعى إليها إلا الأخيار والأبرار : ثم تضرم فيها النار !

« دعنا نتحدث فى حرية ولاتكن أزهريًّا ، فقد أخرجت من الأزهر . .

« ثم تعال نجد ، فقد آن لنا أن نجد هذه الهيئة التى أخرجتك من الأزهر؟ ما سلطتها الدينية ؟ على أى آية من كتاب الله تستند ؟ أركن هى من أركان الإسلام كالإمامة ؟ كلا ، إنما هى بدعة لايعرفها القرآن الكريم ولاتعرفها السنة المطهرة ولا النظم الإسلامية . . هى بدعة فليس لحكمها صفة دينية ، ومن قال غير ذلك فهو آثم . نعم آثم لأن هذا النظام يشبه أن يكون من نظم النصارى لامن نظم المسلمين. للنصارى مجلس للأساقفة ومجلس الكرادلة ولهم البابا ، أما نحن فليس لنا من هذا كله شىء . فسلام عليك أيها الطريد . . وإلى اللقاء » !

* * *

هذا ما كتبه طه حسين : سلام على الشيخ على عبد الرازق .

وفى الوقت نفسه نشرت جريدة « السياسة » كلمة للشيخ على عبد الرازق يقول فيها : « لاجرم أننا تقبلنا مسرورين إخراجنا من زمرة العلماء ، وقلنا كما يقول القوم إذا خلصوا من الأذى قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الأذى وعافانا » .

كانت كلمة على عبد الرازق خليطاً من التهكم والسخرية والهدوء .

ولكن هذا الهدوء لن يأتى أبداً . إن الحكم بإخراج الشيخ على عبد الرازق وطرده وحرمانه من جميع الوظائف المدنية والدينية ، لم يكن نهاية المطاف ولا كان نقطة النهاية .

فى الواقع أنه من هذه النقطة — بالضبط — سوف تبدأ الأزمة الكبرى !

٧

الجميع.. ضدّ الملك!

كان وزير العدل جالساً على كنبة وثيرة فى مكتبه مع أصدقاء له .. عندما دخل عليه سكرتيره ليعرض عليه مجموعة قرارات وزارية لتوقيعها .

لحظتها سأل الوزير سكرتيره : هل وقع المستشار الإنجليزى هذه القرارات الوزارية ؟

وأجاب السكرتير : نعم .

فأشار الوزير المصرى إلى ختمه الموضوع على المكتب وقال لسكرتيره : « الوزير عندك على المكتب .. اختم به » !!

كان الوزير هو إبراهيم باشا فؤاد وزير الحقانية (العدل) فى وزارة مصطفى باشا فهمى .. الذى ظل رئيساً لوزراء مصر ١٣ سنة قبل الحرب العالمية الأولى .

إن هذه الواقعة تصور بالضبط مكانة الوزير ، ومكانة الحكومة المصرية كلها فى أثناء وجود الاحتلال البريطانى لمصر : مندوب سام لبريطانيا ومستشارون إنجليز فى يدهم السلطة الفعلية .. ثم وزارة تقف على المسرح تصدر القرارات وتتخذ الإجراءات . فى حين أن أعضاءها هم فى الواقع مجرد « أختام » فى أيدى سلطة الاحتلال .

إن شيئاً من هذا تكرر حدوثه فى أثناء الأزمة التى تسبب فيها كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) . لقد أصدرت هيئة كبار العلماء حكمها بإخراج الشيخ على من زمرة العلماء . حكم لا يقبل الطعن ولا الاستئناف أمام أى جهة أخرى . حكم نهائى . حكم يقضى

أيضاً بمحو اسم على عبد الرازق من كل وظيفة يشغلها . . وقطع مرتباته فى أى جهة كانت . . وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عامة . . دينية كانت أو غير دينية .

وهنا بدأت الأزمة الحقيقية تتفجر . . !

إن هيئة كبار العلماء هي هيئة دينية . إنها هيئة لا يحق لها أن تعاقب الشيخ على عبد الرازق على رأى نشره فى كتاب . لكن . . لنفرض جدلا أن من حقها أن تعاقبه . .فهل من حقها أن تفصله من وظيفته المدنية؟ إن على عبد الرازق يعمل قاضياً شرعياً لمحكمة المنصورة الابتدائية . إنه — بناء على ذلك — موظف مدنى تابع لوزارة الحقانية (العدل) . . وليس تابعاً الأزهر . . فهل تقوم الوزارة بفصله من وظيفته المدنية تنفيذاً لقرار هيئة كبار العلماء ؟

هذه هى المشكلة التى بدأت تفرض نفسها على مجلس الوزراء . . مشكلة خلقت أول أزمة سياسية كبرى فى مصر بسبب كتاب .

إن الوزارة التى تحكم كانت برئاسة أحمد زيور باشا . . ولكن رئيس الوزراء هذا كان يستجم فى أوربا عند ما نشبت الأزمة السياسية . وكان القائم بعمله هو يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة . .

ولأن الجميع يعرفون أن الملك فؤاد شخصياً . . ومن خلفه سلطة الاحتلال يقفون وراء الحكم الذى صدر ضد الشيخ على عبد الرازق.. فقد تم إبلاغ الحكم فوراً . لرئيس الوزراء بالنيابة لتنفيذه .

وعلى الفور اجتمع مجلس الوزراء لبحث المشكلة الخطيرة .

فى المجلس قال إسماعيل صدقى وزير الداخلية : إن هيئة كبار العلماء ليس من سلطتها القانونية أن تصدر هذا الحكم أصلا ضد الشيخ على عبد الرازق . إن كل ما يسمح به قانون الأزهر هو معاقبة عالم الأزهر على التصرفات الشخصية التى تشينه . ولكن قانون الأزهر — الذى كان إسماعيل صدقى عضواً فى اللجنة التى وضعته منذ سنوات — لا يسمح

بمحاكمة عالم أزهرى بسبب رأى علمي قاله .

وعندما أعلن و زراء آخرون فى المجلس اقتناعهم أيضاً بعدم اختصاص هيئة كبار العلماء . . قرر يحيي باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة إغلاق باب المناقشة قائلا : علينا أن ننتظر إلى حين إبلاغنا رسمياً بالحكم وأسبابه . .

وكان مفهوماً أنه عند وصول الحكم وأسبابه فإن رئيس الوزراء بالنيابة سيقوم بجمع مجلس الوزراء من جديد لاستئناف بحث المشكلة . . ولكنه لم يفعل . إنه يعلم أن الملك فؤاد شخصياً يريد تنفيذ كل العقوبات ضد على عبد الرازق بأقصى سرعة . . وبغير مناقشة . النتيجة : قام رئيس الوزراء بالنيابة بإرسال الحكم إلى وزير الحقانية عبد العزيز باشا فهمى . مع تأشيرة منه بتنفيذ الحكم فوراً . معنى ذلك : فصل الشيخ على عبد الرازق من عمله كقاض وحرمانه من أية حقوق له وعدم تشغيله بأية وظيفة حكومية أخرى .

وأسقط فى يد عبد العزيز فهمى !

إنه وزير للحقانية فى الحكومة التى تحكم مصر بلا دستور . . ولكنه فى الوقت نفسه رئيس لحزب الأحرار الدستوريين الذى يدعو للدستور ! تناقض . .

إنه يعلم أن الحكم ضد على عبد الرازق يجب تنفيذه ، لأن وراءه الملك فؤاد شخصياً . . ولكنه يعلم أيضاً أن الحكم يجب عدم تنفيذه لأنه مصادرة لحرية الرأى . تناقض ثان . .

إنه لو نفذ الحكم فسوف يضحى بأسرة عبد الرازق التى تساند حزب الأحرار الدستوريين . . ولو لم ينفذ الحكم فسوف يغضب الملك والمندوب السامى البريطانى . تناقض ثالث . .

إنه إذا عارض الحكم كوزير فلن يسكت الملك . . وإذا لم يعارضه كمثقف فلن يستريح ضميره . تناقض رابع .

إذا امتنع عن تنفيذ الحكم فعليه أن يضحى بالوزارة . . وإذا وافق

على تنفيذه فعليه أن يضحى بمبدأ . مشكلة . أزمة . صراع . أخذ ورد . شد وجذب . .

والحل . . ؟

إن الحل الذى يرضى الملك فؤاداً هو رأس على عبد الرازق . ليس أقل من رأسه . . وإذا لم يكن رأسه فعلى الأقل كرامته . . هذا أضعف الإيمان !

والحل الذى يرضى على عبد الرازق هو استرداد كرامته . . وإذا لم يستطع كمصرى أن يحتفظ بكرامته فى بلده . . فعلى الأقل يحتفظ برأيه . هذا أبسط الحقوق ! .

هكذا كان على عبد العزيز فهمى أن يختار . إن اختياره لابد أن يكون واضحاً : قانون أم اعتداء على القانون ؟ وظيفة . . أم مبدأ ؟ حرية أم مصادرة للحرية ؟

إن البحر هائج . . والموقف مضطرب . . وأطراف الصراع ثائرة . . ولكن الاختيار صعب !

لهذا كله اختار وزير الحقانية أن يكسب الوقت . لقد قرر أن يعرض الأمر على لجنة قانونية فى قلم قضايا الحكومة . حل وسط . لقد أرسل الوزير حكم هيئة كبار العلماء إلى اللجنة طالباً الإجابة عن ثلاثة أسئلة :

أولا : هل تختص هيئة كبار العلماء بمحاكمة عالم أزهرى بسبب رأى علمى له ؟

ثانياً : إذا كانت تختص . . فهل يتعارض هذا الاختصاص مع نص الدستور بضمان حرية الرأى ؟

ثالثاً : إذا لم يتعارض الدستور مع اختصاص الهيئة .. فهل يتعارض مع تنفيذ العقوبة التبعية بإخراج العالم من وظيفته وقطع مرتباته وحرمانه من الدخول فى أية خدمة حكومية ؟

* * *

أسئلة محددة طلب وزير الحقانية الإجابة عنها من قلم قضايا الحكومة. إنها محددة . ولكنها فى النهاية حل وسط . إنه وسط . . لأن الكلمة الحاسمة لم يقلها أحد بعد .

ولكن . . لم يمر وقت طويل قبل أن تقال هذه الكلمة بأعلى صوت .

ففى اجتماع عاجل لمجلس الوزراء وجه يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة سؤاله إلى وزير الحقانية . .

قال رئيس الوزراء : ماذا تم فى الحكم ياعبد العزيز باشا . . ؟

وزير الحقانية : لقد أحلته إلى لجنة قانونية لإبداء الرأى .

رئيس الوزراء : إبداء الرأى . . فى إيه ياباشا ؟

وزير الحقانية : فى مدى اختصاص هيئة كبار العلماء . .

رئيس الوزراء : الحكم ده مش عاوز رأى ياباشا . . عاوز تنفيذ . .

وزير الحقانية : ولكنى لا أستطيع تنفيذ حكم يحتمل أن يثبت بطلانه . .

رئيس الوزراء : ياعبد العزيز باشا . . الحكم ده لابد من تنفيذه مهما كانت الأحوال . . وفوراً . . !

وزير الحقانية : لا أستطيع يايحيى باشا .. قبل وصول رأى اللجنة .

عند هذا الحد ثار يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة ودق منضدة الاجتماع بيده ، ثم نهض واقفاً ليصيح فى عبد العزيز فهمى وسط الجلسة : ده مش اسمه شغل يا عبد العزيز باشا . . ! احنا مش عارفين نشتغل مع بعض ! أنا رايح على المندوب السامى . . !

* * *

هكذا أعلن رئيس الوزراء بالنيابة صيحته القاضية وسط اجتماع مجلس الوزراء . . وخرج ثائراً من الاجتماع . هذا غير معقول . هذا

مستحيل . . هذا كلام فارغ . . إن وزير الحقانية يكلمه عن القانون . . ولكن الملك فؤاداً وسلطات الاحتلال لا يعرفان القانون . الملك فوق القانون . الملك يريد فصل على عبد الرازق . إرادة الملك هى القانون . فوق القانون . أقوى من القانون . إنها أقوى هذه المرة لأن سلطات الاحتلال وراءها . لهذا خرج يحيى باشا إبراهيم من اجتماع مجلس الوزراء لكى يتجه إلى أعلى سلطة فى مصر : المندوب السامى البريطانى . بعد المندوب السامى يتجه إلى الملك فؤاد . السلطة الفعلية أولا . . الدمية ثانياً . إن المندوب السامى البريطانى فى مصر فى ذلك الوقت هو جورج اويد . . ولكن اويد فى لندن الآن ، ونائبه هو نيفل هندرسون . إذن . . ليذهب رئيس الوزراء بالنيابة إلى المستر هندرسون المندوب السامى بالنيابة . . ثم إلى جلالة المستر فؤاد . . ملك مصر بالنيابة عن بريطانيا .

إن مجلس الوزراء مازال مجتمعاً . . إنه فى حالة انتظار ومناقشة . . انتظار لعودة رئيس الوزراء بالنيابة . . ومناقشة للأزمة السياسية الكبرى التى بدأت الآن .

ولم تكن مناقشة الوزراء مجدية . لقد خرج الموضوع الآن من أيديهم منذ احتلت بريطانيا مصر والموضوع ليس فى أيديهم . الأختام فقط . . هى التى فى أيديهم . إنهم ليسوا سوى أختام فى يد المستعمر البريطانى . رئيسهم نفسه ليس سوى ختم فى يد المندوب السامى البريطانى الذى يجتمع معه الآن . الوزارة كلها لم تكن لها مهمة سوى أن تكون ختماً فى يد الملك فؤاد والمندوب السامى . .

فمنذ أن وقع حادث اغتيال السردار الإنجليزى فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، انطلقت سلطات الاحتلال البريطانى فى عملية تأديب واسعة للشعب المصرى . إن الحليف الطبيعى فى مثل هذه العملية هو الملك فؤاد . لهذا انطلق الاثنان معاً ضد الشعب . لقد خرج سعد زغلول — زعيم الأغلبية — من الحكومة ، وتشكلت وزارة جديدة برياسة أحمد

زيور باشا . لقد جاء زيور « لإنقاذ ما يمكن إنقاذه » على حد تعبيره . . تعبير مهذب بديل عن « تسليم ما يمكن تسليمه » . . إن المطلوب هو التسليم للإنجليز والملك . . والرجل جاء إلى رياسة الوزارة لكي ينفذ هذا الطلب بأمانة . . فلم يكن أحمد زيور زعيماً ولا سياسياً ولا رئيساً لحزب ولا صاحباً لرأى . كان مجرد موظف تأمره السلطة فيطيع . إنه لم يكن أكثر من رجل واحد من كثيرين يدخرهم المجتمع المصرى لمثل هذه المناسبات . إن المطلوب منه الآن أن يضرب الشعب . . ويضرب حزب الوفد — حزب الأغلبية — ويدعم نفوذ الاحتلال ونفوذ الملك . ولكى يكون لنفوذ الملك صوت واضح على المسرح أوعز فى يناير سنة ١٩٢٥ بإنشاء حزب جديد باسم « حزب الاتحاد » حزب لم تكن له قاعدة ولا سلطة ولا صوت إلا بقدر تعبيره عن رغبات الملك فؤاد .

لكن الملك فؤاد فوجئ عند إجراء الانتخابات أن الشعب يتمسك بزعامته . لقد استخدمت الحكومة كل وسائل الرشوة والإغراء والتهديد والفصل والتعيين لتجلب الأصوات لحزب الاتحاد وإبعادها عن حزب الوفد . ولكن النتيجة جاءت بعكس ما يتوقع الجميع . فلقد فاز حزب الوفد بأغلبية الأصوات ، ثم . . عندما اجتمع البرلمان فى يومه الأول انتخب سعد زغلول رئيساً له . عند هذا الحد تحرك الملك . . فأصدر مرسوماً بحل البرلمان . بهذا كان أقصر برلمان فى العالم . . إذ أن عمره لم يزد عن تسع ساعات !

الآن لا يوجد برلمان ، لايوجد دستور . يوجد فقط : احتلال ، وملك ، ووزارة ائتلافية من حزب الاتحاد وحزب الأحرار الدستوريين . إن الحزب الأول قام لمحاربة الدستور ، والثانى يدعو لاحترام الدستور . إنه تحالف غريب بين حزبين متناقضين . ولكن السياسة ليست فيها غرابة . فيها فقط . . مصلحة . وقد كان التحالف القائم بين الحزبين هو مجرد تحالف مصلحة . لقد أراد الملك أن يستعين بحزب الأحرار

الدستوريين على ضرب حزب الوفد . . فأشركه فى الوزارة وأراد حزب الأحرار الدستوريين أن يرث حزب الوفد فقبل الاشتراك فى الوزارة . وها هى ذى الوزارة تضم الآن قطبى الحزبين اللذين سيتركز الصدام بينهما بمناسبة كتاب الشيخ على عبد الرازق . الطرف الأول : عبد العزيز فهمى رئيس حزب الأحرار الدستوريين ووزير الحقانية فى الحكومة . الطرف الثانى : يحيى إبراهيم رئيس حزب الاتحاد ورئيس الوزراء بالنيابة .

وبالنسبة لعبد العزيز فهمى . . فلقد كان يعلم أن المعركة أمامه قاسية . إن السلطان — وتنابلة السلطان — اتحدوا جميعاً ضد الشيخ على عبد الرازق . إن الجريدة الوحيدة التى تدافع عن كتاب الشيخ على هى جريدة « السياسة » التى يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ويكتب فيها طه حسين . ومقابل ذلك فإن كل الصحف الأخرى تهاجم على عبد الرازق . إن صحيفة « المقطم » الموالية للإنجليز تقول : « لا يصح أن يتهم قاض شرعى يبنى أحكامه على قواعد الدين الإسلامى بخروجه على هذا الدين ثم يستمر فى منصبه » .

إن جريدة « الأخبار » لسان حال الحزب الوطنى تتزعم الهجوم قائلة إن كتاب على عبد الرازق يمثل « . . طلشاً فى الرأى وإلحاداً فى العقيدة » . إنها فى مرة أخرى ترى فى الكتاب خروجاً على دين المسلمين . ومرة ثالثة تحرض الحكومة والملك ضد الشيخ قائلة بأعلى صوت : « هل الحكومة عاملة واجبها إزاء هذا الاعتداء الذى يواصله الملاحدة علانية على دين الدولة . . دين العرش ، دين الراية ، دين المليك ، دين أهل البلد ؟ إن المسلمين فى مصر متضرمة قلوبهم غيظاً من هذه الحال ، وإنهم لفى فرط التعجب بعد صمت الحكومة الذى طال واستطال » . وفى مرة رابعة تطلب الجريدة نفسها « إضرام النار فى موقدى الفتنة » .

هكذا بصراحة مطلقة — وصل الأمر إلى حد المطالبة بإحراق الشيخ

على عبد الرازق ومؤيديه . إن المرء ليعجب من أمر هؤلاء الناس . إن كلمة « النار » لاتعنى بالنسبة لهم أكثر من كلمة . مجرد كلمة . إن أى شخص عاقل لايستطيع التحدث عن « النار » و « إضرام النار » بمثل هذا الاستخفاف . إنى لم أشاهد فى حياتى عملية إحراق شخص . ولكنى أستطيع أن أتصور ماذا يعنيه إحراق شخص . إنه يعنى : الرعب . . الكراهية . . البكاء . . الضحايا . . الأسرة . . الأقرباء . . الجروح . . الدماء . . الموت . إن الإحراق عندى عمل همجى . . بربرى . . متوحش . إنه هكذا بالنسبة لأى شخص عادى . ولكنه بالنسبة لجريدة الحزب الوطنى كان إجراء ضروريًّا يتم بمقتضاه « إضرام النار فى موقدى الفتنة » . إجراء فيه تعذيب واستئصال وانتقام وتصفية وهمجية . ولكنه الآن أصبح إجراء عادياً تتم الدعوة إليه علناً . . لمجرد أن الخصم يقول رأياً مختلفاً !

هكذا إذن كان عنف الخصام . هكذا كان عبد العزيز فهمى وزير الحقانية يعلم مقدماً أنه فى وسط المعركة لن يجد أحداً واقفاً معه سوى حزبه وجريدة حزبه . أما الذين يقفون ضده فهم الإنجليز خلف الستار ، والملك فؤاد أمام الستار ، وحزب الاتحاد داخل السلطة ، وباقى الأحزاب خارج السلطة .

أما بالنسبة ليحيى إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة ورئيس حزب الاتحاد فإن الموقف يختلف . إنه – للحقيقة – ليس سوى صوت لسيده . إنه مجرد واجهة . مجرد أداة . إن الشعب يتندر عليه بقوله إن يحيى باشا هو رجل « . . شالوه انشال ، وحطوه فانحط » ! لقد أمروه بأن يكون رئيسا لحزب الاتحاد . . فأصبح رئيساً لحزب الاتحاد . وأمروه بأن يصبح رئيساً للوزارة بالنيابة . . فأصبح رئيساً للوزارة بالنيابة . إنه لا يدرى لماذا حطوه .. ولن يدرى فيما بعد لماذا «شالوه» . ولكنه الآن يدرى فقط أن عليه أن يتصرف فى مسألة على عبد الرازق حسب الأوامر التى

يتلقاها من المندوب السامى البريطانى ، ثم من الملك فؤاد .

وعندما عاد رئيس الوزارء بالنيابة من المقابلتين وجد زملاءه الوزراء مازالوا مجتمعين فى انتظاره . إن الترقب يغطى وجوههم ، والإحساس بالأزمة يسيطر على اجتماعهم ، ولكنه هو – يحيى باشا إبراهيم – يسبقه إلى الاجتماع إحساس بالنصر . إن الكلمات سوف تخرج من فمه الآن منتشية . . قوية . . حادة . . مشحونة بالتحدى .

وبلهجة التحدى هذه سأل رئيس الوزراء بالنيابة وزير الحقانية : قلت إيه يا عبد العزيز باشا فى مسألة على عبد الرازق ؟

عبد العزيز فهمى : قلت إننا يجب أولا أن نعرف الرأى القانونى فى مدى اختصاص هيئة كبار العلماء لمحاكمة عالم فى الأزهر .

رئيس الوزراء : إذن . . يا عبد العزيز باشا . . لم يعد ممكناً أن نستمر فى العمل معاً . .

وتساءل وزير الحقانية مندهشاً : ماذا تقصد ؟

– أقصد أنك تستقيل . .

– وأنا لن أستقيل .

– إذن أقيلك أنا . .

وبهت وزير الحقانية من الرد . . ولكنه تمالك وهو يرد معلناً قبول التحدى : أقل كما تريد ! . . السلام عليكم .

* * *

هكذا نهض عبد العزيز فهمى وزير الحقانية واقفاً ، وغادر اجتماع مجلس الوزراء مفكراً فيما يمكن أن يفعله رئيس الوزراء بالنيابة . إن رئيس الوزراء قال له « . . إذن أقيلك أنا » . إن كلمة « أنا » هذه لا يمكن أن تعبر عن رئيس الوزراء . إنها – من لهجتها التى قيلت بها – تدل على سلطة عليا تقف وراءها . هل يمكن أن يحدث هذا ؟ هل يمكن أن

يصدر الملك قراراً بإقالة وزير الحقانية وحده ؟ هل يقرر الملك ذلك ؟ هل يقرر . أولا يقرر ؟ يقرر . . أو لا يقرر ؟

و . . قرر الملك !

إن وزير الحقانية علم بقرار الملك من الصحف — كأى قارئ آخر ليس طرفاً فى الأمر ! إنه — على وجه الدقة — علم بقرار الملك من ملحق خاص أصدرته جريدة « الاتحاد » الناطقة بلسان حزب الاتحاد . فبعد ساعات قليلة من الجلسة العاصفة التى عقدها مجلس الوزراء أصدرت جريدة « الاتحاد » ملحقاً نشرت فيه هذا المرسوم الملكى :

« مادة أولى : كلف على ماهر باشا وزير المعارف العمومية القيام بأعباء وزارة الحقانية إلى أن يعين لها وزير بدلا من عبدالعزيز فهمى باشا» .

مادة ثانية : على رئيس مجلس الوزراء بالنيابة تنفيذ هذا المرسوم .

صدر بسراى المنتزه — ٥ سبتمبر ١٩٢٥ »

* * *

ومن اليوم التالى مباشرة بدأ كل فريق يأخذ موقفاً مع — أو ضد — كل طرف من طرفى الأزمة .

كانت جريدة « الاتحاد » هى التى تتزعم الدفاع عن تصرف القصر ورئيس الوزراء بالنيابة . . فخرجت إلى الناس تزف بشرى إقالة عبد العزيز فهمى وزير الحقانية قائلة إنه إجراء ضرورى لحماية الدين الإسلامى من الاعتداء عليه ، وإن « . . دين الله لن يصاب بسوء فى بلد ينص الدستور فيه على أن الإسلام دين الدولة » .

أما الصحف الأخرى . . فلم يكن يهمها مساندة القصر أو رئيس الوزراء بقدر ما كان يهمها التعبير عن شماتتها فى حزب الأحرار الدستوريين — كخصم سياسى — والذى تعرض رئيسه عبد العزيز فهمى لهذه الإهانة .

قالت جريدة « الأخبار » الناطقة بلسان الحزب الوطنى : « المهزلة الأخيرة هى رفت وزير الحقانية أو طرده إذا شئت ، وطرده أصح

لأن ما وقع قد جاء مزرياً بكل كرامة . . وما كان يجوز أن يقع حتى من مأمور لخفير . . أو من عمدة إلى خادمه » .

وقالت جريدة « البلاغ » الوفدية إن إقالة وزير الحقانية هي النهاية الطبيعية للتحالف الذى تم بين حزب الأحرار الدستوريين وحزب الاتحاد على حساب حزب الوفد . وقالت الصحيفة إن هذا التحالف « . . لم يكن إلا اتفاقاً جنائياً » .

أما جريدة « كوكب الشرق » الوفدية أيضاً . فقد تساءلت عن موقف الوزيرين الدستوريين الآخرين المشتركين فى الوزارة . وتساءلت : « . . هل يستقيلان تضامناً مع زميلهما الذى أقيل . . أم يبقيان حرصاً على مركزيهما فى الوزارة ؟ »

وكانت جريدة « السياسة » هى التى تقف وحدها فى البداية مع رئيس حزبها ، وضد القصر ورئيس الوزراء بالنيابة . لقد خرجت السياسة بمقال نارىّ قالت فيه : « الإسلام والحمد لله بخير . . وليس فى مصر ولا فى غير مصر مسلم يحاول الاعتداء عليه . شعائره يقيمها المؤمنون بلا حاجة إلى حكومة تدفعهم إلى إقامتها . . بل يقيمونها بالرغم من قيام حكومات تبيح ما حرم الله وترخص به : تحل الربا وتحمى بيوت الدعارة وملاهى الفجور وأماكن الخمر والميسر . . إن الناس يعلمون إذن أن مثار المسألة أبعد ما يكون عن الدين . . نحن نقول من جانبنا إن الطريقة التى اتبعت فى إقالة عبد العزيز باشا طريقة شاذة لم تعرف الحياة الدستورية فى الأمم المتمدينة لها مثالا ، كما أنها لا تتفق مع نصوص الدستور بوجه من الوجوه » .

* * *

هكذا وقفت جريدة « السياسة » وحدها ضد الجميع ، فى حين أن المسألة بالنسبة للآخرين لم تكن أكثر من فرصة للشماتة فى الأحرار الدستوريين كخصم سياسى وحسب .

ولكن الشعور بالشماتة سرعان ما بدأ يختفى ليحل محله شعور آخر مضاد . شعور بالخطر . شعور بأن المسألة قد تتعلق بالأحرار الدستوريين . . ولكنها تتعلق فى المكان الأول بسابقة خطيرة يرتكبها الملك . شعور عبرت عنه جريدة « كوكب الشرق » الوفدية بقولها : « كنا نستطيع أن نستغل هذا الحادث كسعديين مخالفين لهم (للأحرار الدستوريين) . . هذا عدا ما فى ذلك الاستغلال من الضرب على وتر الدين الحساس وتنفير الأزهر وعلماء الأزهر من الأحرار الدستوريين . كنا نستطيع أن نستغل ذلك حزبياً . ولكن ضمائرنا أبت هذا الاستغلال ونفوسنا استنكرته ، ووطنيتنا تسامت عن مثل هذه الاعتبارات الحزبية . ومن أجل هذا رجونا الأدباء والمفكرين أن يتخذوا من هذا الحادث موعظة يتعلمون منها أن الأحرار من كل الأحزاب فى حاجة إلى التآزر أمام الأفكار الرجعية مما يمس الدستور وما كفل من الحريات العامة » .

وسرعان ما بدأت جريدة « السياسة » توجه نيرانها إلى المحرك الحقيقى فى الأزمة كلها : الملك فؤاد . قالت جريدة « السياسة » فى مقال كتبه الدكتور محمد حسين هيكل : « ليس أتعس من أن تعيش الأمم عيش نفاق وتضليل . وليس أتعس من أن تنشر على الناس راية الحرية — لا ليكونوا أحراراً — ولكن لتحجب هذه الراية عن أبصارهم ما وراءها من هوة سحيقة هى هوة الاستبداد البشع الذى يعمل ليقتل كل قلب يعقل ، وكل نفس تحس ، وكل روح تؤمن بالله ، وبما وهب الله الناس من حرية وحياة . نريد أن نعرف ، ونريد أن يعرف العالم : هل لمصر نظام هو الدستور تحكم على موجبه . . أم لها غير الدستور نظاماً خفياً تتحرك خلال ظلماته أيد تفتك بما قرر الدستور من حقوق ثم يكون لهذا الفتك مقامه واحترامه ؟ نريد أن نعرف . . فقد سئمنا المواربة ونريد أن نخرج من عيش النفاق ، فكل منافق شيطان وكل شيطان فى النار . . »

* * *

كانت جريدة « السياسة » تريد أن تعرف ، وحزب الأحرار الدستوريين يريد أن يعرف : أيهما يحكم مصر . . الدستور أم الملك فؤاد ؟ سؤال أساسي . سؤال حاسم لتحديد طبيعة المعركة كلها . .

ولكن . . كانت جريدة « السياسة » تعرف !

كانت « السياسة » تعرف ، وحزب الأحرار الدستوريين يعرف ، والناس كلها تعرف : أن الذى يحكم مصر هو أولا المحتل الإنجليزي ، ثم ثانياً الملك فؤاد .

الجميع يعرفون . . والجميع يتصرفون كما لو كانوا لا يعرفون ! تلك هي المأساة الحقيقية فى الأزمة كلها .

الجميع يعرف أنه فى السياسة . . إذا كان هناك من حصل على أكثر من حقه من السلطة . . فلأن هناك من رضى بأقل من نصيبه . .

الجميع يعرف . . أنه إذا كانت سلطة الملك فؤاد قد زادت اليوم فلأن هناك من نزل عن جزء من سلطته أمس . إن كتاب جريدة « السياسة » وزعماء حزب الأحرار الدستوريين ، يستنجدون اليوم بالدستور ، لكبح جماح الملك . . ولكنهم هم أنفسهم يعلمون أن الدستور معطل . وهم أنفسهم قبلوا الاشتراك فى وزارة غير دستورية منذ ستة أشهر . هذا هو التناقض . هذا هو اللامعقول .

ولكن . . . هناك منطق فى اللامعقول ، مثلما هناك دائماً منطق فى أسوأ الأشياء . إن منطق الأحرار الدستوريين فى قبول الاشتراك بالوزارة كان بسيطاً : محاربة حزب الوفد . لقد رأوا الإنجليز والملك يشنان حملة ضارية ضد حزب الوفد كجزء من تأديب الشعب . . فأراد حزب الأحرار الدستوريين أن يستفيد من هذه المعركة لمصلحته . لقد تصور أنه بالاشتراك فى محاربة الوفد — إنما يضعف من سيطرته . . لهذا اشتركوا مع الملك فؤاد فى المعركة ضد الوفد . ولكن الملك فؤاد كان يريد إضعاف الوفد لحسابه الخاص . . وليس لحساب الأحرار الدستوريين . لهذا وجد

الأحرار الدستوريون نتيجة عملهم أمامهم الآن : إنهم لم يرثوا حزب الوفد . . لأنه فى السياسة لا لأحد يرث أحداً . إن حزب الوفد – صحيح – قد أصبح أقل قوة ، ولكن الملك فؤاداً قد أصبح أكثر قوة ، الملك فؤاد . . وليس حزب الأحرار الدستوريين . لقد أفاق الأحرار الدستوريون – بعد ستة أشهر من اشتراكهم بالوزارة على هذه الحقيقة المرة . حقيقة أن تضحياتهم قد ذهبت بلا مقابل . . ثم تحولت الآن ضدهم . لقد قبلوا من البداية تعطيل الدستور . . وقبلوا الاشتراك فى وزارة تحكم بلا دستور . ثم اكتشفوا الآن فقط أن هذا العمل تحول إلى سلاح ضدهم . . مثلما هو سلاح ضد حزب الوفد . .

نعم ، هذه واحدة من مآسى السياسة المصرية والأحزاب المصرية والثقافة المصرية فى تلك الفترة .

إن المثقفين كانوا ينادون بالدستور كشعار دائم ، ولكنهم كانوا أيضاً ينسون هذا كله – ويتصرفون بعكس هذا كله – عند أول مكسب عاجل . ولأنهم كانوا يبحثون عن المكاسب العاجلة . . فقد كانوا يفقدون دائماً المكاسب الآجلة . إن معظمهم لم يكن يرى أبعد من أنفه. إنهم مع الدستور . . مادام الدستور شعاراً . . إنهم يريدون الحرية والدستور والقانون . أمرطيب . ولكنهم كانوا يريدون هذا كله لأنفسهم فقط . . وضد معارضيهم . يريدون الحرية لأنفسهم حينما يكونون فى المعارضة . . ويمنعونها عن معارضيهم حينما يصبحون فى السلطة ، يريدون الدستور لمساندتهم حينما يكونون ضعافاً . . ويمنعون الدستور عن غيرهم حينما يصبحون أقوياء . يريدون القانون لمساندتهم حينما يواجهون السيف . . ويمنعون القانون عن غيرهم حينما يحملون السيف .

هذه هى المأساة .

إن الذين لا يساندون القانون فى الساعة الثامنة . . لن يساندهم القانون فى الثامنة وخمس دقائق . الذين يوافقون على انتهاك الدستور فى الصباح ،

يجب ألا يستنجدوا بالدستور فى المساء . الذين أيدوا مصادرة الحرية لأنها ميزة لهم منذ ستة أشهر . . يجب ألا يحتجوا ضد مصادرة الحرية لأنها أصبحت سلاحاً ضدهم بعد ستة أشهر .

إن عمى الألوان يصور لبعض المثقفين أحياناً أن الحرية الأكاديمية يمكن الاحتفاظ بها فى غياب الحرية السياسية . . مستحيل . إن من الصحيح أن الأولى أقدم من الثانية . . ولكن الصحيح أيضاً أن غياب الثانية يقتل الأولى . إن أحمد بهاء الدين عبر عن هذه المشكلة بكلمات أخرى عند ما كتب يقول : « إن هناك فرقاً بين الحرية كعقيدة اجتماعية تؤدى إلى نظم وحقوق وواجبات ، وبين الحرية كمنهج فكرى يقوم على أسس فلسفية » . إن الخطأ الذى وقع فيه كتاب جريدة « السياسة » أنهم كانوا يؤمنون بالحرية كمنهج فكرى ولكنهم لم يكونوا يتحمسون الحماس نفسه لحرية الشعب كعقيدة اجتماعية . .

ليكن . .

المهم أن جريدة « السياسة » كانت تواصل احتجاجها ضد تصرف الملك فؤاد يوماً بعد يوم . . احتجاج ضد الملك . . ضد انتهاك الدستور ، ضد مصادرة حرية الرأى . ووسط المعركة التى كان حزب الأحرار الدستوريين يخوضها فى مواجهة الملك بسبب إقالة رئيسه . . كان على الحزب أن يخوض معركة أخرى فى مواجهة نفسه .

إن السؤال هو : كيف يرد الحزب على قرار الملك فؤاد بطرد عبد العزيز فهمى من الوزارة ؟ إن للحزب وزيرين آخرين فى الحكومة (محمد على علوبة وتوفيق دوس) . . أيستقيلان تضامناً مع زميلهما . . أم يبقيان فى السلطة بالرغم من طرد زميلهما ؟ مشكلة قرر الحزب عقد اجتماع استثنائى عاجل لبحثها .

إن الدكتور محمد حسين هيكل . . رئيس تحرير جريدة « السياسة » وعضو مجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين يروى ما حدث قائلا :

اجتمع مجلس الإدارة مساء فى دار الحزب . . وكان اجتماعاً تاريخياً حقاً بما دار فيه وبالنتائج المترتبة عليه . لقد بدأ توفيق دوس باشا يعرض ما حدث ، ويذكر ما دار بينه وبين رجال القصر ، وما دار بخاصة بينه وبين مستر نيفل هندرسون المندوب السامى البريطانى بالنيابة ، من أحاديث يراد بها تخطى هذا الموقف الدقيق . . وتكلم بعده علوبة باشا كلاماً موجزاً فى الاتجاه نفسه . فلما فرغ الوزيران من عرض ما كان بالإسكندرية تكلم الأستاذ محمد عبد الجليل أبو سمرة فطلب إلى الهيئة أن تتخذ القرارات التى كنا قد اتفقنا عليها . وتلا هذه القرارات وفى مقدمتها استقالة الوزيرين الدستوريين ، وتخلى الحزب عن الاشتراك فى الوزارة . ثم قال إنه يعجب كيف بقى الوزيران فى منصبهما بعد إقالة رئيس الحزب ، وبعد هذه اللطمة التى أصابت الحزب ، فى صميم كرامته . وقاطعه توفيق دوس باشا قائلا : « إننا نعرف واجبنا ، ونحن لم نحضر إلى هنا ليشتمنا عبد الجليل بك » .

هكذا سار الاجتماع العاصف . هكذا انتهى إلى قرار باستقالة الوزيرين الدستوريين وتخلى الحزب عن الاشتراك فى الوزارة. هكذا استقال الوزيران فعلا فى اليوم التالى .

ولم يكن كل هذا غريباً . فهو أقل ما يمكن للرد على لطمة الملك فؤاد . ولكن الغريب هو تردد الوزيرين الدستوريين فى الاستقالة . إن توفيق دوس باشا لم يقبل السكوت لحظة على استغراب زميله فى الحزب بعد بقائه فى الوزارة ، ولكنه قبل السكوت أربعة أيام على طرد رئيس حزبه من الوزارة . هذا إغراء السلطة . هذا هو الصراع بين السلطة والمبدأ . بين المناداة بشعار لا يكلف شيئاً . . ثم تطبيق هذا الشعار عندما يكلف منصباً . .

وقبل أن يمضى يوم آخر كان إسماعيل صدقى ، وزير الداخلية الذى يستشفى فى أوربا — قد أرسل باستقالته من الوزارة تلغرافياً تضامناً مع

موقف الأحرار الدستوريين . .

بهذه الاستقالة يكون كتاب على عبد الرازق – سبب الأزمة كلها – قد أدى إلى إقالة وزير واستقالة ثلاثة وزراء ، وانهيار ائتلاف وزارى ، وقيام أزمة سياسية ضخمة . . كما لم يحدث مع أى كتاب آخر فى تاريخ مصر السياسى .

وقبل أن نعود إلى صاحب الأزمة كلها . . على عبد الرازق . . لابد أن نسأل أنفسنا مرة . هل وعى حزب الأحرار الدستوريين الدرس ؟

إن عبد العزيز فهمى رئيس الحزب ، والوزير الذى أقاله الملك فؤاد . . سرعان ما وقف يخطب . . فى أول اجتماع بأعلى صوت . « إن من الواجب علينا أن نحافظ على الدستور فى كل مقام بقطع النظر عن أى اعتبار » كلام فيه عقل ومنطق . ولكن فيه عيباً خطيراً : إن عبد العزيز باشا يتمسك الآن بالدستور بعد أن أصبح فى كرسى المعارضة . . إنه الآن لم يعد يملك شيئاً يحميه فى مواجهة الملك . . لا سلطة ، ولا وزارة ، ولا برلمان ، ولا دستور . .

مرة أخرى يحلو الكلام عن الدستور من كراسى المعارضة . هل يحلو أيضاً عندما يعود حزب الأحرار الدستوريين إلى السلطة ؟ سؤال معلق فى تاريخ مصر السياسى .

إن السؤال معلق . ولكن هناك رجلا آخر معلقاً : على عبد الرازق .

إن الكاتب الشاب على عبد الرازق دافع عن رأيه بشجاعة ، وتلقى عقوبته فى صمت ، وانزوى إلى النسيان فى مرارة . نعم . النسيان . فالرجل الذى تسبب كتابه فى أضخم أزمة سياسية عاد إلى حياته فى هدوء . . بلا وظيفة ولا مرتب . . ولا تقدير . . ولا – حتى – رد اعتبار . إن الصداقة معه أصبحت تهمة ، والتضامن معه أصبح جريمة ، والكتابة عنه أصبحت خطيئة . إنه لو لم يكن ينتمى لأسرة غنية لمات جوعاً وفقراً وحرماناً . ولكن الحرمان من الرأى هو أحياناً أسوأ ألف مرة من

الحرمان من الطعام ، فأن يكون الإنسان صاحب رأى . . ثم لا يملك الحق في إعلان رأيه . . هو حكم دائم عليه بالحياة مع القطيع ، مع البقرة والجاموسة والثور والحصان والأرنب والحمار ، وكل حيوان لا عقل له . إن الرأى موجود فى عقل على عبد الرازق . ولكن صاحبه لا يجرؤ بعد الآن على الدفاع عنه .

و . . .

عندما بدأ بعض الأشخاص يفكرون فى إعادة طبع الكتاب تقديراً لمؤلفه ورداً لاعتباره . . فإن الفكرة لم تراودهم إلا بعد مرور ٤١ سنة على صدور الكتاب . . لقد كان لابد من الانتظار . . انتظار سقوط الملك فؤاد، ثم سقوط الملك فاروق ، ثم قيام الثورة ، ثم طرد الإنجليز . نعم . لابد من هذا كله . . حتى لايعاقب المؤلف على كتابه مرتين . .

وقبل أن يتوفى الشيخ المؤلف على عبد الرازق . . فى صمت ومرارة سنة ١٩٦٦ — ذهب إليه أحد الكتاب يطلب موافقته على طبع الكتاب من جديد . وفى منزل على عبد الرازق دار الحوار التالى بين الناشر والمؤلف :

— هل تسمح لنا بإعادة طبع كتابك العظيم (الاسلام وأصول الحكم)؟

— لا . . لا . . ياسيدى .

— لماذا . . ؟ هل أنت تتخلى عن كتابك ورأيك ؟

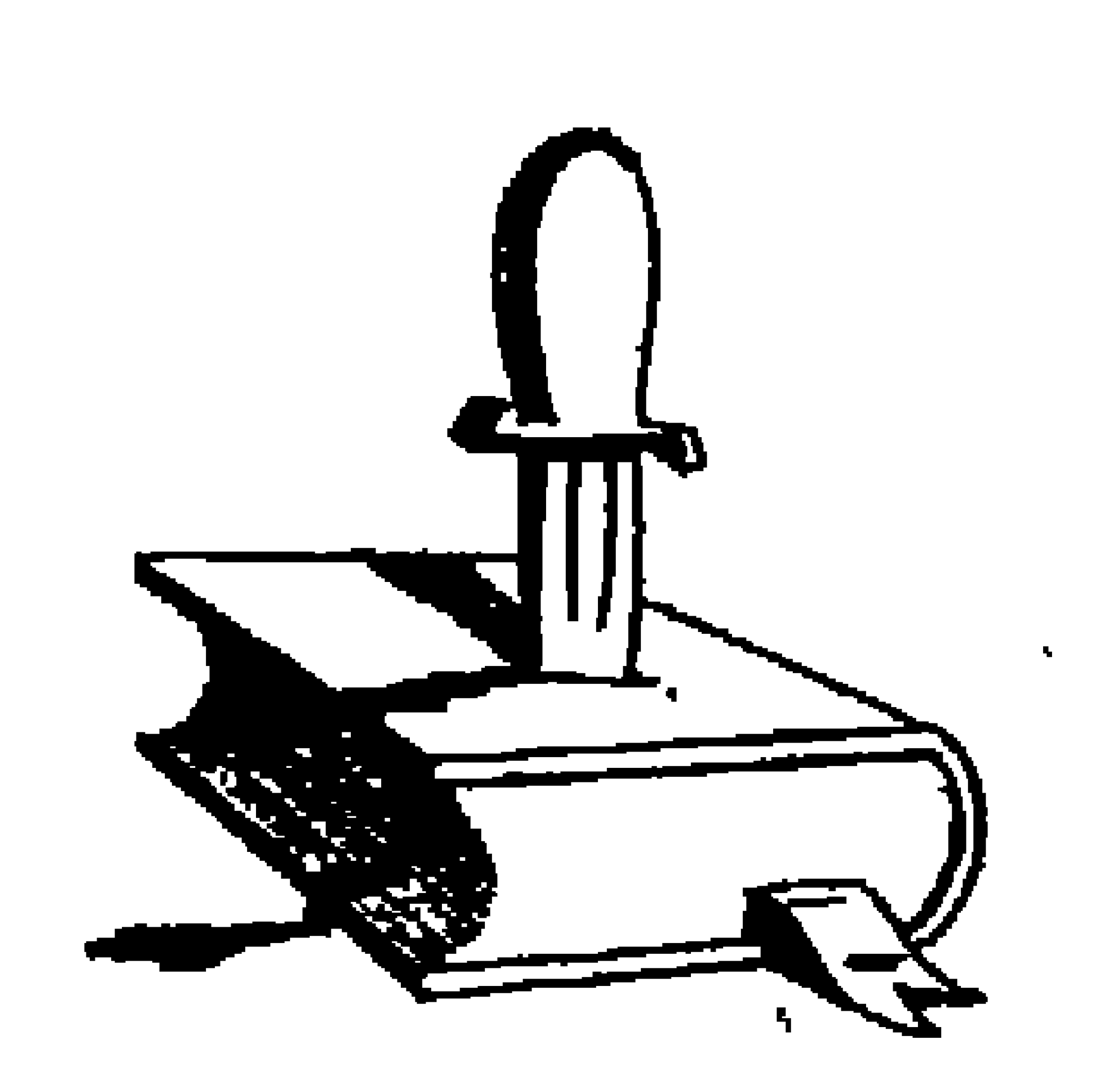
— لا . . لست أتخلى عنه أبداً . . ولكننى لست مستعداً لأن ألاقى بسببه أى أذى جديد . إننى ماعدت أستطيع ذلك . كفانى مالقيته . . هل تعرف أنهم كادوا يطلقونى من زوجتى ؟

— لهذا الحد ؟

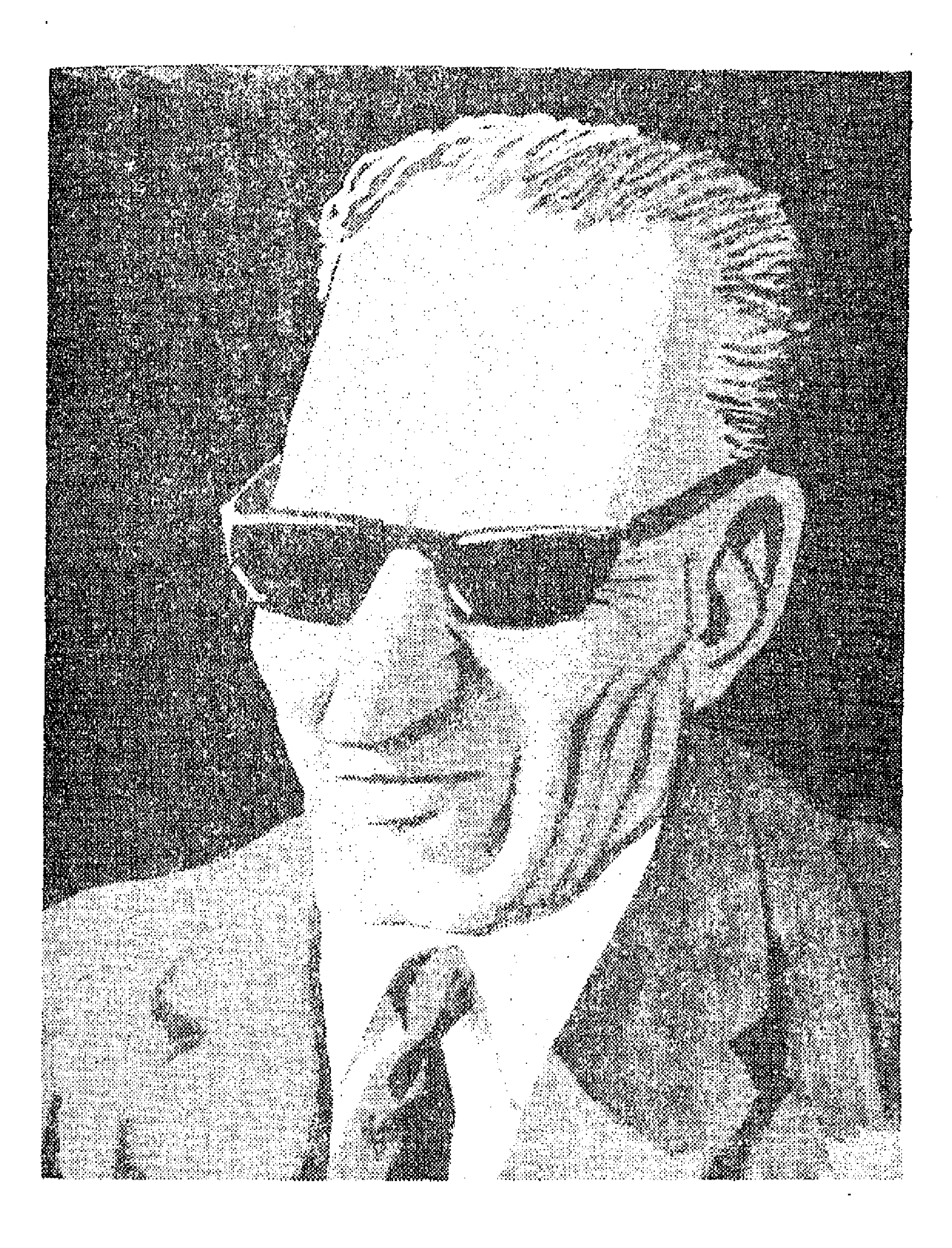
— نعم . . على أننى لحسن الحظ لم أكن متزوجاً حينذاك . . فضاعت عليهم الفرصة .

— لقد انتهى ذلك العهد البغيض . . ولن تلقى اليوم (١٩٦٦) ولن يلقى كتابك غير التكريم والتقدير والإشادة . من المفكرين ومن الدولة على السواء . .

— من يدريني؟ من يدريني ؟ أريد تأكيد أمن الدولة .. أريد ضماناً.
— إن واقعنا الفكرى والاجتماعى الجديد هو خير ضمان .
وهز الشيخ على عبد الرازق رأسه قائلا فى مرارة : لم أعد أحتمل أى مغامرة جديدة . . من يدرى ؟ اطبعوا الكتاب على مسئوليتكم ، ولا تطلبوا منى إذناً بغير ضمان أكيد أطمئن إليه» .
كلمات قالها على عبد الرازق فى سنة ١٩٦٦ ، ثم . . مات ! مات بلا ضمان !



طه حسين



٨

طه حسين .. ضد الحكومة !

فى يوم الأربعاء ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢ عقد مجلس وزراء الحكومة المصرية جلسة خاصة لحسم موضوع ناقشه البرلمان وناقشته الصحف من قبل . موضوع خطير .

فى هذه الجلسة لم يتحدث أحد من الوزراء سوى وزير المعارف . وحينما انتهى مجلس الوزراء من سماع تقرير وزير المعارف العمومية خرج إسماعيل صدقى رئيس الوزراء إلى مندوبى الصحف وأذاع عليهم البيان القصير التالى :

« . . قرر مجلس الوزراء فصل الأستاذ طه حسين أفندى . الموظف بوزارة المعارف العمومية . من خدمة الحكومة » .

بهذا القرار القصير — ١٥ كلمة — اعتبر رئيس الوزراء أن الأزمة التى استمرت قائمة ست سنوات كاملة . . قد انتهت . انتهت بحل ترضاه جميع أطراف الأزمة : الملك فؤاد ، السفير البريطانى ، مجلس الشيوخ ، مجلس النواب ، الأزهر ، حل يرضاه الجميع . . ما عدا شخصاً واحداً يهمه الأمر : طه حسين .

فى هذا اليوم خرج طه حسين مطروداً من العمل بالحكومة ، خرج ذاهباً إلى منزله ؟ وفى المنزل كان الجميع فى انتظار طه حسين زوجته . . . وأولاده . ولكن ضيفاً آخر كان قد وصل إلى المنزل منذ دقائق . ضيف ثقيل الظل : خطاب من بنك مصر .

إن الخطاب يضم إخطاراً قصيراً من البنك بأنه قد أصبح مديناً للبنك بثمانية جنيهات . . يجب عليه دفعها فوراً . . و بحث طه حسين فى جيبه فلم يجد قرشاً واحداً . لم يجد شيئاً مطلقاً .

ولكن النقود لم تكن هى الشىء الوحيد الذى هرب من طه حسين ؛ لقد هرب منه الجميع قبل ذلك بوقت طويل : هرب منه الزملاء والأصدقاء والأقرباء . ضاعت منه الوظيفة والنقود .. والسمعة .

وفى غياب كل هؤلاء يصبح لدينا متسع من الوقت لكى نتابع الأزمة التى أدت إلى كل هذه النتائج . أزمة بدأت قبل ذلك اليوم بست سنوات كاملة . بدأت بقرار أصدرته النيابة العامة بالتحقيق مع طه حسين . قرار يحسن أن نقرأه من أول سطر فيه .

« . . نحن محمد نور رئيس نيابة مصر :

من حيث إنه بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٩٢٦ تقدم بلاغ من الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالى بالأزهر لسعادة النائب العمومى يتهم فيه الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية بأنه ألف كتاباً أسماه (فى الشعر الجاهلى) ونشره على الجمهور ، وفى هذا الكتاب طعن صريح فى القرآن العظيم . . حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوى الكريم . . إلى آخر ما ذكره فى بلاغه .

« وبتاريخ ٥ يونيو سنة ١٩٢٦ أرسل فضيلة شيخ الجامع الأزهر لسعادة النائب العمومى خطاباً يبلغ له به تقريراً رفعه علماء الجامع الأزهر عن كتاب ألفه طه حسين المدرس بالجامعة المصرية أسماه (فى الشعر الجاهلى) كذب فيه القرآن صراحة وطعن فيه على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى نسبه الشريف ، وأهاج بذلك ثائرة المتدينين وأتى بما يخل بالنظم العامة ويدعو الناس للفوضى ، وطلب اتخاذ الوسائل القانونية الفعالة الناجعة ضد هذا الطعن على دين الدولة الرسمى وتقديمه للمحاكمة .

« وبتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦ تقدم إلينا بلاغ آخر من حضرة عبد الحميد البنان أفندى عضو مجلس النواب ذكر فيه أن الأستاذ طه حسين المدرس بالجامعة المصرية نشر ووزع وعرض للبيع فى المحافل والمحلات العمومية كتاباً أسماه (فى الشعر الجاهلى) طعن

وتعدى فيه على الدين الإسلامى وهو دين الدولة بعبارات صريحة واردة فى كتابه سيبينه فى التحقيقات .

وحيث إنه نظراً لتغيب الدكتور طه حسين خارج القطر المصرى . . قد أرجأنا التحقيق إلى ما بعد عودته . . . »

* * *

هذه هى البداية الطبيعية للموضوع . بلاغات متلاحقة للنيابة العامة ضد طه حسين — وكان وقتها أستاذاً بالجامعة . بلاغات من جهات راسخة وأفراد عديدين . بلاغات تتكرر فيها اتهامات خطرة مثل : الطعن فى القرآن ، الإخلال بالنظام العام ، دعوة الناس للفوضى . بلاغات تطالب بإجراءات — كالاتهامات — خطرة مثل : تقديمه للمحاكمة ومعاقبته .

إن الكتاب الذى أثار كل هذه الضجة هو الذى تكرر اسمه فى كل بلاغ قدم للنيابة . كتاب (فى الشعر الجاهلى) . كتاب أصدره الدكتور طه حسين فى سنة ١٩٢٦. سنة بلغ فيها طه حسين السابعة والثلاثين.

إن طه حسين لم يتصور — حينما ألف الكتاب — أن شيئاً من هذا يمكن أن يحدث كرد فعل لأقواله فى الكتاب . إن ما ذكره طه حسين فى كتابه بسيط . هذا هو :

« . . إن الكثرة المطلقة مما نسمية أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام . فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . ولا أكاد أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شىء ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى » . .

هذا كل ما قاله طه حسين فى كتابه . هذا جوهر نظريته الجديدة التى خرج بها. إن طه حسين يقدر « . . . النتائج الخطيرة لهذه النظرية ،

ولكن مع ذلك لا أتردد فى إثباتها وإذاعتها » .

هذه إذن نظرية أولا تهم المشتغلين بالأدب ، قبل أن تهم المشتغلين بالسياسة . فإذا كانت النظرية خطيرة كما كتب طه حسين ، فيجب أن ينزعج الأدباء — لا السياسيون — لخطورتها .

ولكن . . لم يكن هذا ما حدث .

لقد أزعجت هذه النظرية كل شخص . كل شخص ما عدا المشتغلين بالأدب ! ! أزعجت الأزهر والبرلمان والملك والنيابة العامة ومجلس الوزراء . . ولم تزعج المشتغلين بالأدب ولا المهتمين به .

لماذا ؟ . لماذا حدث كل ذلك .

إن السبب كان بسيطاً . إن هذه النظرية كانت خطيرة بالنسبة لهؤلاء جميعاً — ليس بسبب الكلمات التى تقولها — ولكن بسبب أسلوب التفكير الذى تعبر عنه . أسلوب يظهر واضحاً من كلمات طه حسين فى الكتاب بقوله : « . . ربما كان من الحق أنى أحب أن أفكر ، وأحب أن أبحث ، وأحب أن أعلن إلى الناس ما أنتهى إليه بعد البحث والتفكير ، ولا أكره أن آخذ نصيبى من رضا الناس عنى أو سخطهم على حين أعلن إليهم ما يحبون أو ما يكرهون . . »

هذا إذن هو الجزء الخطير فى الموضوع . هذا هو الجزء المزعج حقاً . إن طه حسين يريد أن يفكر ، وأن يخرج بنتائج تفكيره على الناس حتى ولو صدمت أفكارهم الراسخة منذ وقت طويل مضى .

إن طه حسين يؤكد هذا الانطباع مرة بعد مرة خلال صفحات الكتاب . إنه يقول مثلا :

« نحن بين اثنتين : إما أن نقبل فى الأدب وتاريخه ما قال القدماء ؛ لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذى لا يخلو من كل بحث . . وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث . لقد نسيت . فلست أريد أن أقول البحث : وإنما أريد أن أقول الشك . أريد ألا

أقبل شيئاً مما قاله القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت . . إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان .

« والفرق بين هذين المذهبين فى البحث عظيم . فهو الفرق بين الإيمان الذى يبعث على الاطمئنان والرضا . . والشك الذى يبعث على القلق والاضطراب وينتهى فى كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود . المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لايناله تغيير ولا تبديل ، ولا يمسه فى جملته وتفصيله إلا مساً رقيقاً . أما المذهب الثانى فيقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئاً كثيراً » .

آه . . هذا ما يريده طه حسين منا أخيراً . ألا نأخذ القديم على علاته لمجرد أنه قديم . ألا نصدق آباءنا فى التاريخ الذى رووه لمجرد أنهم آباؤنا . لا . طه حسين لايريد ذلك . يريد لنا عقلا واعياً . . يبحث ويقارن ويشك ويفحص ويراجع . . ثم فى النهاية . . يؤمن .

بهذا الأسلوب فى التفكير . ذهب طه حسين إلى الماضى يفحصه . ذهب ينقب فيما ورثناه من الأدب الجاهلى والشعر الجاهلى . إنه يريد لنا أن « . . نستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل ، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التى تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضاً » .

لهذا السبب ذهب طه حسين إلى الماضى يفحص بغير قيود على يده وعقله . ذهب يفحص الأدب الجاهلى ويرفض منه مالا يوجد دليل على صحته . إنه يرى أن القدماء « . . أغلقوا على أنفسهم فى الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء فى الفقه والمتكلمون فى الكلام » . إن طه حسين يريد إذن أن يفتح باب الاجتهاد فى الأدب . هذه إذن هى خطورته . هذه هى فكرته . فكرة تعارضها الأغلبية فى مصر :

وطه حسين نفسه يعلم ذلك . يعلم أنّ باب الاجتهاد قد أغلق فى الأدب بعد أن أغلق فى الفقه . ويعلم أنّ هذا هو « . . مذهب أنصار القديم ، وهو المذهب الذائع فى مصر ، وهو المذهب الرسمى أيضاً ، سارت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها على ما بينها من تفاوت واختلاف » .

إن طه حسين إذن يعارض المذهب الرسمي المعترف به فى التفكير الأدبى . ولكنه « . . مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوماً وشق على آخرين ، سيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم فى حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة وذخر الأدب الجديد » .

لهذا الهدف ـ بهذا الأسلوب وهذه النظرة ـ ذهب طه حسين يفحص الأدب الجاهلي والشعر الجاهلى . إنه يستمد أدلته من القرآن لأنه يرى أن « . . القرآن أصدق مرآة للجاهلية . . . فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت آياته إلا أن تكون بينهم وبينه صلة » . نظرية يظل طه حسين يقيم الدليل عليها طوال صفحات الكتاب . بقلب مسلم وعقل يشك . . أخرج طه حسين كتابه إلى الناس فى تلك الأيام من سنة ١٩٢٦ . أخرج الكتاب ثم سافر إلى فرنسا ليقضى بها إجازة الصيف . وحينما رست الباخرة بطه حسين على ذلك الجزء من الشاطئ الفرنسى ، هبط طه حسين على سلم الباخرة ، دون أن يعلم ماذا تخبئه له الأيام . . هنا . . فى مصر .

فوجئ طه حسين ـ وهو فى إيطاليا ببرقية عاجلة جاءت إليه من القاهرة . البرقية ـ ككل البرقيات ـ مختصرة ، مركزة . . ولكنها ـ أيضاً ـ خطيرة . هذه هى :

« عرض على البرلمان كتابك الأخير . ناقش البرلمان طردك من الجامعة . هدد رئيس الوزراء بالاستقالة . تدخل سعد زغلول ، أحيل الموضوع إلى النيابة العامة . النيابة تطلبك للتحقيق معك أرجو حضورك حالا » إمضاء محمد المرصفى .

تلقى طه حسين هذه البرقية من صديقه القديم محمد المرصفى . . دون أن يعلم بالضبط حقيقة ما جرى . فى الواقع أن المرصفى لم يذكر لطه حسين فى برقيته أسوأ ما جرى .

لم يذكر له مثلا أن المعارضين للكتاب دفعوا طلبة الجامع الأزهر على القيام بمظاهرة تتوجه إلى بيت سعد زغلول . مظاهرة ضخمة . لقد استقبلهم سعد فى بيته — بيت الأمة — حيث ذهبوا إليه يطالبونه كرئيس لحزب الأغلبية فى البرلمان بمطالبة الحكومة باتخاذ إجراءات رادعة مع طه حسين . إجراءات مثل طرده ومحاكمته ومعاقبته . إجراءات مثل إعلان كفره وإلحاده رسمياً . مرة أخرى تتلاحق الاتهامات المحفوظة من قبل ضد كل من يقدم للمجتمع فكرة جديدة : ملحد . . فاسق . . زنديق . . كافر . . خارج على القانون والدين والأدب . . قليل الأدب طه حسين ! لابد من رأسه ! ليس أقل من رأسه !

وقبل متابعة تطورات الأزمة يثور السؤال من جديد : لماذا كل هذا ؟ لماذا كل هذه الضجة ؟ لماذا قدم النائب الوفدى عبد الحميد البنان استجوابه فى البرلمان لوزير المعارف ؟ لماذا ذهبت المظاهرات إلى بيت سعد زغلول تطالب برأس طه حسين ؟

مرة أخرى كان السبب بسيطاً . إن المجتمع لديه أفكاره الخاصة عن الأدب والسياسة والدين والتعليم . . إلخ . أفكار جاهزة سلفاً وموجودة مقدماً . أفكار يجب على كل عضو فى المجتمع أن يقبلها بغير مناقشة ، أو فحص ، أو مراجعة . أفكار ورثها المجتمع عن آبائه وأجداده . لقد استقرت هذه الأفكار ، ليس لأنها صحيحة ولكن لأنها قديمة . إنها قديمة ومن ثم مقدسة ، ومن ثم لا تقبل المناقشة . فإذا جاء واحد من أفراد المجتمع — طه حسين فى حالتنا هذه — ليناقش أفكار المجتمع فى الأدب ويفحصها ويرفض منها ما يرفضه ويقبل ما يقبله . . فيجب أن يتعرض هذا الفرد للعقاب العام . عقاب صارم .

إن من عادة المحكمة أن تدين المجرمين كتحذير لغير المجرمين . إنها لا تدينهم لأنهم أخطأوا .. فلقد وقعت الجريمة ولا يمكن تصحيحها . ولكن المحكمة تدين المجرم حتى لا يكرر جريمته مرة أخرى ، وحتى — وهذا أهم — لا يسير الآخرون فى طريقه . إن المحكمة إذن لا تستفيد شيئاً من الحكم على مجرم بالإعدام . هذا هو الدرس . هذه هى الحكمة . إنها نفس الحكمة التى تدفع المجتمع إلى المطالبة برأس طه حسين . إن المجتمع يريد أن يعاقب طه حسين على جريمته . إن جريمته هى أنه أراد التفكير بحرية . أراد أن يشك . . ويناقش . . ويتساءل علناً . لهذا لابد أن يقدم المجتمع تحذيراً للآخرين . . من خلال طه حسين . إذا مر طه حسين بغير عقاب فسوف يتبعه آخرون : إذا مر بعد قطع رأسه . . فلن يجرؤ أحد على السير فى طريقه .

هذه إذن هى ظروف المعركة . مجتمع دخل الكهف — بأفكاره — منذ ألف سنة . وحينما خرج المجتمع المصرى من الكهف وجد النور — نور العلم والحضارة — أقوى من عينيه . النتيجة : قدم المجتمع استقالته من القرن العشرين . عاد إلى الكهف من جديد . فى داخل الكهف يلتمس المجتمع التعزية . إن عظمة آبائه وأجداده ، لم تكن بالنسبة له دافعاً إلى العظمة مثلهم ، ولكنها كانت بديلا وتعويضاً . العظمة تريد مجهوداً ، تريد عقولا تفحص وتناقش وتراجع وتتعلم . ولكن المجتمع لم يكن يريد ذلك فى تلك الفترة المبكرة من القرن العشرين . كان يريد فقط أن يظل على أفكاره التى ورثها منذ ألف سنة . فى داخل الكهف يحصل المجتمع على الدفء والراحة — راحة البال وراحة العقل . . ثم يحصل أيضاً . . على الظلام . إن هذا الكهف الفكرى هو ملجأ للمجتمع ضد المستقبل ، ضد الزمن . لهذا يسد المجتمع بسرعة كل ثقب يدخل منه النور إليه فى داخل كهف . .

إن كل ما كان المجتمع يريده هو الاستقرار . كيف عاش آباؤنا .

لنعيش مثلهم ؟ كيف فكر أجدادنا . . لنفكر مثلهم ؟ هذا هو
السؤال . أما أن يكون لنا أسلوبنا الخاص فى التفكير . . طريقتنا
الخاصة فى الحياة . . فهذا مالا يريده المجتمع . إنه لا يريد التجديد ،
ولكن يريد الاستقرار . الاستقرار يعنى الثبات . الثبات يعني الركود .
يعنى أن كل شيء يجب أن يبقى على ماهو عليه . . لا . . آسف . .
الركود يعني أن كل شيء يجب أن يبقى على ما كان عليه . « كان » هنا
مهمة جداً . . فالأكذوبة يجب تصديقها . . ليس لأنها صحيحة . .
فهى أكذوبة — ولكن لأنها جاءت إلينا من الماضى . الماضى مقدس .
شيء ننظر إليه ولا نستفيد منه . نعبده ولا نقترب منه ، تماماً كأبقار الهند .
الماضى شيء اكتمل وانتهى وأغلق باب الاجتهاد فيه أو الإضافة إليه .
الماضى تسلمناه من أجدادنا هكذا ويجب أن يبقى هكذا . إياك أن تقترب .
ممنوع اللمس أو الاقتراب أو النظر . ممنوع التفكير . إن الماضى لا يحتاج
إلى التفكير فيه . أجدادنا قاموا عنا بهذه المهمة . الماضى لا يحتاج
إلى عقل للمناقشة . أجدادنا كانوا أكثر منا عقلاً وحكمة . لقد قاموا
بالتأمين على تفكيرنا ضد الحريق والعواصف والمراجعة والفحص .
تأمين ضد المستقبل . وقتها كانت حضارتنا فى قمتها . كانت عظمتنا فى
أوجها . بعدها لم يعد أحد يستطيع أن يكون عظيماً . لقد أحرز أجدادنا
كل البطولة والعظمة وأصبح الباب مغلقاً بعدهم . ابتداء من القرن السابع
علينا أن نتحسر على هذا الماضى ونعبده . علينا أن نسير إلى الأمام —
فى القرن العشرين — وعيننا إلى الخلف — فى القرن السابع . وإذا وقع
المجتمع فى أى حفرة — كل حفرة . فإنه يقع لأنه لا يرى ما أمامه . لا يعمل
لمستقبله . يعمل فقط لماضيه . يضيف إليه الأسطورة بعد الأسطورة حتى
يبدو أعظم وأعظم . . فيعوضنا عما صرنا إليه . لقد ذهب أجدادنا إلى
قبورهم . ولكنهم تركوا لنا أشباحاً تطاردنا . تطارد كل من ينظر
إلى الماضى بعينين مفتوحتين . تطارد كل من يفكر بحرية ، ويرفض

الأفكار الجاهزة مقدماً . أشباح تقول نعم أو تقول لا . . لكل من يريد أن يبحث ويقارن ويقتنع .

ولقد كانت المشكلة مع طه حسين أنه أراد إعادة النظر فى واحدة من الأفكار الجاهزة مقدماً فى مصر . أراد إعادة النظر فى الأدب . لقد فعل ذلك بعد أن شرب القدر الذى أراده له المجتمع من أفكاره . تعلم فى الكتاب والمدرسة والأزهر والجامعة . ولكنه سافر بعد ذلك إلى أوربا . ترك الماضى فى مصر وسافر إلى أوربا . هناك رأى حضارة أخرى وتفكيراً آخر . هناك أيضاً استطاع أن يفكر لماذا لا تكون لنا نفس الحضارة ونفس التفكير . كان ماضينا عظيماً . . فلماذا لا يكون حاضرنا أعظم ؟ !

من هنا رأى طه حسين الصورة بوضوح . رآها لأن كل من يسافر بعيداً عن بلده يتعود أن ينظر إلى الأشياء من بعيد ، من مسافة . فمن بعيد . . تبدو تفاصيل الصورة تافهة . . وتبقى فقط الخطوط الأساسية . من بعيد تختفى الشجرة الواحدة . . وتظهر الغابة كلها . من بعيد يبدو الفارق أوضح ، والرغبة فى تعويضه والتفوق عليه . . أقوى . لهذا عاد طه حسين إلى بلده مدرساً فى الجامعة . مدرساً يريد من طلبته أن يفكروا بحرية . . حتى تنهض بلدهم بعظمة . عاد يؤلف هذا الكتاب الذى أثار الضجة . وحينما انتهى منه وذهب يصطاف فى إيطاليا جاءته برقية صديقه تخبره بجزء من السخط العام الذى قوبل به كتابه . لهذا قرر طه حسين أن يستقل أول سفينة .. قادماً إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة .

فى القاهرة كانت الأحداث تتخذ لنفسها مجرى آخر . إن الملك فؤاد بنفسه يريد للمناقشات أن تنتهى بعقوبة رادعة ضد طه حسين . والمناقشات نفسها مستمرة . .

إن مجلس الجامعة عقد اجتماعاً خاصاً . المناسبة : عريضة قدمها

حضرات علماء الأزهر الشريف يطلبون فيها مصادرة كتاب (فى الشعر الجاهلى) وإبعاد الدكتور طه حسين من الجامعة وإحالته على المحكمة. الاجتماع : استمر أربع ساعات . المناقشات : حامية جداً . السبب : هذه سابقة خطيرة . لا قيمة للجامعة إذا لم تستقر فيها حرية البحث العلمى. القرار : « أن مجلس الجامعة المصرية يكل لسعادة المدير تسوية مسألة الدكتور طه حسين مع السلطات المختصة ، على أن يراعى فى ذلك المبادئ الأساسية للتعليم الجامعى والشرف العلمى لهيئة موظفى التدريس بالجامعة » .

بدأ أحمد لطفى السيد — مدير الجامعة — يجرى اتصالاته مع السلطات المختصة. سلطات عديدة . هناك الملك . وهناك رئيس الوزراء . وهناك البرلمان .

فى البرلمان تعلو الأصوات — صوتاً بعد صوت — مطالبة بمعاقبة طه حسين ، ومعاقبة الجامعة كلها من خلال طه حسين . حينما تشتد المعارضة وتقوى ، لا يجد وزير المعارف — على الشمسى باشا — رداً يقوله سوى « إننا نطمع فى أن تكون الجامعة معهداً طلقاً للبحث العلمى الصحيح » . كلمات تضيع فى الهواء . . فالآلهة تريد الانتقام . . لا الحرية . الآلهة عطشى للدماء ! . لا للعلم .

هكذا بدأت الأزمة تتسع وتتسع . لقد تدخل الجميع فى مناقشة الكتاب . تدخلت المعارضة ، تدخل البرلمان — مجلس النواب أولا ثم مجلس الشيوخ — تدخلت الجامعة ، تدخل وزير المعارف ، تدخل رئيس الوزراء ، تدخل الملك .

ولكن . . مازالت هناك سلطة أعلى وراء الستار لم تتدخل بعد : السفير البريطانى .

إن السفير البريطانى — باعتباره ممثلا لقوة الاحتلال فى مصر — يحتفظ لنفسه بالكلمة الأخيرة فى أى موضوع . وحتى الآن ما زال

السفير البريطانى يحتفظ بكلمته لنفسه .

ولكن السفير لم يستمر على ذلك طويلا .

لقد فوجئ رئيس الوزراء — عبد الخالق ثروت باشا — بالسفير البريطانى ذات يوم يدخل عليه فى مكتبه . وعلى الفور نسى رئيس الوزراء أن السفير البريطانى جاء بلا موعد . . بلا اتفاق . الاحتلال البريطانى نفسه ، جاء لمصر بلا اتفاق . لهذا لم يشعر السفير البريطانى بالحرج وهو يدخل مكتب رئيس الوزراء بغير موعد . إن السلطات العليا لا تستأذن من أحد . خصوصاً إذا كان رئيس وزراء !

لقد نسى رئيس الوزراء كل شىء عندما بدأ السفير البريطانى يتكلم .

قال السفير : إيه حكاية طه حسين دى ؟ السنة اللى فاتت كانت حكاية على عبد الرازق . . والسنة دى حكاية ثانية لطه حسين . . لازم تشوفوا لكم حل !

ما هو الحل ؟ بدأ رئيس الوزراء على الفور يناقش المسألة مع سعادة السفير . فى النهاية توصلا إلى اتفاق يمنع تحويل طه حسين أمام الناس إلى بطل فى النهاية . عند هذه النقطة خرج السفير البريطانى من مكتب رئيس الوزراء . ولأول مرة منذ نصف ساعة بدأ رئيس الوزراء يتنفس الصعداء . لقد استطاع أن ينقذ الوزارة من السقوط !

ذهب رئيس الوزراء إلى مجلس النواب بغرض تهدئة الأزمة . ولكنه اكتشف أن المعارضة قد أصبحت أكثر قوة .. وشراسة . فقد وحدت المعارضة جهودها فى اقتراح يطلب من الحكومة اتخاذ الإجراءات التالية :

أولا : مصادرة وإعدام كتاب طه حسين المسمى (فى الشعر الجاهلى) .

ثانياً : تكليف النيابة العمومية برفع الدعوى على طه حسين مؤلف هذا الكتاب .

ثالثاً : إلغاء وظيفته من الجامعة ، وذلك بتقرير عدم الموافقة على الاعتماد المخصص لها .

وعندما وقف على الشمسي – وزير المعارف – يعلن أن الوزارة لا تمانع فى إعدام الكتاب ،لم تهدأ المعارضة . ليس أقل من فصل طه حسين !

فى هذه اللحظة وقف رئيس الوزراء ليعلن أن المعارضة إذا أصرت على هذا الطلب فإن الوزارة تعرض الثقة بها . هكذا هدد رئيس الوزراء بالاستقالة إذا أصيب طه حسين بأى ضرر غير قانونى . يكفى – لكى تموت الأزمة – أن يحول الاتهام الموجه ضده إلى النيابة .

عند هذا الحد تدخل سعد زغلول . إن سعداً هو زعيم حزب الأغلبية فى البرلمان . حزب الوفد . إن سعداً يريد أن يستخدم نفوذه وشعبيته لإنهاء الأزمة . دون أن يخلق لدى المعارضين إحساساً بأنه لا يوافقهم . سياسى . لهذا قال لهم سعد إنه ليس من المصلحة سقوط الوزارة ، لأنها وزارة ائتلافية تضم حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين . وطلب سعد من الأعضاء الوفديين فى الوزارة أن يرفضوا طرح الثقة بالوزارة . وكانت الوزارة التى فى الحكم الآن ائتلافية برياسة عدلى يكن باشا .

النتيجة : شكلت لجنة لوضع تقرير عن الكتاب ، وأحيل الموضوع إلى النيابة العامة . ولكن .. حتى هذه الحلول لم تكن كافية بعد لتهدئة المعارضين لطه حسين ، فى كل يوم تزداد عوامل الأزمة تعقيداً ، وتتشابك عواملها ، وتتعدد أطرافها . إن أطراف الأزمة كثيرون ، ولكن دوافعهم هى التى تختلف .

فبالنسبة للسفير البريطانى فى مصر ، كانت المسألة هى التظاهر بأنه يمنع عن مواطن مصرى ظلماً يتعرض له من مواطنين مصريين آخرين . انتهازية .

وبالنسبة للملك فؤاد ، كانت المسألة هى أن السماح بالحرية فى الأدب اليوم معناه السماح بالحرية فى السياسية غداً . مصيبة .

وبالنسبة لسعد زغلول ، كان الصراع داخل رأسه بين موهبتين متعارضتين فيه : موهبته كسياسى يريد التصفيق ، وموهبته كمثقف يريد

حرية الرأى . مشكلة .

وبالنسبة لرئيس الوزراء ، فإنه لا يؤمن — كالمهاجمين — بالحرية . ولكنه أيضاً لا يريد تلقى هذا الدرس من المعارضة . أزمة .

وبالنسبة للبرلمان ، أصبحت المسألة سباقاً على من الذى يفخر بأنه أهدر دماء طه حسين أولا . فرصة .

أما بالنسبة لطه حسين ؛ فقد كان الموضوع كله بالنسبة له شيئاً أشبه بقصة بوليسية أحكمت خيوطها حول رقبته . تجربة لن ينساها طه حسين .

وكانت وجهة نظر كل طرف — فيما عدا طه حسين — تجد طريقها قوياً تحت قبة البرلمان . لهذا لم يكن غريباً أن يشهد مجلس النواب فى إحدى جلساته مشادة عنيفة بين النواب المعارضين فى المجلس ، وبين عدلى يكن كرئيس للوزارة الجديدة ، التى ورثت المشكلة عن وزارة ثروت.

فى جلسة ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦ حمل النواب حملة شديدة على الوزارة بسبب « . . سكوتها على ما ينفثه هذ الرجل — طه حسين — من تعاليم الكفر والإلحاد فى رءوس الشبان » وطالبوا بإجراءات أكثر حسماً ضد طه حسين . قال النائب عبد الخالق عطية مثلا فى تلك الجلسة : إن تصرف هذا الشخص « طه حسين» كان أيضاً مخالفاً للذوق ، إنه مدرس بالجامعة المصرية ، وهى معهد أميرى يعيش من أموال الحكومة الممثلة للأمة ، فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التى دينها الإسلام . . فلم يكن من المفهوم ولا من المعقول ولا من حسن الذوق أن يقوم هذا الشخص فيبصق فى وجه الحكومة التى يتقاضى مرتبه من أموالها .

وبعد أن رد وزير المعارف وقف عدلى يكن رئيس الوزراء ليقول : أريد أن أقول كلمة فى هذا الموضوع . فقد ذكر معالى وزير المعارف العمومية أن هذا الكتاب قد طبع ونشر فى عهد الوزارة السابقة . . . . . وأرى أن موافقتى على ما قرره وزير المعارف عمل حكومى صدر من

رئيس وزراء مسئول عنه . وإنى أفهم أن يظهر المجلس استياءه من الكتاب أو يترك لوزير المعارف الحرية فى اتخاذ إجراءات فوق ما اتخذته الوزارة من قبل . أما أن يقرر المجلس قراراً يخالف ما اتخذته الوزارة من قبل ، أو يلزمها بالقيام بعمل معنى زيادة عما عملية ، وعما وعد به وزير المعارف فهذا مالا أوافق عليه .

ولم تكن المناقشات الحامية مقصورة على أعضاء البرلمان . لقد امتدت إلى الشارع ، بعد أن بدأت من الشارع . هل طه حسين برىء ؟ إن الناس بدأت تفكر . لادخان بغير نار . بالتأكيد هناك شىء ما ضد طه حسين . . بالرغم من أن أحداً لا يعرف بالضبط ما هو . كان الناس يسألون بعضهم بعضاً : هل صحيح ما يشيعونه عن طه حسين ؟

— ماذا يشيعون ؟

— يقولون إنه رجل يكره الإسلام والمسلمين . وإنه لهذا السبب سمى ابنه « كلود » وابنته « مرجريت » . وكتبوا عنه فى الصحف إن له طفلة توفيت فقام بدفنها فى مقابر الفرنسيين ، وإنه عمد ولديه . . ومع ذلك يصرح بأنه مسلم ؟

هكذا بدأ خصوم طه حسين يلجأون إلى تجريح سمعته الشخصية كوسيلة لكسب الرأى العام ضده . ومع كل يوم يمر تتعقد الأزمة وتتعدد أطرافها وتختلف أسلحتهم . أطراف تتحرك من خلف الستار . من بين الذين يتحركون خلف الستار أحمد لطفى السيد مدير الجامعة . إنه — بحكم ثقافته ، وبحكم صداقته لطه حسين — يريد أن ينهى الموضوع بأقل أضرار ممكنة تصيب طه حسين . وهو — بحكم أنه مدير للجامعة — يريد أن يحفظ للجامعة كرامتها وحرية البحث فيها . ولكنه — بحكم أنه فى النهاية موظف عام — يريد التوفيق بين الضغوط التى يتعرض لها من السياسيين ، وبين الآراء التى يتفق فيها مع طه حسين .

هكذا بدأ أحمد لطفى السيد اتصالاته ، مع سعد زغلول من ناحية ،

والملك فؤاد من ناحية أخرى ، وعدلى يكن رئيس الوزراء من ناحية ثالثة .

وكان الحل الأول هو إقناع الناس بعدم صحة الإشاعات التى انطلقت تشكك فى إسلام طه حسين . يريد الناس ضماناً على إسلام طه حسين . يريدون على الأقل وثيقة يكتبها طه حسين ويذيعها باسمه . شهادة يعلن فيها طه حسين أنه مسلم وموحد بالله . شهادة مكتوبة ؟ طبعاً ! لماذا صنع الإنسان الورق إذا لم يكن لإثبات إسلامه ؟ !

هكذا أرسل طه حسين فى اليوم التالى كتاباً إلى مدير الجامعة ليذاع فى الصحف ، يقول فيه :

« كثر اللغط حول الكتاب الذى أصدرته منذ حين باسم (فى الشعر الجاهلى) . وقيل إنى تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه ، وإنى أعلم الإلحاد فى الجامعة . وأنا أؤكد لعزتكم أنى لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه . وما كان لى أن أفعل ذلك وأنا مسلم أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . وأنا أرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان لمن تشاءون وتنشروه ، وأن تقبلوا تحياتى الخالصة وإجلالى العظيم » .

إن طه حسين — قبل صدور كتابه — كان له جسم وعقل . الآن — بعد الكتاب — أصبح يحتاج إلى جسم وعقل و . . . إعلان عام يشهر إسلامه .

ولم تكن إذاعة هذا الإعلان فى الصحف إلا حلا واحداً . حل ثان : الجامعة تشترى جميع نسخ الكتاب من المؤلف حتى تمنعه من التداول فى السوق . مصادرة مهذبة . لهذا اشترت الجامعة ٧٨٧ نسخة من الكتاب بمبلغ مائة جنيه. كما اشترت من مكتبة أخرى ٣٤ نسخة بمبلغ ٥٧٨ قرشاً . فتكون مجموع النسخ المشتراة ٨٢١ نسخة صرف منها أربع نسخ للنيابة العمومية ، ونسخة لمدير الجامعة ، والباقى حفظ بمخازن الجامعة.

ولأن طه حسين يريد هو الآخر أن يستريح ، فقد حذف من الكتاب فصلا ، وأضاف فصولا ، ثم طبعه من جديد بعنوان مختلف ، الآن أصبح

عنوان الكتاب هو « فى الأدب الجاهلى » بعد أن كان « فى الشعر الجاهلى ».

ولكن هذه الحلول لم تفلح بإنهاء الأزمة . إن المهاجمين للكتاب أصبحوا كالبحر العاصف . بعد كل موجة هناك انحسار تبدو فيه قوى الهجوم وكأنها قد هدأت . ولكن الانحسار تبعه هجوم آخر أكثر شراسة وعنفاً . إن هؤلاء الذين يقفون وسط البحر العاصف لا يستطيعون مطلقاً معرفة ما إذا كانت الموجة الأخيرة هى الأقوى أم لا .

و . . .

لم تزل هناك موجة أقوى فى انتظار طه حسين وكتابه .

فقد أثيرت المسألة من جديد فى مجلس الشيوخ سنة ١٩٢٧ . وشكلت وزارة المعارف لجنة جديدة « للمرة الثانية » لكتابة تقرير جديد عنه بعد أن تغير عنوانه . إن النسخة التى فحصتها اللجنة هى الموجودة فى السوق الآن . . ومع ذلك فإن اللجنة كتبت فى وقتها تقريراً عن الكتاب المعدل تقرر فيه أنه يمس الدين . . وسردت اثنى عشر وجهاً أضاعها الكتاب على قرائه من أمر دينهم وهى :

١ – أضاع عليهم الوحدة القومية والعاطفية وكل ما يتصل بهما .

٢ – وأضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءته وأنها وحى من الله.

٣ – وأضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم .

٤ – وأضاع عليهم الثقة بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما كتب فيها.

٥ – وأضاع عليهم اعتقاد وصدق القرآن وتنزهه عن الكذب .

٦ – وأضاع عليهم الوحدة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبى بين الأنصار والمهاجرين .

٧ – وأضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .

٨ – وأضاع عليهم تنزيه القرآن عن التهكم والازدراء بما كتب فى سورة الجن وفى صحف إبراهيم وملة إبراهيم .

٩ – وأضاع عليهم تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .

١٠ – وأضاع عليهم صدق القرآن والنبى فيما أخبرا به عن ملة إبراهيم وصحف إبراهيم .
١١ – وأضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون من أعدائه .
١٢– وأضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .

ما هذا ؟

هذا إعلان حرب وليس تقرير لجنة . إن كتابا يفعل كل هذا بقرائه لابد أن يكون معجزة خارقة وليس كتاباً . ولكن . . لم يكن الكتاب معجزة ، ولا كان العصر عصر المعجزات .

كان الخلل كله هو هذه الطريقة التشنجية التى تصرف بها معارضو الكتاب . الخلل هو هذه الحالة المرضية التى يفكر بها المجتمع . مجتمع يخشى الصدمات أو الاهتزازات . أقل هزة تقلب السفينة . أقل صدمة تحطم رأسه . أقل كلمة تضيع على الناس دينهم . أقل مناقشة تشكك فى إيمانهم . أى إيمان هذا الذى يضيع بجرة قلم ؟ أى مجتمع هذا الذى يصيبه التشنج بسبب كتاب ؟ إن المجتمع – أى مجتمع – هو كالإنسان . حينما يكون الإنسان طفلا – حينما يكون ضعيفاً لا يستطيع الاعتماد على نفسه ، فإنه يكون حساساً لأقل نقد . وحينما يصبح الطفل رجلا . . لا يصبح النقد قادراً على إصابته بعقدة . . لأنه رجل . لأنه ناضج . لأنه يثق فى نفسه . والمجتمع فى تلك الأيام لم يكن يثق فى نفسه . أقل اكتشاف للخطأ يسبب له الانهيار . أقل هفوة تصيبه بالهستيريا . إنه مجتمع لا يتصرف بطريقة طبيعية . إنه – مثلا – لم يلجأ إلى مناقشة كتاب طه حسين بطريقة علمية . إذا كان طه حسين قد اجتهد وأخطأ ، إذن فليجتهد غيره . . ولا يخطئ . ولكن المشكلة لم تكن هى أن طه حسين أخطأ أو لم يخطئ . المشكلة هى أنه اجتهد برأيه . هذه هى الجريمة . عندما يشير أصبع إلى القمر . . ينظر المجنون إلى الأصبع . إنه لا ينظر إلى القمر . ينظر إلى الأصبع . هذا مثل

صيني . ولكنه يصدق تماماً على هذا النوع من المعارك الفكرية . إن طه حسين ناقش قضية . لم ينتبه المجتمع إلى القضية . . انتبه إلى طه حسين نفسه ، يشكك فيه ، يشوه سمعته ، يرميه بالكفر والإلحاد والزندقة . إن النقد لا يثير انتباه المجتمع . يثير غضبه . لا يدفع فيه حب التفكير . يدفع الرغبة فى الانتقام . لهذا كان طبيعياً جداً أن يتلقى طه حسين تهديداً بالقتل . نعم والله تهديد بالقتل . تهديد يقول فيه صاحبه ، الذى أرسل تهديده فى خطاب بالبريد : إنه يقسم بالله أن يقتل طه حسين إن لم يتوقف عن الهجوم على الدين . إن طه حسين لم يهاجم الدين ، ولكن هذه نقطة أخرى . من يقتل لا يفكر . إنه يقتل فقط .

وفعلا . . اضطر البوليس أن يفرض الحراسة الدائمة على منزل طه حسين لمدة شهرين كاملين . . حماية له من التهديد المتوقع بالقتل .

وكان معنى هذا التهديد بالقتل الذى تلقاه طه حسين .. خطيراً .

إن معناه أن حالة الهستيريا العامة التى أصابت من يعنيهم الأمر فى المجتمع المصرى قد جعلت استخدام القتل ضد طه حسين أمراً يحتمل التفكير . إن خطاب التهديد القصير الذى تلقاه طه حسين معناه أن صاحبه المجهول لم يعد يرفض رأى طه حسين فقط ، تفكيره فقط ، كتابه فقط . . إنه يرفض وجوده أصلا . يرفض طه حسين شخصياً . إن بعض أفراد المجتمع لا يريدون قتل الرأى فقط ، ولكن يريدون أيضا قتل صاحب الرأى . إنهم يريدون توقيع هذه العقوبة الأخيرة عليه . . لأنه لا يطيع . لا يفكر كواحد من القطيع . لأنه ليس واحداً من الذين يذهبون إلى أطلال الماضى يتحسرون ويذرفون الدموع ويلطمون الخدود . عشرة قرون ونحن نلطم الخدود . فى خلال تلك المدة مات فينا العقل ، والتفكير ، والاجتهاد . مات العالم والأديب والفيلسوف . مات المفكر .

إن المفكر ليست مهمته أن يلطم الخدود . أن يجلس القرفصاء

ويتحسر على الماضى ويندب حظه . إن المفكر مهمته أن . . يفكر . مهمته أن يبحث ويقارن ويفحص ويراجع . المفكر مهمته أن يطارد الأكاذيب بعقله ، لا أن تطارد الأكاذيب عقله . المفكر ليس شخصاً يأكل وينام ويستريح البال . إنه شخص يحمل الهموم . شخص ينزعج ويقلق ويسخط ويختلف ويناقش ويشك ويتساءل. إنه ليس طفلا يريد العودة إلى رحم أمه حيث الدفء والراحة والإعفاء من المسئولية مستحيل . من خرج من رحم أمه لا يعود إليه. من خرج إلى الحياة لابد أن يعيشها معتمداً على نفسه عاجلا أو آجلا، لا بديل لذلك إلا الانسحاب من الحياة . . إلا الموت . إن المفكر إنسان يعلم هذه الحقيقة . يعلم أن على المجتمع أن يصنع حياته وأفكاره لنفسه لا أن يستورد هذه الحياة والأفكار من آبائه — من ماضيه — جاهزة مقدماً ومصنوعة سلفاً لا ينقصها إلا الاستهلاك . . بغير فحص أو تأكد أو اختبار.

إن طه حسين فى كتابه « الشعر الجاهلى » لم يفعل أكثر من هذا . لم يفعل أكثر من مراجعة الماضى وفحصه . مراجعة تنحصر فى مجال واحد هو الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى . إن طه حسين أستاذ للأدب العربى فى الجامعة . هكذا كانت وظيفته منذ سنة ١٩٢٥ . إنه كأستاذ جامعى — مسئول عن تدريس الأدب العربى . وهو — كأستاذ أيضاً — مسئول عن طلبته — مسئول عن عقول . عن مستقبل . كيف يقدم أستاذ الجامعة مادته إلى الطلبة ؟ لقد تلفت طه حسين حوله فوجد أسلوباً سائداً لتدريس أدب اللغة العربية فى المدارس الحكومية . أسلوباً يعمد إلى « . . الكتاب والشعراء والخطباء والفلاسفة فيترجم لهم أو يختلس لهم ترجمة من كتب الطبقات على اختلافها ، ثم يتبع كل ترجمة بشىء من شعر الشاعر أو نثر الكاتب أو بيان الخطيب ، ثم يلم فى كل عصر بطائفة من المعانى يلفق بعضها إلى بعض فى غير فقه ولا فهم ولا احتياط ولا دقة ،

ويسمى هذا الخليط كله (أدب اللغة العربية) حيناً ، و (تاريخ أدب اللغة العربية) حيناً آخر ».

وطه حسين يرى أيضاً أن الطلبة يأخذون هذه الكتب المقررة عليهم فيستظهرونها « . . استظهاراً يستعينون به على أداء الامتحان . حتى إذا فرغوا من هذا الامتحان انصرفوا عما حفظوا أو انصرف عنهم ماحفظوا : لم ينتفعوا منه بقليل ولا كثير . ولم يتعلموا منه نقداً ولا بحثاً . ولم يفيدوا منه ذوقا ولا شيئاً يشبه الذوق » .

لهذا رأى طه حسين النتيجة واضحة . النتيجة هي أن هذه المدارس قد أغلقت أبوابها ونوافذها « . . إغلاقاً محكماً . فحيل بينها وبين الهواء الطلق ، وحيل بينها وبين الضوء الذى يبعث القوة والحركة والحياة . وظلت كما هى تعيد ما تبدأ وتبدأ ما تعيد . وتكرر فى كل سنة ما كانت تكرر فى السنة الماضية » .

إذن . . ما هو الحل ؟

إن الحل — كما سجل طه حسين فى كتابه هو أن « تلجأ وزارة المعارف إلى طائفة من الفنيين الذين يدرسون الأدب العربى فى ذوق ، ويقرءون اللغة العربية فى فهم وفقه ، ويتخذون منهما ومن العناية بهما لذة ومتعة . لا وسيلة إلى العيش وقبض الراتب آخر الشهر » .

ولكن إعداد المدرسين هو جانب واحد من المشكلة . الجانب الآخر — الأكثر أهمية — هو أسلوب تدريس الأدب العربى . إن طه حسين يريد أن يطبق طلبته فى الجامعة المقياس العلمى فى دراستهم لتاريخ الأدب العربى . إنه يرى أن تاريخ الأدب العربى قد لعبت به دوافع سياسية واجتماعية ودينية كثيرة . دوافع نسبت إلى هذا الأدب ما لم يكن فيه . وإن هذا التاريخ قد أصبح مقدساً لا يخضع للبحث الصحيح. كيف يدرس علمياً فى حين أن « . . البحث العلمى الصحيح قد يستلزم النقد والتكذيب والإنكار ، والشك على أقل تقدير » . ؟

هذا إذن هو الإساس الذى أخرج به طه حسين كتابه إلى النور . كتاب يفحص الشعر الجاهلى ويعيد النظر فيه . . رافضاً مالا يوجد دليل عليه ، مكذباً ما يرى أنه منحول ومختلق . لقد رأى طه حسين أن هذه النظرة الجديدة للشعر الجاهلى والأدب الجاهلى يجب أن تقترن أيضاً بشرط آخر يريده من طلبته فى كلية الآداب . شرط يلتزمه فى تعليمه لهم . فخلال تقديم طه حسين لمحاضرات طلبته فى الجامعة كان يصر على أنه يريد أن يعلم الطالب كيف يبحث ويشك ، ثم فى النهاية يؤمن ، بالتاريخ الصحيح للشعر الجاهلى والأدب الجاهلى .

وكان الحق مع طه حسين فى هذا الأسلوب الذى أراد أن يستخدمه كأستاذ جامعى . فالجامعة ليست مهمتها أن تعطى الطالب تعليماً . إنها تعطيه مفاتيح التعليم . مفاتيح الثقافة . الجامعة ليست مهمتها أن تصب الطالب فى قوالب فكرية معدة مقدماً . إن مهمتها أن تجعل الطالب يفكر بنفسه . مهمتها أن تحرك فى داخله قوى تجعله يفكر ذاتياً . يفكر . . ويقارن . . ويستنبط . . ويتساءل . . ويشك .

إن الشك عملية مؤلمة وشاقة ، لهذا يرفضها الشخص ، ويرفضها المجتمع ، حينما تنعدم ثقته بنفسه وبتاريخه وبقوته . إن هذا الذى يسكن بيتاً من زجاج يخشى عليه من أصغر حجر يقذفه أول عابر فى الطريق . أما الذين يسكنون مجتمعاً متيناً متماسكاً ، فإنهم لا يخشون النقد والمعارضة و . . الشك . إنهم يفعلون ذلك لأنهم يعلمون أن من يؤمن بعد الشك والمناقشة هو المؤمن حقاً . إنه مؤمن بعد تفكير وموازنة .

ولم يكن المجتمع قد وصل بعد إلى تلك الدرجة من الثقة بالنفس. لهذا تحول كتاب طه حسين من قضية أدبية فى الأساس إلى قضية سياسية فى النهاية. قضية محورها الأساسى هو : هل يجوز للمفكر أن يفحص أفكار المجتمع المستقرة .. الثابتة ؟ هل يجوز له أن يشك فيها ؟ هل يجوز له أن ينقدها ؟ باختصار — هل يجوز للمفكر أن . . يفكر بحرية ؟

هذه هى القضية ، كتاب طه حسين يدعو إلى حرية البحث العلمى . والمجتمع لا يريد حرية البحث العلمى . . ليس هذا فقط . بل إن المجتمع — فى الواقع — لم يكن يريد أساساً حرية الرأى ، فى حين أن طه حسين يصر فى كتابه على أن « الحرية . . شرط أساسى لنشأة التاريخ الأدبى فى لغتنا العربية ، فأنا أريد أن أدرس تاريخ الآداب فى حرية وشرف » .

لقد أصبحت القضية إذن : حرية . . أم لا حرية ؟ حرية رأى . . أم قتل الرأى ؟ ! هذا هو السؤال ! هذا هو سبب القذائف التى وجهت إلى طه حسين.

إن طه حسين له الحرية — كل الحرية — إذا أراد أن يوافق المجتمع وينافقه . طبعاً . ولكن ليست له الحرية — أقل حرية — إذا أراد أن ينبه المجتمع وينقده . جريمة . قد يتسامح المجتمع مع من يكذب أو يخدع ، أو يرتشى ، أو — حتى — يسرق ويقتل . . ولكنه لن يتسامح مطلقاً مع من يدعو إلى حرية الرأى إن المجتمع متفق على رأى . الرأى هو : إعدام حرية الرأى!

ولكن الذين يهاجمون الحرية لا يهاجمونها مباشرة أبداً. معقول أنهم يفرضون عليها الحصار . إنهم يبدءون بوضع تحفظات تؤدى فى النهاية إلى القضاء على الحرية بالقطاعى ، بالتقسيط . تحفظات تحول الحرية إلى مجرد كلمات ينص عليها القانون العام. قانون مع وقف التنفيذ .

إن القانون كان يكفل للجامعة كل الحرية . ومع ذلك اعترض الملك ، والبرلمان ، واعترضت الحكومة . . على كتاب طه حسين الذى يدرسه الطلبة داخل الجامعة . إذن .. لماذا الجامعة ؟! لماذا لم يكتف المجتمع بالتعليم الثانوى ، أو الابتدائى ، أو — حتى — بالكتاتيب ؟

إن السبب واضح . يريد المجتمع من الحضارة عناوين فقط . يريد واجهات براقة قد تقنعه بأنه قد أصبح عصرياً . يريد برلماناً

ودستوراً وقوانين وداراً للأوبرا وقصراً للملك وعيداً بجلوس الملك و — من باب الوجاهة — يريد أيضا . . جامعة ! جامعة تضم كلية للآداب فى مكان فخم هو قصر الزعفران .

أما إذا بدأت العقول تفكر وتناقش داخل الجامعة — إذا بدأ المجتمع يدفع ثمن عصريته — فإنه يتراجع فوراً . يفتح الله . الكتاتيب أحسن . إن الجامعة تصبح فى هذه الحالة « . . عدمها خير من وجودها » بتعبير نائب فى البرلمان سنسمع عنه فيما بعد .

نائب آخر فى البرلمان يخطب قائلا : « . . إننا لا نشكو من هذا الرجل حرية الرأى ، ولا ما تؤدى إليه من بحوث علمية وأدبية بريئة ، ولكننا . . . »

آه . . الآن يبدأ وضع التحفظات على حرية الرأى !

يقول النائب البرلمانى : « . . ولكننا نشكو منه غلاً ران على قلبه نحو الإسلام والمسلمين ، نشكو منه أن يتخذ من الجامعة حصناً يقذف من خلف أسواره غازاته السامة الخانقة ، فتصيب من الأخلاق والآداب مقتلا ، ثم ينفث سمومه فى نفوس الطلبة وهم غير مسلحين بالدين وغير مدرعين بتلك التعاليم التى تمكنهم — لو كانوا تعلموها — أن يهدوا الجبال هدًّا » .

سبحان الله ! . .

لقد أصبح كتاب طه حسين هو العقبة الوحيدة التى تمنع الطلبة من « . . هد الجبال هدًّا » !

هكذا قال النائب البرلمانى المحترم . ولكنه لم يقل لنا لماذا لم يقم هو شخصياً بـ « . . هد الجبل هدًّا » . لماذا لم يفعل هو ذلك ، ولم يفعل البرلمان ، ولا الملك، ولا المجتمع كله أيامها . لماذا لم يستطع كل هؤلاء أن « . . يهدوا الجبال هدًّا» لم يقل لنا النائب شيئاً من ذلك . قال فقط إنه يوافق على حرية الرأى . . بشروط . الشروط هى ألا

تمس حرية الرأى شيئاً من الأخلاق ، ولا تقترب من الآداب ، ولا تناقش التقاليد . مثل هذه الكلمات المطاطة ـ الأخلاق . والآداب والتقاليد ـ يمكن أن تتحمل تحتها كل رأى . . ويمكن أن يصادر باسمها أى رأى!

بهذا الأسلوب فى المناقشة كان يتحدث المعارضون لكتاب طه حسين . أسلوب آخر استخدموه فى تأليف الكتب ضده . فبمجرد ظهور كتاب طه حسين . . بدأت تظهر الكتب العديدة لمعارضته . معارضة لا تتم بين حجة وحجة ـ ياريت ـ ولكنها تتم بين حجة . . وعصا غليظة يمسك بها المعارضون .

خذ مثلا هذا الكتاب الذى خرج بعنوان (نقض كتاب الشعر الجاهلى) . كتاب من تأليف الشيخ محمد الخضر حسين المدرس بكلية الشريعة بالأزهر و « . . أحد علماء الأزهر ، وجامع الزيتونة ، وأستاذ آداب اللغة العربية بالمدرسة السلطانية بدمشق » ، وصفات رنانة أخرى .

إن الكتاب يبدأ بتصدير كتبه « . . حضرة صاحب الفضيلة العلامة النحرير والقدوة الشهير، مولانا الأستاذ المحقق الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى الديار المصرية » .

يقول الأستاذ المحقق فى تصديره : « . . إن الباطل ما برح يحارب الحقيقة الإسلامية المغلولة بسيوفه وشبهاته الضئيلة ، ثم يرجع خائباً بغير جدوى . وقد عاد اليوم إلى جولة يدفعه إليها نفر من المتأثرين بكتب الداعين إلى معاداة دين سيد المرسلين ، سقطوا على ما فيها من تضليل فالتقطوا منه ما راق لهم ، وظلوا يفرضونه على أنظار قرائنا وأسماع الطلاب من أبنائنا ، زاعمين أنه بضاعة جديدة هى تراث قرائحهم ونتائج أفكارهم ، محاولين بذلك تقويض بناء قامت فضائله الشامخة على أساس متين من الحقائق الراسخة . . فاستاء من عملهم هذا أهل العلم الصحيح

والأدب الصريح . ومن هذه الكتب رسالة عنوانها (فى الشعر الجاهلى) ، عرف صاحبها التعصب لكل ما فيه كيد للإسلام وحط من جلاله وفضائل عظمائه وآله » .

هل قرأ أحد كلاماً موضوعياً فى السطور السابقة ؟ . أبداً . لم تضم السطور غير كلمات رنانة ضخمة ، ثم اتهامات خطرة ضد المؤلف وليس ضد الكتاب . اتهامات أن المؤلف ناقل سارق مقتبس لأفكاره من أفكار المعادين للإسلام . هذا كل شىء !

إن نفس التحليل ينطبق بعد ذلك على الكتاب كله الذى حمل عنوان (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) .

إن المؤلف — محمد الخضر حسين — يقول فى سطوره الأولى من الكتاب : « وقع تحت نظرى هذا الكتاب — يقصد كتاب طه حسين — وكنت على خبرة من حذق مؤلفه فى فن التهكم ولو بالقمر إذا اتسق ، والتشكيك ولو فى مطلع الشمس الضاربة بأشعتها فى كل واد . . فأخذت أقرؤه بنظر يزيح القشر عن لبابه ، وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه ، وما نفضت يدى من مطالعة فصوله ، حتى رأيتها شديدة الحاجة إلى قلم ينبه على علاتها ، ويرد كل بضاعة على مستحقها . وما هو إلا أن ندبت القلم لقضاء هذا المأرب وسداد هذا العوز . . فلم يتعاص على » . .

ولكن يد المؤلف لم تكن تحمل قلماً . فى الواقع أنها كانت تحمل عصا يطارد بها المؤلف طه حسين . عصا يتوقع القارئ أن يراها فى أى لحظة تبرز بعد كل سطر من سطور الكتاب . عصا طويلة مدببة تهوى على رأس طه حسين وأفكار طه حسين .

فمن كلمات المؤلف نفسها نكتشف أن له رأيه الخاص فى طه حسين قبل أن يقرأ كتابه . إنه على خبرة سابقة من مهارة طه حسين فى « . . فن التهكم ولو بالقمر إذا اتسق » . لهذا فإنه بدأ يقرأ كتاب طه حسين

وهو لا ينوى النقد الموضوعي ولكن يريد أن « يزيح القشر عن لبابه ، وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه » هكذا يسجل المؤلف أنه من البداية لا ينوى أن يأخذ ألفاظ طه حسين بمعناها الصريح الواضح ، ولكن بمعناها الدفين المستتر بين السطور . هذا رجل بوليس يطارد مجرماً . وليس منطق مؤلف يناقش مؤلفاً آخر . إنه منطق يذكرنا ببعض المحاكمات الرومانية القديمة . محاكمات شكلية . محاكمات يبدؤها القاضى بقوله : احضروا لنا حبلاً نشنق به هذا المجرم . . بعد أن نحاكمه محاكمة عادلة طبعاً !

إن المجتمع كان يفعل الشىء نفسه مع طه حسين بسبب كتابه . بل إن المجتمع كان يناقض نفسه فى تصرفاته مع كتاب طه حسين ، وأحكامه التى أصدرها على هذا الكتاب . فبعد أن قام المؤلف بتعديل الكتاب شكلت لجنة أخرى لبحثه . وبدأت اللجنة تقريرها بالإشارة إلى هجوم طه حسين فى الكتاب على نظام تدريس أدب اللغة العربية فى المدارس الحكومية . قال التقرير : « . . يهاجم المؤلف هذه الطائفة — يقصد مدرسى اللغة العربية — ويعلل ذلك أن مدارسها مغلقة الأبواب قد حيل بينها وبين الضوء والهواء . وما أشد إيهام هذا التعليل ! وما أخفى وجه الفائدة منه ! وماذا كان عليه لو قرر الحقيقة فى هدوء واطمئنان ليكون لقوله نصيبه من الإرساء والقبول ؟ »

إن اللجنة تسلم إذن مع طه حسين بأنه يملك الحق فى هجومه . ولكن اعتراضها كله أنه لم يقرر « . . الحقيقة فى هدوء واطمئنان » ! غلطة فاحشة !!

وبعد صفحات قليلة يقول تقرير اللجنة من جديد عن نفس النقطة : « . . إن عملا مثل هذا أقل ما يوصم به أنه تشهير بوزارة المعارف وتنكيل بنظمها وطعن جارح فى تصرفاتها ، وهى القابضة على شئون التهذيب ، وهو العائش فى كنفها لا يراعى لها كرامة : ولا يجزيها

بعض حقوقها عليه ، وليس شيء وراء هذا من العقوق » حاشا لله !!

لقد جرؤ طه حسين على توجيه اللوم إلى الكعبة التى تسمى وزارة المعارف. وزارة فوق النقد والمناقشة . غلطة فاحشة أخرى تدل على مدى العقوق الذى تصرف به طه حسين .

بمثل هذا المنطق كانت تجرى مناقشة آراء طه حسين فى الكتاب . منطق مريض . وبمثل هذا الأسلوب كانت قائمة الاتهام ضده . قائمة تختتمها اللجنة بعبارات خطابية تحرض فيها الحكومة على معاقبة هذا الفاجر الفاسق طه حسين . عبارات تقول بعد عرض آراء طه حسين : « . . وهذا ما تبرأ منه النظم العامة ، والأديان ، والأخلاق ، وهذا ما يجب على حكومتنا الساهرة على حياطة الأمن العام أن تقاوم وتحاسب مثيريه » !

إن كتاب طه حسين إذن أصبح شيئاً خطراً على الأمن العام ومن قبل اعتبر الكتاب خطراً على الأخلاق والآداب والتقاليد والدين والإيمان والتاريخ !

مرة أخرى لم تنته الأزمة عند هذا الحد .

لم تنته ، لأنه عندما تفوح الروائح الكريهة داخل مجتمع ، فإنها لا تتوقف . لم يعد يكفى أن النيابة حققت مع طه حسين ، ولا أن ثلاث لجان مختلفة عهد إليها بفحص الكتاب قبل وبعد مصادرته . إن الطلب الأصلى — المعلق — للمعارضة هو أن يفصل طه حسين من الجامعة . مادام لم يفصل بعد . فإن العقوبة الرادعة لغيره لم توقع بعد . لقد جدد المعارضون طلبهم داخل البرلمان فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٧ ، ثم فى ٥ مايو سنة ١٩٣٠ ، ثم فتح الموضوع من جديد فى البرلمان سنة ١٩٣٢ . إن العقوبة لم تكن مهمة ضد طه حسين قدر أهميتها الآن . فخلال السنوات الماضية أصبح الرجل عميداً لكلية الآداب . ولكن الرجعية الفكرية وجدت مخلباً لها أخيراً على كرسى رياسة الوزارة ،

هو إسماعيل صدقى . هذا هو رئيس الوزراء الذى اختاره الملك فؤاد أخيراً ليحكم بيد من حديد . ولكى يحكم بيد من حديد . . فلابد أن يفعل أشياء كثيرة . . من بينها بالطبع كبت أى اتجاه لنشر الحرية الفكرية . لهذا كان وجوده فى الحكم فرصة يتجدد فيها الطلب القائم من قبل . . بفصل طه حسين من الجامعة . إن وزارة إسماعيل صدقى قررت فى ٣ مارس سنة ١٩٣٢ نقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف . ولكن هذا أيضاً لا يكفى .

لقد قدم المعارضون استجواباً فى مجلس النواب لوزير المعارف . بدأ الاستجواب بشكر وزير المعارف على « . . موقفه فى رعاية العلم والدين وتقاليد البلاد . وقد بدأ ذلك فعلا فأغلق معهد التمثيل والرقص التوقيعى الذى كان لوجوده مساس بآدابنا العامة وتقاليد الدين » .

بعد هذا الشكر حدد الاستجواب الاتهامين اللذين ينسبهما للدكتور طه حسين وهما :

أولا : « . . . اطلعنا على صورة نشرت بجريدة الأهرام تمثل طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية حول عميدهم الدكتور طه حسين وقد جلست كل شابة إلى جانب شاب . كيف وقع هذا ؟ وكيف تستمر وزارة المعارف على عدم احترام الشعور الدينى والآداب القومية ؟ »

ثانيا : « . . ما يزال كتاب (فى الشعر الجاهلى) يدرس فى الجامعة بعنوان (فى الأدب الجاهلى) . إن تغيير العنوان لم يغير شيئاً من روحه اللادينية . فإن السموم التى أراد الدكتور أن ينفثها فى كتابه ما تزال ماثلة فى كثير من فصوله ومباحثه . . . . . فكيف سكتت وزارة المعارف عن ذلك كله ولم تحرك ساكناً ؟ وكيف تسمح أن يكون ذلك الرجل عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية ؟ »

أما الاتهام الأول فقد رد عليه الوزير . أما الاتهام الثانى فهو

جوهر المشكلة القديمة . لهذا طالت فيه المناقشة . هكذا تكلم أصحاب الاستجواب عن الكتاب :

* النائب عبد الحميد سعيد : . . . يا حضرات النواب المحترمين . هذه مسألة من أكبر المسائل التى يجب أن نصفيها لتعلم الأمة المصرية أنها كانت مخدوعة فى هذا الرجل وأن من يقيمون الضجة الآن حول هذه المسألة يؤيدونه فى الفسق والفجور والخروج على الآداب القومية والتقاليد الإسلامية . (تصفيق) .

* وحينما يجرؤ نائب واحد — اسمه السعيد حبيب — على مقاطعة الهجوم ضد طه حسين يقف عبد الحميد سعيد من جديد ليقول : « أليس من المدهش أن يوجد فى هذا المجلس من يدافع عن طه حسين ؟ » مدهش . حقاً !

* مرة أخرى يقول أحد النواب : . . يجب أن يكون فى الجلسة فصل الخطاب فى هذا الموضوع . (تصفيق حاد) .

* نائب آخر يقول فى نفس الجلسة : . . إن الجامعات أنشئت لتكون منبعاً للفضائل ومورداً عذباً للعلوم وسياجاً للأخلاق وحصن وقاية من الرذيلة . فإذا كان استقلال الجامعات حائلا دون هذا كان عدمها خيراً من وجودها . . . ياحضرات الزملاء — لايكفينا مطلقاً أن ينقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف لأن مركزه بالوزارة يمكنه من الإشراف على فروع التعليم العربى فى أنحاء القطر . وفى هذا من الخطر مالا يخفى على حضراتكم . وإن مثل هذا النقل كمثل نقل جيش الاحتلال من العاصمة إلى منطقة القناة . (ضحك). يا حضرات الزملاء ، إن المعركة ناشبة الآن بين الدين واللادينية ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين الحق والباطل ، فلأى فريق أنتم منتصرون لا شك أنكم ستنصرون الحق وتؤيدون الفضيلة وتدافعون عن الدين والأخلاق . . . (تصفيق حاد . . متواصل) .

لماذا كان هذا التصفيق .. الحاد . . المتواصل؟ هل كان حقاً تصفيقاً للفضيلة ؟ للحق ؟ للدين؟ للأخلاق ؟ أم كان لدوافع أخرى أبعد ما تكون عن الفضيلة والحق والدين والأخلاق ؟ هل كان بسبب كتاب الشعر الجاهلى حقاً ؟ لقد سحب الكتاب من السوق وعدل . هل كان بسبب محاضرات طه حسين فى الجامعة ؟ لقد نقل طه حسين من الجامعة. إذن . . لماذا ؟ لماذا هذا الإصرار على أن تتم المطاردة حتى النهاية .. لماذا الإصرار على أن توقع العقوبة كاملة ؟ كل هذا حتى لا يفكر شخص آخر بحرية ؟ كل هذا لتحذير الآخرين من فحص أفكار المجتمع ومراجعتها ؟

نعم . هذا هو الوقود المتجدد فى الأزمة . السبب القائم دائماً . العقوبة المطلوبة دائماً . المطاردة التى لا تتوقف أبداً .

إن المطاردة لم تنحصر داخل البرلمان، ولا داخل مجلس الوزراء ، ولا داخل صفحات الكتب . إنها مطاردة استخدمت كل وسيلة . وجربت كل سلاح.

لم تهدأ المطاردة إلا حينما تقررت العقوبة الأصلية أخيراً . عقوبة الفصل والطرد . لم تهدأ المطاردة إلا حينما اجتمع مجلس الوزراء برياسة إسماعيل صدقى فى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢ وأعلن أنه « قرر مجلس الوزراء فصل الأستاذ طه حسين أفندى ، الموظف بوزارة المعارف العمومية ، من خدمة الحكومة » .

لقد تقررت العقوبة أخيراً . عقوبة ضد العقل والتفكير والمنطق والحرية . لا يهم . كل هذا لا يهم . أكثر من هذا لا يهم أيضاً .

فلا يهم مثلا أن أحمد لطفى السيد مدير الجامعة قدم استقالته احتجاجاً على هذا القرار الظالم بفصل طه حسين . لقد ذكر مدير الجامعة فى خطاب استقالته الذى أرسله إلى رئيس الوزراء إن فصل طه حسين هو أمر يمس كرامة البحث العلمى وكرامة الجامعة. يمس حرية التفكير

وحرية الرأى . يمس أبسط الحقوق التى يعترف بها أى مجتمع لأفراده .

ولكن استقالة مدير الجامعة لا تهم أيضاً . إن ما يهم الحكومة والبرلمان والملك ورئيس الوزراء هو أن توقع عقوبة حاسمة ضد طه حسين كإنذار لغيره وعبرة لمن تحدثه نفسه بالخروج على رأى المجتمع .

الآن فقط يمكن أن تهدأ المطاردة التى بدأت منذ ست سنوات . الآن فقط يمكن لكل القوى الكريهة فى المجتمع أن تعلن ابتهاجها وانشراحها للنتيجة التى توصلت إليها أخيراً . ابتهاج تم التعبير عنه . حتى بالشعر .

لقد نشر أحدهم قصيدة شعرية بعنوان «إلى طريد الدين والعلم» يقول فيها مخاطباً طه حسين :

بغضت بالإلحاد ذكر الجامعة
للناس لا فاتت يديك الجامعة
غادرتها للهزل داراً بعد أن
كانت ترجى للحياة النافعة
تملى بها التشكيك ليس العلم يا
أعمى التشكك فى الأمور الواقعة

شاعر آخر ، وقف يمدح رئيس الوزراء إسماعيل صدقى ، على قراره بفصل طه حسين ، فقال :

يكفيك أن أنقذت دين محمد
من شر طغيان اللئيم المفسد
لو أن شرع الله يجرى حكمه
لقضى بإعدام الشقى الملحد

نعم . لم يكف أن يفصل طه حسين . كان يجب إعدامه . معلهش . نعوضها فى المرة القادمة !

طه حسين يتكلم :
عندما طلب الملك فصلى !

اشتعل الحريق . . لم ينطفئ . .

لم تصل القصة — بعد — إلى نهايتها . . لم تصل — حتى — إلى ذروتها . . مازال الترمومتر يرتفع ويرتفع ، مسجلاً السخونة المتزايدة فى أحداث هذه المعركة . أحداث رأيت أن أسمعها من طه حسين نفسه . . فى منزله بشارع الهرم بالقاهرة . .

إن طه حسين — حينما تراه — لا تتذكر سوى كلمة واحدة : مصرى ! إن وجهه يبدو « مصرياً » . . ولا شىء آخر ! لا شىء خارق فى ملامحه ، غير نظارته السوداء ورأسه المتجه دائماً إلى الأمام إلى المجهول .

وتستطيع أن تتخيل طه حسين — هذا الرجل المتوسط طولا والنحيف جسماً . . بشعره الأبيض وعظامه البارزة — تستطيع أن تتخيله مدرساً فى الابتدائى ، أو موظفاً فى الحكومة ، أو إماما فى مسجد . إنه ليس أكثر من مصرى . نموذج جسمانى مركز للشخصية المصرية التى تقابلها فى الطريق . إذا قابلته فى الطريق فإنه قد يمر أمامك دون أن يتوقف نظرك عليه . إنك لن تفعل ذلك إلا حينما تجلس أمامه وتسمعه يتحدث . هنا فقط يبدأ طه حسين فى التميز والتأثير .

إن طه حسين لديه أسلوبه الخاص فى البساطة . بساطة الحديث وبساطة المناقشة . إن عقله معك : هادئ ومناقش ومستمع . وجهه أمامك : تتغير تعبيراته تبعاً للوقائع المتتالية التى ترد إلى خاطره . صوته فى أذنك : تتغير طبقاته أيضاً بحسب لهجته . لهجة يتخللها كثير من

الاستنكار وقليل من الضحك . وحينما يضحك طه حسين فإن ضحكته ليست كاملة أبداً . بالكثير شروع فى ضحك !

كنت أريده أن يتابع معى تطورات أزمته فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) . وعلى الفور بدأ طه حسين يتذكر كل وقائع الأزمة. وقائع لا ينساها أبداً .

لقد بدأ حديثه بصوت هادى متسامح .. لا يرتفع . تكلم بطبيعته وبساطته . . كأم تروى أسطورة لطفلها . أسطورة حدثت فعلا . . وفيها عفاريت . وشياطين وأشباح فعلا . وكلما تحدث طه حسين تعود هذه الأشباح والعفاريت إلى الحركة من جديد . كلما تكلم تحركت الشياطين بشراسة أكبر . وفيما بين الشبح والشبح —الشيطان والشيطان — يتوقف طه حسين عن الحديث لحظات قليلة . لحظات يتحول فيها إلى غطاس يغوص فى أعماق هذه الأزمة ليخرج لك عينات من تلك الأرض الفكرية التى تختفى تحت سطح حياتنا العامة . عينات قذرة تحتاج بعد الإمساك بها إلى غسيل يدك وعقلك . إن الماء العادى لايزيل أثر هذه القاذورات الفكرية ، لابد من مطهر يزيل من رأسنا كل التهم التى ألقيت على طه حسين بسبب كتابه « الشعر الجاهلى » . اتهامات عبر بها أصحابها عن أسلوبهم فى معالجة الأزمة . إنهم — خلال الأزمة — لم يكونوا يعبرون عن مشاعرهم نحو الكتاب ، ولا مؤلف الكتاب كانوا يبصقون ولا يعبرون . يبصقون مشاعرهم وآراءهم ، كمريض السل الذى يبصق دمه . . كاشفاً عن المرض الداخلى الخطير الذى يعانى منه .

هكذا كنت أحس كلما ناقشت واقعة جديدة من وقائع الأزمة مع طه حسين.

قلت لطه حسين : لقد صدر ضدك قرار من مجلس الوزراء بفصلك من العمل فى الحكومة ، عقاباً لك على الكتاب . هكذا كان القرار ثأراً لدين قديم — وآراء جديدة — ناديت بها منذ سنوات . ولكن السؤال

هو : ما هى المناسبة ؟ لماذا لم يصدر قرار الفصل إلا فى تلك السنة ـ سنة ١٩٣٢ ؟

أجاب طه حسين : لأنه فى هذه السنة ظهرت أسباب جديدة ـ إلى جانب السبب القديم القائم . ومن هذه الأسباب موقف لى مع وزير المعارف العمومية حينذاك : حلمى عيسى . لقد طلب منى حلمى عيسى وزير المعارف أن أزوره فى مكتبه . ذهبت إليه ومعى عبد الوهاب عزام ـ رحمه الله ـ وفى أثناء الزيارة قال لى وزير المعارف : « يا طه حسين . . باعتبارك عميداً لكلية الآداب ، نريد منك أن تقدم اقتراحاً للجامعة بمنح الدكتوراه الفخرية لعدد من كبار الأعيان . . يحيى إبراهيم وعلى ماهر وعبد الحميد بدوى وعبد العزيز فهمى وآخرين » .

ولكنى على الفور قلت لوزير المعارف : « ياباشا . . عميد كلية الآداب ليس عمدة . . تصدر إليه الأوامر من الوزير . أنا لا أوافق على إعطاء الدكتوراه الفخرية لأحد ، لمجرد أنه من الأعيان . لا أوافق . . ولا أستطيع حتى أن أعرض هذا الأمر على مجلس كلية الآداب . . لأن المجلس لن يوافق » .

فى هذه اللحظة ـ يقول طه حسين ـ بدأ التجهم والغضب كاملين فى صوت وزير المعارف. لقد رد الوزير « طيب . . أنت لا تسمع الكلام؟ حانشوف مين ينفذ كلامه» ! ! وفعلا . . عرض الأمر على مجلس كلية الآداب . ورفض المجلس منح الدكتوراه الفخرية للأعيان المذكورين .

الآن إذن ظهرت المناسبة للتحرك ضد طه حسين . سبب جديد آخر يضاف إلى الإسباب المخزونة من قبل.

ثم جاءت مناسبة أخرى.

يقول طه حسين : جاء الملك فؤاد بعدها بقليل لكى يزور الجامعة وكلياتها . وقبل وصوله سألنى زملائى ـ باعتبارى عميداً للكلية ـ

« هل نلقى محاضرات خاصة بمناسبة زيارة الملك ؟ » قلت لا . كل محاضرة كما هى ، وكل أستاذ فى محاضرته المعتادة . وحينما وصل الملك ودخل أول قاعة للمحاضرات فوجئ بالطلبة يستمعون إلى محاضرة عن النظام الدستورى . غضب الملك . ثم غضب مرة ثانية حينما دخل عدلى باشا – رئيس مجلس الشيوخ حينئذ – فصفق له الطلبة أشد مما صفقوا للملك ، فى الواقع أنهم لم يصفقوا للملك أصلا . هنا قال الملك فؤاد : « كيف يصفق الطلبة لعدلى ولا يصفقون لى ؟ هذا عمل من تدبير الملعون طه حسين » !

* * *

الآن – الآن فقط – أصبح الجو ملائماً للتحرك ضد طه حسين . لقد تعرض لغضب أكبر سلطة فى البلد . سلطة لا ترحم . ومن قبل تعرض لمعارضة وزير المعارف . وزير لا ينسى . ومن قبل الاثنين تعرض لسخط البرلمان . سخط مستمر . الآن فقط أصبح لابد من إجراء حاسم ضد طه حسين . لقد أوعزت الحكومة إلى أحد نوابها فى البرلمان بإعادة فتح موضوع كتاب (فى الشعر الجاهلى) من جديد . بعدها صدر القرار الذى تقرر من قبل : أولا بنقل طه حسين من كلية الآداب إلى وزارة المعارف ، وثانياً فصله من وزارة المعارف .

هكذا جاءت العقوبة الرسمية أخيراً . بعد ست سنوات من الهجوم والتشهير والتهديد . . تحركت السلطة ضد أستاذ الجامعة . تحركت الحكومة ، تحرك البرلمان ، تحرك الملك .

الآن أصبح طه حسين فى الشارع . ليس فى جيبه جنيه واحد . ليس فى بيته رغيف خبز . لقد بدأ أخوه ينفق عليه . يعطيه معونة يشترى بها الخبز لنفسه ولأسرته . هذا من بقى له أخيراً : أخوه . لا الزملاء ولا الأصدقاء ولا الأقرباء ظلوا معه . حينما تتحرك السلطة ضد أحد يختفى كل هؤلاء .

فجأة أصبح كل هذا سراباً : الوفاء ، النزاهة ، الحرية ، العدالة الحقوق . من الذى يستطيع الآن أن يعيد لطه حسين حقه الضائع فى مواجهة الحكومة ؟ من الذى يستطيع أن يرفع عنه ظلم السلطة ؟ من . . من . . من ؟ آه . . هناك ملجأ أخير : القضاء ! هكذا ذهب طه حسين إلى ساحة العدالة يطلب الثأر لحقه الضائع . ذهب يطلب إنصافه . . ضد الحكومة. الآن أصبحنا أمام قضية . قضية حقيقية تنظرها المحكمة . المدعى : طه حسين ، عميد سابق لكلية الآداب . المدعى عليه : الحكومة المصرية . محامى المدعى : عاوبة باشا . الحكم : يؤجل للجلسة القادمة !

حينما رفع طه حسين هذه القضية ضد الحكومة . بدأ كل شىء على ما يرام حينما تأجلت القضية للنطق بالحكم . المحامى أدى واجبه . كان ممتازاً . الظلم واضح. القاضى مقتنع . لكن نسى طه حسين ومحاميه أن هناك مفاجأة حملها الحكم . مفاجأة لم يشرح طه حسين أسبابها. مفاجأة سمعها طه حسين فى الجلسة التالية . الحكم : ترفض الدعوى .

* * *

عند هذه النقطة توقف طه حسين عن الحديث . توقفت ذكرياته لحظات قليلة . لحظات لم يعد يسمعنى فيها طه حسين . لم يعد يتذكر أننى أجلس إلى جانبه . أجلس شاباً ، صامتاً ، قلبى فى حلقومى ، دمائى فى رأسى . لقد نسينى طه حسين تماماً . أنا الآن غير موجود بالنسبة له . الموجود فى ذهنه هذه القضية التى خسرها ببساطة . الماضى فقط . الكتاب فقط . . الأزمة فقط . . الطرد من الوظيفة فقط . هذا كل ما يحتل رأس طه حسين الآن .

هكذا انقضى ربع ساعة ، نصف ساعة ، لا أتذكر بالضبط . إن لحظات الأزمة – كلحظات تذكرها – هى شىء خارج الزمن . . خارج العقل . إن وقائع الأزمة تعيد ذكريات طه حسين إلى نصف

قرن مضى . ولكن أسلوبها يعيده قروناً طويلة إلى الخلف . قروناً كان المفكر يعامل فيها كشخص خارج على القانون — أسوأ من خارج على القانون — خارج على الطاعة . طاعة الحكومة والسلطة والسياسة .

عدت أسأل طه حسين : أكانت السياسة هي السبب الرئيسي فى الأزمة التى أثارها كتاب (فى الشعر الجاهلى) . . أم أنها كانت سبباً إضافياً . . أرجو أن تعود بذاكرتك إلى السنة التى صدر فيها الكتاب . . سنة ١٩٢٦ . .

أجاب طه حسين : كانت السياسية طبعاً واحداً من الأسباب الرئيسية . الملك فؤاد كان يكرهنى لأنه ضد الديمقراطية السياسية التى أدعو إليها . وسعد زغلول كان زعيما لحزب الوفد . حزب كنت أهاجمه فى جريدة « السياسة » التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين . لهذا تحرك الأزهر ضدى وتحرك نواب الوفد فى البرلمان ضدى . .

قلت : بالنسبة للأزهر . . هل استمر هذا موقفه منك بعد الكتاب ؟

رد طه حسين : لم يتغير موقف الأزهر منى إلا بعد سنوات طويلة تالية . لقد وصل التغيير فيما بعد إلى درجة أنهم عرضوا على أن يمنحونى شهادة العالمية تكريماً لى . ولكنى اعتذرت عن عدم قبولها . قلت لهم لا أريد أن أصبح فى النهاية مثل على عبد الرازق ، أحصل على العالمية ثم يسحبها الأزهر منى ! ! حدث ذلك أيام كان الشيخ عبد المجيد سليم إماماً للقصر .

— وبالنسبة لسعد زغلول . . ماذا كان موقفه الحقيقى من كتابك ؟

— عندما قاد الأزهريون مظاهرتهم إلى بيت الأمة — بيت سعد — خطب فيهم خطبته المشهورة التى انتهت بقوله « . . وماذا علينا إذا لم تفهم البقر » هذا رأى سعد زغلول الذى أعلنه فى .

ولكن سعداً نفسه قال لأحمد لطفى السيد بعد ذلك : « يا أخى . . يعنى طه حسين بتاعك ده . . مش كان لازم يفتكر أن البلد ما زال

لا يتحمل بعد مثل هذا الكتاب » ؟ ! أى أن سعد هاجمنى أمام الجمهور مرة . اعتبرنى بقراً . ثم هاجم من هاجمونى أمام أحمد لطفى السيد مرة .

— فى أى من الرأيين . . تعتقد أن سعداً كان صادقاً ؟ !

— ربما فى الاثنين ؟ !

— ولكنى لا أتصور أن سعد زغلول كان معادياً للكتاب . . أو معادياً لك . .

— بالعكس . سعد دافع عنى أكثر من مرة . . قبل صدور الكتاب وبعده .

قلت لطه حسين : إذن . . كيف تفسر موقف سعد المتعارض فيما بعد : يشتمك أمام الجمهور . . ويدافع عنك أمام أحمد لطفى السيد ؟

— أفسره بأن سعداً أراد تهدئة الجمهور . .

— أى أن سعداً كان سياسياً أمام الجمهور . . وأنه تظاهر بأنه معهم لكى يهدئهم . .

— نعم . وحتى حينما تجدد عرض موضوع الكتاب على البرلمان بعد ذلك رفض سعد السماح بمناقشة الموضوع مرة أخرى وقال للنواب : هذا الموضوع انتهى ولا نريد أن نعود إليه من جديد . (توفى سعد فى سنة ١٩٢٧) .

قلت : حينما أعلنت إسلامك فى خطابك إلى مدير الجامعة . هل كان هذا اعتذاراً منك . . أو يحمل معنى الاعتذار ؟

أجاب طه حسين : مطلقاً . لم يكن اعتذاراً قط . كان حلاً وسطاً رآه رئيس الوزراء . .

— إذن لماذا اخترت ألفاظاً قاطعة تؤكد بها إسلامك . . ألفاظاً مثل « أنا مسلم أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » ؟ !

— لأن القرآن يقول هذا . يقول : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » . الآية قبل الأخيرة من سورة البقرة .

قلت لطه حسين : الآن مضت سنوات طويلة على تلك الأزمة . وأريد أن أسألك الآن بصراحة : هل جاء فى نيتك — فى أثناء تأليف الكتاب — أن تشكك فى الإسلام أو تمسه ؟

— لم يرد فى ذهنى شىء من هذا مطلقاً . ولقد أثبت للنيابة حينما حققت معى أننى لم أقصد قط المساس بالدين .

— إذن . . لماذا حذفت فصلا من الكتاب عندما أعدت طبعه بعد الأزمة ؟

— لأننى لا أريد تجدد الأزمة .

— قبل أن تصدر الكتاب . . هل كنت تتنبأ أنه سيؤدى إلى كل هذه الإزمة ؟

— لا .

— ولو افترضنا أنك كنت تستطيع التنبؤ مقدماً بالأزمة . . هل كنت تستمر فى تأليف الكتاب ؟

— طبعاً . لأن الكتاب هو رأى آمنت به واقتنعت . ولأنى آمنت أيضاً بشىء آخر : أن الحرية ضرورية لأى أمة تريد أن تنهض وتعوض مافاتها . إن الحرية شرط أساسى للفكر ، مثلما هى شرط ضرورى للأدب والعلم والفلسفة والفن .

قلت : فى صفحة ٥٨ من الكتاب ناقشت أنت هذه النقطة . نقطة أن الأديب والمؤرخ وكل مفكر . يحتاج إلى الحرية التى تسمح له بأن يقول ما يؤمن به . . سواء أعجب الناس أو لم يعجبهم . .

— نعم . لأن الحرية شرط أساسى للأدب ، مثلما هى شرط ضرورى للأدب والعلم والفلسفة والفن .

— هل تؤمن بذلك اليوم ؟

– أنا اليوم أشد تصميماً على ما آمنت به من قبل .
– هل تعتقد الآن بأن الحرية مفيدة للأدب أو مضرة ؟
– مفيدة طبعاً . . كيف تكون الحرية مضرة ؟!
– ألم تحس بالخوف وأنت تتابع تطورات الأزمة التى أثارها كتابك ؟
– لا .
– لماذا إذن لم تعد الفصل المحذوف إلى الكتاب ؟
– لأنى أريد أن أريح نفسى وأريح الناس.
– هل لديك الآن نسخة من الكتاب الأصلى ؟
– أبداً .
– لماذا ؟

– لقد طلبت من الجامعة بعد سنوات طويلة . أن تعطينى نسخة من مئات النسخ التى اشترتها من الكتاب إبان الأزمة . ولكننى وجدت أن كل النسخ التى كانت بمخازن الجامعة قد اختفت . أخذها الناس من المخازن .

– هل كان موقف الملك فؤاد منك متناقضاً هو الآخر ؟

– نعم . كان متناقضاً جداً . إن الملك فؤاد : حينما عدت من بعثتى بأوربا – قبل صدور الكتاب بسنوات – استقبلنى بترحاب شديد جداً وقال لى : أرجو أن تعتبرنى أخاك الأكبر .

وحينما ذهب إليه أحمد لطفى السيد بعد ذلك يعرض عليه أسماء الأعضاء الذين اختارهم للمجمع اللغوى قال الملك فؤاد : كيف تضع كل هذه الأسماء . . وتنسى أحسن واحد عندنا . . تنسى طه حسين ؟ ! هذا كلام فارغ . ضع اسم طه حسين. أقول لك ذلك برغم أننى أكرهه. إننى أكره طه حسين . . ولكننى أحترمه .

– لماذا إذن لم يستمر هذا الموقف من الملك فؤاد فيما بعد ؟

– لأنه بدأ يدرك أنى مؤمن بالحرية السياسية والحياة الدستورية . . وأدعو لهما . قبل ذلك كان الملك لا يحبنى ولكنه يحترمنى . بعد ذلك

أصبح الملك لا يحبنى . . ولا يحترمنى أيضاً !

— لماذا لم يؤيدك أصدقاؤك علناً فى أثناء الأزمة . . أحمد لطفى السيد مثلا ؟

— لم يتنكر لى لطفى السيد. ولكنه أيضاً لم يؤيدنى علناً حتى لا يتحول الهجوم إليه .

— هل أدى هذا الإرهاب الفكرى الذى تعرضت له . . إلى التأثير على مواقفك فيما بعد . . التأثير على أساوب محاضراتك فى الجامعة مثلا ؟

— لا . لم يحدث . بل إنه حدث بعد ذلك أن أحمد لطفى السيد أبلغنى باعتباره مديراً للجامعة أن رئيس الوزراء — محمد محمود باشا رحمه الله — قال له : « نحن الآن فى بداية السنة الدراسية الجديدة . . فقل لطه حسين بتاعك ده . ألا يتعرض فى دروسه لسيرة القرآن من قريب أو من بعيد » .

وقتها قلت للطفى السيد : حاضر . .

وفى أول درس التقيت فيه بالطلبة قلت لهم : «نبدأ هذا العام الدراسى الجديد بتفسير القرآن » . وبدأت فعلا أفسر للطلبة الجزء الأول من سورة البقرة . ثم طلبت أحمد لطفى السيد وقلت له : أنا الآن أفسر القرآن للطلبة . . وتستطيع أن تبلغ هذا لرئيس الوزراء . . على لسانى .

قلت لطه حسين : لقد تعرضت للقذف والسب والإهانة والتشهير والتهديد بسبب الكتاب . تعرضت للسخط والهجوم والتشنيع . تعرضت للفصل والجوع والطرد من الخدمة ، ألم يراودك — الآن أو فيما قبل — شعور بالندم على إخراجك هذا الكتاب ؟ !

رد طه حسين ، بثقة وتأكد : أبداً . مطلقاً .

— لو عدت إلى الوراء من جديد . . فهل كنت تؤلف نفس الكتاب ؟

— نعم .

— برغم كل ما جرى . . ؟

— نعم ، برغم كل ما جرى .

* * *

فى هذه الكلمات الثلاث حسم طه حسين موقفه . . نعم . برغم ما جرى . . وما يمكن أن يجرى . . لابد للمفكر أن يقول ما يؤمن به . لابد من ذلك . . وإلا أصبح المفكر كالمرأة التى تبيع نفسها لكل من يدفع الثمن . تبيع أكثر لمن يدفع أكثر . الفكر هو رأى قبل كل شيء . إنه رأى ، موقف ، وجهة نظر من الحياة والناس والأفكار .

هكذا اختار طه حسين لنفسه موقفاً من البداية . اختاره « . . برغم كل ما جرى » . لقد احترقت الشمعة فى يده من طرفيها . أراد أن ينير . . فاحترق . أراد أن يبنى للناس بيتاً جديداً . . تفكيراً جديداً . . فتعرض للقذف بالطوب . . والحجارة . . والوحل . لقد صنع لنفسه أصدقاء وأعداء . لقد جرؤ على أن يكتب الحقيقة . أن يشك بصوت عال . أن يتساءل فى قيمة أفكار ظل المجتمع يؤمن بها قروناً طويلة . . لقد فعل ذلك . . ثم تحمل المطاردة حتى النهاية . إننى أسأله اليوم « أما زالت تؤمن الآن بما قلته فى سنة ١٩٢٦ ؟ » . نعم . هكذا يرد طه حسين . لقد صودر الكتاب ، وحذف منه فصل وأضيف فصل . ولكن المؤلف ما زال يؤمن بما كتبه . هذه هى النقطة . هذه هى المسألة . لا الحذف ، ولا المصادرة ، ولا الطرد ، ولا الجوع غير له رأيا واحداً اقتنع به . لقد ظلت آراؤه معه . . يوماً بيوم . . سنة بسنة .

* *

إن الذين يعنيهم الأمر فى المجتمع المصرى وقفوا — صفاً واحداً — ضد طه حسين . لقد اعترضوه ، هاجموه ، شهروا به ، وأخيراً — عاقبوه .

ولكن هذا الأسلوب كشف عن الخطأ فى تفكيرهم بأكثر مما كشف عن الخطأ فى تفكير طه حسين .

وكلما كان المعارضون يصبحون أكثر شراسة ، كان هو يصبح أكثر تمسكاً برأيه . عمل يستحق فى حد ذاته أن نقف عنده . إن معظمنا – أيّاً كانت الأحوال – يسير مع القطيع . إننا نفعل ذلك لأن الخروج عن القطيع هو فى الواقع أمر يتطلب شجاعة بالغة ، ثم يتطلب شجاعة أكبر عندما تكون العقوبة التهديد بالقتل مثلا ، كما حدث مع طه حسين .

ومع أن أصحاب السلطة فى هذا القطيع كان لهم الانتصار الأخير ، فإنه لم تكن لهم الكلمة الأخيرة . فلقد كان انتصارهم مؤقتا بقدر ما كانت سلطتهم مؤقتة . فحتى قبل أن يتمكنوا من فصل طه حسين ، استطاع عدد من الأصوات أن يسجل اعتراضه على هذا الأساوب فى معاملة الرأى المختلف مع المجتمع . إن أحمد أمين ومحمد عوض محمد وأحمد لطفى السيد والسنهورى مثلا كانوا بعض هذه الأصوات القليلة التى وقفت مع طه حسين تؤيده بشدة . إن اعتراضهم على المجتمع لم يكن دفاعاً عن طه حسين فقط ، ولكنه كان أيضاً دفاعاً عن النفس . لقد أدركوا أن الحبل إذا التف حول عنق طه حسين اليوم ، فسوف يلتف - ول أعناقهم – كشققين – غداً . لأن حرية الرأى عندما تنتشر يستفيد منها الجميع ، وعندما تختفى يموت بسببها الجميع . هكذا إذن كانوا أبعد نظراً . . فكانوا فى النهاية أعلى صوتاً . . فى الدفاع عن طه حسين .

ومن ناحية أخرى فإن ما أعطى هذه المعركة كل تلك الأهمية ، هو أنها كانت فى جوهرها قضية مبدأ : هل نريد مواطنا يصفق . . أو مواطناً يفكر ؟ أنريد عقلا يوافق . . أم عقلا يشك ؟ أنريد تاريخاً نقدسه . . أم نريد حقائق نفحصها ؟ أنبحث عن ماض يحيرنا أمره . . أم عن مستقبل يحيره أمرنا ؟ !

إن هذا المبدأ هو الذى أضاف ظروفاً مشددة جعلت كل طرف يصر على رأيه : طرف نقل نتائج ثورة سنة ١٩١٩ من السياسة إلى الفكر..

وطرف يخشى أن تنقل نتائج ثورة سنه ١٩١٩ من الفكر إلى السياسة .

طرف يريد رفع الوصاية عن عقول مواطنيه ، حتى يتم رفعها عن رضهم . . وطرف آخر لا يريد .

إنه لا يريد — ليس لأنه لا يرغب فى الحرية فقط — ولكن لأنه يخاف من الحرية أيضاً . الحرية مخيفة ؟ نعم . أحياناً تكون الحرية مخيفة ! إنها مخيفة . . لأن الحرية هى أيضاً . . مسئولية . أن تكون حراً معناه فى الوقت نفسه أن تكون مسئولا . إن السجين لا يبحث فى داخل السجن عن الطعام ، لأن غيره سيأتى له به . ولكنه إذا أراد الخروج من السجن فلابد أن يصبح مسئولا عن طعامه . . عن نفسه . . عن حريته .

وفى المجتمع المصرى أيامها كانت هناك قوى كثيرة تخاف من الحرية . إنها تخاف من الحرية على سلطتها . . وتفكيرها . . ووجودها . إنها تخشى من أن تصبح حرية الرأى قيداً عليها ومانعاً لتصرفاتها . لهذا كانت شرسة . وكانت خائفة .

والذين يخافون من الحرية على سلطتهم يطلبون راحة وليس نقداً . راحة البال . وراحة العقل . وراحة التفكير . راحة من المسئولية . من الحساب .

إن راحة البال والتطور هما غالباً عدوان أكثر مما هما صديقان . ومادام التطور — فى المدى البعيد — أكثر أهمية من راحة البال بالنسبة لمجتمع . . فإن على المجتمع أن يضحى براحة البال كلما تعارضت مع ضرورات التطور .

إن التطور كان يفرض على المجتمع المصرى أن يحيط وليده الجديد — الجامعة — برعاية تتفق مع دورها الجديد الذى أصبحت مرشحة للقيام به . من المسجد إلى الجامعة . فطوال قرون طويلة سابقة قامت الكنيسة فى أوربا ، وقام المسجد فى الشرق ، بمهمة تشكيل أفكار الناس فى حياتهم اليومية . إن التطور الجديد الذى أتت به الحضارة الحديثة بدأ

يرغم المجتمع المصرى على قرار حاسم عانى طويلا بسبب تأجيله . قرار : نقل مهمة تشكيل عقول وشخصيات وأفكار الأجيال الجديدة إلى الجامعة . جامعة ما زالت فى دور الطفولة . جامعة تحتاج أول ما تحتاج إلى الحرية . حرية البحث والتفكير والجدل والمناقشة . حرية فحص الأفكار الجاهزة والنظريات الموروثة . حريتك فى أن تفكر ، وأن تعبر عن أفكارك بصوت مسموع . هذا هو جوهر عملية شاقة وطويلة اسمها : البحث عن الحقيقة . بغير حقيقة ، وبغير حرية فى البحث عن الحقيقة ، فإن الجامعة تصبح مستحيلة . إنها تظل ممكنة فقط كشكل وواجهة ومجموعة مبان ، ولكنها مستحيلة كمضمون .

إن المضمون الذى تمثله الجامعة يعتمد تقليداً على ثلاثة مجالات تتحرك فيها : بحوث نظرية وعملية لتوسيع حدود المعرفة — فحص مستمر للأفكار الجاهزة — ثم مشاركة الأفكار والمعرفة مع باقى الأطراف الأخرى المهتمة فى المجتمع .

إن المهمة التى تقوم بها الجامعة هى المسوغ النهائى لمنحها شخصية متميزة . إننا نرى الجامعة — شكلياً — منفصلة عن المجتمع الكبير الملتف حولها ، بسور ضخم يحيط بها . إن هذا السور هو رمز وعلامة . إنه علامة على أن كل شىء فى داخله معفى من الرقابة ومتمتع بالحرية .

إن الحرية إذن بالنسبة للجامعة ، ليست هدفاً فى حد ذاتها . إنها وسيلة لهدف . إنها وسيلة لتعليم الطالب والمدرس على السواء . وسيلة لتدريب العقول الحرة ، ولخلق العقول الحرة . وسيلة لجعل التعلم حواراً يتبادله جيل مع جيل ، والماضى مع الحاضر . لمصلحة المستقبل . أما حينما يفرض المجتمع حراسة مستمرة على الأفكار داخل الجامعة . فإنه بذلك يعلن إرادته فى أن تكون مصنعاً للعقول المغلقة ، وليست ميداناً للعقول المفتوحة

إن العقل المغلق ، من جانب طالب الجامعة ، سوف يظل عقلا ، وسوف يظل من الممكن تهذيبه ، و — ربما — يمكن أيضاً تدريبه .

ولكن لايمكن قطعاً تعليمه . والعقل المغلق ، من جانب أستاذ الجامعة ، سوف يستطيع أن يعطى التعليمات ، و ـ ربما ـ يمكن أيضاً أن يلقى محاضرات . . ولكنه لن يستطيع قطعاً أن يعلم .

هكذا إذن نرى أن الحرية الفكرية ليست هدفاً فى حد ذاتها . إنها وسيلة ضرورية للهدف نفسه الذى قامت من أجله الجامعة . إنها ـ الحرية ـ ليست امتيازاً يمنحه المجتمع لطائفة من أعضائه ويسحبه من غيرهم . إنها ليست ترفيهاً . ليست كماليات . إنها ـ الحرية ـ « بوليصة تأمين » من المجتمع على مستقبله . بوليصة تأمين تضمن للمجتمع أن الجيل التالى من المواطنين سوف يكون قادراً على إدارة شئونه وبلده بضمير ، بعقل ، بمسئولية .

ولقد كان العمل الذى ارتكبته السياسة ضد طه حسين خالياً من أى شعور بالمسئولية . فلأنك لست محتاجاً إلى ارتكاب أكثر من جريمة قتل واحدة لإثارة الذعر فى مدينة بأكملها . . فإنك أيضاً لست محتاجاً إلى أكثر من اعتداء واحد على الحرية لكى ينتشر الخوف منها فى مجتمع بأكمله . إن تحرك السياسة ضد طه حسين ـ بتلك العصبية وتلك الهستيريا ـ قد سحب من الجامعة . . ولو لفترة محدودة تالية . . أهم أربعة أحاسيس يحتاج إليها أستاذ الجامعة . لقد سحبوا منه الإحساس بالاستقرار : فالخوف موجود من خارج الجامعة على البحث داخل الجامعة . سحبوا منه الإحساس بالأمن ، فالمجتمع يقف خارج السور متربصاً لما يحدث داخل السور . سحبوا منه الإحساس بالاستمرار ، فالأفكار داخل عقله يمكن أن تصيبها فجأة شظايا الحساسية التى يحيط بها المجتمع أفكاره . هكذا أخيراً ـ بعدم عدم الاستقرار والأمن والاستمرار ـ سحب المجتمع إحساس الأستاذ بالعدل .

إن الذى أضاع العدل من صدام طه حسين مع السياسة ، هو أن السياسة استطاعت أن تسحب القضية كلها بعيداً عن ميدانها الأصلى ،

وتعطيها عنواناً غير عنوانها الحقيقي . لقد جعلوا القضية : « دين أم لا دين » ؟ « إيمان . . أم إلحاد » ؟ في حين أن القضية أساساً هي : حرية . . أم لا حرية .

لقد غاب عنهم — أو ربما كانوا يدركون — أنه قبل أن تموت حرية التفكير والتعبير داخل الجامعة . . تكون قد ماتت في كل مكان آخر بالمجتمع . حينما يتغير اتجاه « الدفة » في السفينة ، يتغير اتجاه السفينة كلها .

* * *

إن هذه المعاني تعيدني فوراً إلى طه حسين ، وأنا الآن في البيت مع صاحب القضية ، مع طه حسين .

لقد تحركت الحياة . تحركت بكل ما تحمله في أحشائها . لقد مضت الأزمة . مضت بكل من تصرف فيها . . كجبان ، أو كبطل . لم يبق في النهاية سوى شيء واحد : أن ما بدا في لحظة شريراً ، مؤلماً ، قذراً . . أصبح هو في النهاية مصدر التفكير والمراجعة والفحص . فحص أفكار المجتمع أولا بأول . في النهاية يطل لنا الدرس بكل قوته : لا شيء يجب إعفاؤه من المراجعة . لا شيء . . ولا أحد . . بما في ذلك طه حسين نفسه ، الذي أثار كل هذه الزوبعة .

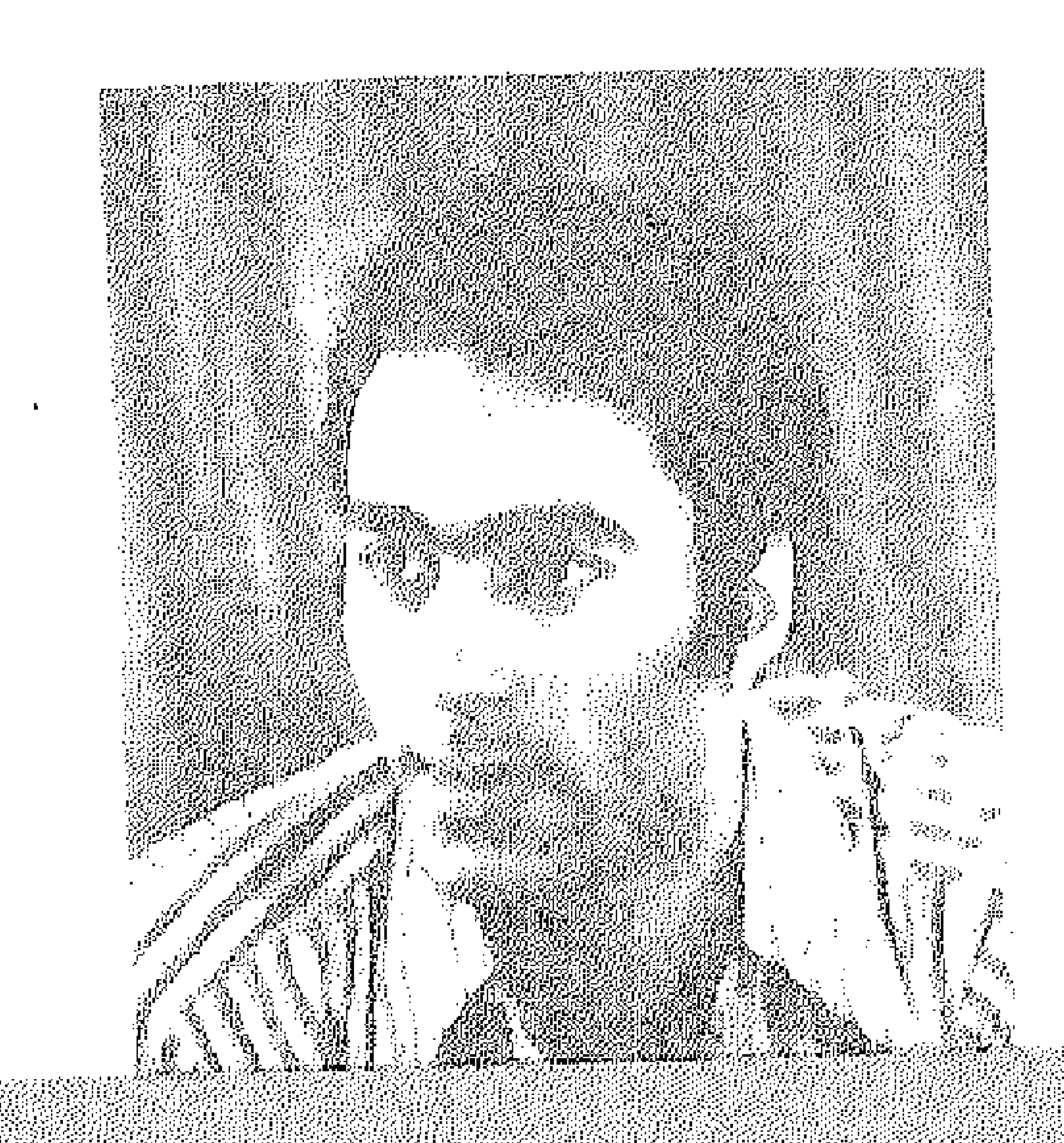
وقبل أن أخرج من بيت طه حسين كان سؤالي الأخير له بسيطاً هل تغير شيء ؟ !

وتمتم طه حسين ، بأسف كثير وخيبة بالغة : لم يتغير شيء كثير !

و . .

حتى هذه الإجابة ، كانت مجاملة من طه حسين !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٩١٨ / ١٩٧٢
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢



هذا الكتاب

● يقول المؤلف عن كتابه هذا : « إننى أستطيع أن أعطيك قلبى .. فأصبح عاشقاً . أعطيك طعامى .. فأصبح جائعاً . أعطيك ثروتى .. فأصبح فقيراً . أعطيك عمرى .. فأصبح ذكرى . ولكننى لا أستطيع أن أعطيك حريتى . إن حريتى هى دمائى ، هى عقلى هى خبز حياتى . إننى لو أعطيتك إياها فإننى أصبح قطيعاً . شيئاً له ماض .. ولكن ليس أمامه مستقبل .

● بهذا المنطق يناقش المؤلف هنا أربع قضايا .. وقف فيها طه حسين وقاسم أمين وعلى عبد الرازق والكواكبى بمفردهم .. ضد مجتمع بأكمله . لقد قال كل منهم كلمته .. ثم وقف بعدها يدافع عنها ويدفع ثمنها لسنوات طويلة من عمره .

● و .. القضية فى كل مرة هى : حرية الرأى !